

المدن المنسية في بلاد العرب

ستيوارت إرسكين

الرسوم بريشة الميجر بنتون فليتشر

ترجمة : عبدالإله الملاح

ستيوارت إرسكين

المـدن المنسـيـة

في

بـلاد العـرب

الرسوم بريشة الميجر بنتون فليتشر

ترجمة

عبد الإله الملاح

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

ارسكين، ستيوارت،
المدن المنسية في بلاد العرب / ستيوارت ارسكين؛ ترجمة عبد الإله الملاح. – ط 1 – أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، 2009.
ترجمة كتاب: The Vanished Cities of Arabia

ص ؛ سم.

ت د م ك 978-9948-01-262-7

1– المدن – فلسطين – تاريخ. 2– المدن – العالم العربي – تاريخ. أ– الملاح، عبد الإله. ب– العنوان.



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1430هـ 2009م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 300 2 6215 971+
publication@cultural.org.ae
www.adach.ae

المدن المنسية
في بلاد العرب

الفصل الأول
شروق الشمس

ما الذي في شروق الشمس حتى يكون له هذا التأثير الذي يفتن المخيلة ويسحرها بهذه القوة؟ فتأثيره عادة أقل سحراً وفتنة من الغروب، إذ كثيراً ما تختبئ الشمس بحياء متكلف وراء السحب الشبيهة بالصوف، وأنت لا تدري بوجودها حتى تجدها قد صعدت وارتفعت عالياً بكل تجبر. لكن جمال المشهد يمثل أمامنا، وربما كان سبب هذا الافتتان إلى ما يثيره هذا المشهد في المخيلة، فضلاً عن جماله الماثل للعين. حيث نرى بعين الخيال صباح العالم، بل الكون، بل الحياة ذاتها؛ إنها ترمز لبداية الأشياء وهي ملائمة على وجه الخصوص لبداية رحلة. إنها ملائمة أكثر من أي وقت مضى حين يكون هدف الرحلة موقع مدن اختفى ذكرها وتاريخها ويعود إلى عصور مبهمة.

لعل أجمل شروق للشمس رأيته في حياتي ذاك الذي صادفته صباح يوم عندما كنا ننتظر على التلال قبل نزولنا إلى البتراء. فكما أن البتراء تخرج ببطء من ضباب الزمن في التاريخ؛ كذلك تظهر قمم المدينة المحفورة في الصخر وكأنما مستها نار الشمس الصاعدة التي تخترق الضباب الأزرق تحتها شيئاً فشيئاً، وتشعل كتلة جبل هارون، وتلال الأدومية البعيدة وألوان قوس قزح في فسحة الغور المترامية. كانت تلك الألوان دقيقة رقيقة والهواء عليل وكأنما المشهد كله من غير هذه الأرض، حتى إن المرء لا يكاد يصدق أن ما يراه ليس من توهم الحواس.

كان المشهد الممتد أمامنا ذا دلالة تاريخية؛ فإلى الغرب تقع البتراء محشورة في إسفين عظيم من الحجر الرملي الأحمر، ولا تظهر إلا أعلى قممها الهائلة فوق الكتلة الضخمة، ووراء ذلك المشهد الخط الدقيق لجبل هارون، ذلك الجبل الذي صعد هارون إلى قمته ليموت، وهناك دُفن. ووراء البتراء تمتد صحراء سين في صحراء النقب، حيث ضاع أبناء إسرائيل في التيه، وعصوا موسى الذي شق الصخرة؛ أفتراها حقاً بوابة السيق كما تقول الرواية؟ (!)_ وتدفق منها الماء. يذهب الدكتور آلويز موزيل الذي تخوله دراساته المطولة

عن المنطقة أن يأتي برأي أصيل– إلى إن قادش التي أمضى فيها أبناء إسرائيل ثلاثاً وثمانين سنة مشردين لم تكن سوى البتراء. وفي مكان ما من هذه المنطقة وفي عصر سابق جاء عيسو بعد حادثة حساء الخضار، وطرد الحوريين الذين كانوا على ما بلغنا أول من سكن البتراء. ومن البتراء خرج عيسو وأربعمئة رجل ليقابل يعقوب الذي كان يمر بالمنطقة وأزواجه وخدمه وقطعان غنمه، ويريد استعطاف الأخ الذي أنكر عليه إرثه.

لابد لكل من يأتي من أوروبا– وهو على هذا القدر من الاهتمام بالعصور الوسطى– أن يعوِّد عينيه على عادة جديدة في تركيز النظر؛ فكأنما أتى المرء من جنة حسنة الترتيب للعيش وسط المحيط فلا يرى مهما امتد نظره سوى المياه. كل شيء في الشرق قديم عتيق؛ ولما كان كل شيء عتيقاً فلابد أن يكون مفتتاً مبعثراً. حضارات تقوم وتندثر، وأمم تصعد وتنال فترة من الرفاه، ثم تختفي مثل تلك المدن التي قدمنا من بعيد لنشاهد آثارها.

ولكن قبل أن نهبط إلى البتراء كان علينا أن نسعى كي نصل– ولو تكلفنا مشقة– إلى صورة تبين لنا الأزمان التي بلغت فيها عظمتها الأولى، ثم انحدرت وتلاشت من وعي البشرية.

إذاً علينا أن نعود إلى فجر التاريخ؛ فقبل قرابة أربعة آلاف سنة من مولد المسيح كانت الإمبراطورية السومرية تمتد من البحر الأحمر حتى جبال طوروس والجبال الأرمينية وتركستان، ومن المشرق حتى المحيط الهندي، فما هي حدود إمبراطورية الحموريين؟ كانت هذه إمبراطورية مترامية الأطراف، وتضم شريطاً من الأرض صغيراً على طرف البحر الأبيض المتوسط يعرف الآن باسم فلسطين، وقد بدأ ذكر فلسطين هذه في التاريخ حين طُرد الهكسوس عام 1700 ق.م من مصر، ثم مضوا لغزو سورية. ويظهر اسم هؤلاء القوم بين الحين والآخر في ألواح تل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وكانت مملكتهم تشكل جزءاً من الإمبراطوريتين الحثية والمصرية. وقد دامت هذه المملكة أربعة قرون تحت الحكم المصري، وكانت تؤدي واجب الولاء إلى دولة الآشوريين وبابل وفارس، ثم غلب عليها إسكندر الكبير بعد ما اجتاز في العام 333 مضيق الدردنيل، ثم مضى فدخل سورية ليطرد منها الفرس.

ثم أعقب ذلك أن دخول الأسرتين السلوقية والبطالسة المتناحرتين في حرب بينهما للفوز بفلسطين، حتى هزم انطيوخس الكبير الإغريقي بطليموس في معركة بانيون في العام 198، ثم كان صعود المكابيين في العام 135، وأعقبهم الرومان الذين ضموا سورية وعدوها مقاطعة رومانية، في ربيع عام 63 ق.م. وقد ظل الرومان حكام المنطقة حتى طردهم منها المسلمون. ولسنا في حاجة حالياً للتوسع أبعد من هذه النقطة؛ فالحق أن متابعة تقلبات مصائر فلسطين طوال هذا الوقت مدعاة للتشويش، فالأمر أشبه بهز المشكال (Kaleidoscope)، ثم مراقبة قطع الزجاج الملونة الصغيرة وهي تترتب وتعيد ترتيب نفسها في تكوينات تختلف باستمرار.

لم تنتقل فلسطين من سيادة قوة عظمى إلى أخرى فحسب؛ بل كانت أمم الشمال وأمم الجنوب تصعد على أرضها وتهبط، وكان ذلك شبيهاً بطريق معبدة بين الشمال والجنوب، لتصفية الحسابات بين هذه الأمم. وكان لابد لمراكز القوة أو التجارة الرئيسية أن تمر بهذه الطرق، سواء أكان المرور للحرب أم للتجارة، وكانت الجيوش تزحف وتهبط إلى غرب فلسطين، بسبب طبيعة تشكل الأرض، فتقاتل في الغالب باختيار منها في سهل اسدرالون، بينما كانت القوافل تختار الطريق الشرقي. ولما كان لتشكل الأرض الأثر الكبير بالتواريخ المنفصلة التي تتصل بفلسطين الشرقية والغربية؛ فإن علينا أن ننظر إلى المنطقة بعين الطائر من علٍ لنراها بأكملها.

لقد كانت فلسطين على الدوام أرضاً تسكنها قبائل، وعليه كان التغيير يصيب حدودها، كما تتغير أسماءها مع تغير حكامها، كذلك كانت حدودها تتمدد وتتقلص مثل قطع كثيرة من المطاط؛ إلا أن ثمة تقسيماً طبيعياً عظيماً ظل يقسم جزءاً من البلاد عن بقيتها، ليشكل حاجزاً روحياً ومادياً كذلك، وهذا الحاجز هو ذلك الغور الخارق الذي سببه انخفاض سطح الأرض حتى يبلغ ألفاً ومئتين واثنتين وتسعين قدماً تحت سطح البحر، عند شاطئ البحر الميت الذي ينخفض قعره في بعض الأماكن ليصل إلى ألف وثلاثمئة قدم. ويبلغ طول الشق العظيم أو حفرة الانهدام– كما يسميه العرب– مئة وستين ميلاً؛ إذ إنه يبدأ عند سفح جبل الحرمون (الشيخ). ويحتوي قاعه على بحيرتين هما الحولة وطبرية،

ونهر الأردن الجاري إلى الأسفل، وهي كلمة معبرة تماماً لأنه يندفع من الأعلى إلى الأسفل، حتى تضيع مياهه المتلاطمة في طريقها المتلوي في البحر الميت، أما البحر الميت ذاته فهو تلك الفجوة الفريدة من نوعها في العالم، وتترك مياه النهر البحر وتمضي في طريقها، وقد شاهدناها تلتف وتتجاوز البتراء من تحتها لتصب في خليج العقبة.

تختلف طبيعة الأرض شرق الحفرة الانهدامية اختلافاً بيناً عن غربها، وقد روى قصة غرب فلسطين مراراً وتكراراً من هم أكفاء لروايتها، ولسوف تظل الإنسانية شغوفة بهذه القصة؛ فبين جبالها الجرداء ووديانها الروابض نجد مهد ديانتنا، وأورشليم هي كنيسة العالم. إلا أن ما كتب عن فلسطين الشرقية قليل نسبياً باستثناء ما كتبه العلماء، وقصتها لا ترتبط كثيراً بالاضطرابات الدينية كما ترتبط بالسياسية.

صورة [مقابل الصفحة 12 في النص الانكليزي]

وادي موسى ووادي عربة

إن الشريط من الأرض الممتد من جبل الحرمون (الشيخ) في الشمال إلى خليج العقبة في الجنوب يجعل من جنوب الشق حداً إلى الغرب، ثم يلتقي بالصحراء العربية الكبرى شرقاً. والانقسامات الطبيعية في فلسطين الشرقية صنيعة ثلاثة أنهار كبرى هي: اليرموك واليبوق والمجيب، التي تحفر في الهضبة الصخرية أخاديد وشقوقاً عميقة، وهذه لم تكن تستجيب دائماً للانقسامات السياسية؛ بل من المستحيل متابعة التغيرات كلها التي كانت تؤدي بين الحين والآخر إلى تغيير الحدود الفاصلة بين القبائل ذات الهيمنة. وعلى وجه التقريب تكوِّن الأرض شمال اليرموك باشان القديمة، بما فيها المنطقة المعروفة منذ أقدم الأزمنة باسم حوران؛ وهي أرض ذات تربة غنية بالطمي والرواسب البركانية وهي أهراء سورية. وبين نهر اليرموك واليبوق تقع جلعاد، وهي منطقة جبلية وذات سهول خصبة مناسبة للرعي وجميع أنواع الفواكه والتوابل. وبعيداً إلى الجنوب حتى البحر الميت هناك عمون ومؤاب وأبعد من ذلك جنوباً أدوم. أما مؤاب فهضبة صخرية عالية يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين الألفي قدم وألفين وخمسمئة قدم، وهي كذلك أرض جيدة للرعي، لكن الصحراء تأخذ بالتجاوز على المراعي باطراد حتى يكون لدينا، في أدوم من الأرض الصخرية والرمال أكثر من أي شيء آخر.

تتغير الأسماء هنا كما في فلسطين الغربية بتغير أسياد البلاد، حتى اسم فلسطين صار يعني شيئاً مختلفاً جداً عما كان يعني بداية، وآية ذلك أنه كان يعني عند موسى ذلك الشريط على الساحل والمعروف بـ «فليستيا» وهو تحوير، وقد احتفظ العرب بالاسم الأصلي وما زالوا يطلقون على المنطقة اسم فلسطين. وعندما أنشد موسى نشيده في تمجيد الرب استخدم كلمة فلسطين بالمعنى المحدود، وأطلق على كل المنطقة اسم كنعان.:

«لسوف يسمع القوم ويرتعدون؛ ولسوف يتملك الأسى سكان فلسطين.

وعندئذٍ سوف يعجب أمراء أدوم، ولسوف يرتعد رجال مؤاب الأقوياء ويستولي عليهم الفزع، ويذوب حينئذٍ سكان كنعان».

وفي أيام المسيح كانت تعرف المنطقة ما بين اليرموك ومجيب باسم بيرايا، وهو اسم أطلقه الإغريق على شبه الجزيرة العربية وشرق فلسطين بأكمله (Coele - Syria) (سورية

المجوفة). وكان الفرس قد قسموا البلاد فجعلوها في ولايات (استرابيزات)، ثم هز الرومان المشكال هزاً شديداً، ورتبوا مناطقهم الجديدة وفق أفكارهم. وكانت الولايات يومئذ: بلستينا بريما وتضم يهوذا والسامرة، وبلستينا سيكوندا وتضم الجليل وشرق الأردن، وبلستينا ترتيا، وتشمل أدوم ومؤاب. وبعد ذلك جعل الصليبيون شرق فلسطين إقطاعية «شرق الأردن» [التي تمتد من خليج العقبة حتى الزرقاء]. ولكننا استرسلنا بعيداً عن فجر التاريخ وصباحه.

في أزمنة ما قبل التاريخ عاش شعب من العصر الحجري في شرق فلسطين، يشهد على وجوده نصب من الحجر وأعمدة وحلقات وخزانات المياه المنحوتة في الصخر. وفي فجر التاريخ كان هناك سكان الكهوف الذين عاشوا في وقت متأخر، وكانوا يسكنون مناطق معينة من البلاد. وكان الحوريون الذين سكنوا على ما يبدو كهوف بترا المنيعة من سكان الكهوف، ولا ريب بأن أماكن الاختباء الطبيعية تلك كانت زهيدة التكلفة ومأمونة؛ وفي زمن كان فيه كل مستوطن تحت رحمة القبائل البدوية، وفيما بعد بنيت مدن برمتها مثل تلك التي بقيت لنا آثارها في درعا تحت الأرض طلباً للأمن.

وسواء كانت بلاد العرب مهد العرق السامي أم لم تكن فإنها كانت موطن العالم السامي على مدى آلاف السنين، ويرجع العرب نسبهم إلى سام بن نوح، ويرون أنهم ينحدرون من صلب إسماعيل بن إبراهيم وهاجر؛ وليس هناك من برهان كاف على أنهم كانوا من الساميين أم من سلالة سابقة للساميين. وعلى أي حال فإن العرب كانت لهم حضارة عريقة في القدم، وإن كانت هذه الحضارة تختلف اختلافاً كبيراً باختلاف مناطق البلاد.

كان لبلاد العرب– شأنها شأن فلسطين– حاجز طبيعي يفصل البلاد إلى قسمين، سوى أن الفاصل، لم يكن هذه المرة نهراً وإنما كان أرضاً يباباً وصحراء مقفرة، هي «الربع الخالي». وكانت هناك اليمن أو بلاد العرب السعيدة كما كان يسمى ذلك الربع، وهي أرض شديدة الخصوبة، وتتمتع بحياة نباتية كالمعهودة في ما تحت خط الاستواء. وكانت التربة خصبة تأتي بموسمين من الحبوب في السنة، فضلاً عما تحفل به من الأشجار والأحراج التي تستخرج منها التوابل والبلسم، وقد اكتسب ذلك القسم من المنطقة شهرة واسعة

بسبب ثرواته التي أثارت طمع الأمم البعيدة.

وفي هذه المنطقة صعدت قبيلتان إلى أوج القوة وهما على التوالي سبأ وحمير. وقد اشتهرت هذه المنطقة لما تتمتع به من الثراء مما جعل الملك سليمان يطلب لتزيين المعبد الذهب والأحجار الكريمة من سبأ وملكة سبأ، التي عرفت «بعنايتها بالفلسفة»، ومضت لزيارته في مناسبة مشهودة. وقد ذهبت ملكة سبأ ومعها إبل محملة بالذهب والجواهر والمر والنارد، وسنبل الطيب، وجذر البلسم الذي يقال إنه أصل بلسم جلعاد. ومع أن الملكة كانت معتادة على البذخ البربري إلا أنها ذهلت بالرفاه الذي غلب على قصر الملك الحكيم، وقد أعجبها منه النظام الذي اتسمت به خدمة القصر وروعة الموائد، وما بلغته الحضارة من تقدم عند صاحبه. ولا ريب بأن الملكة حين عادت اقتدت بذلك؛ فأحدثت كل ما يلزم من الإصلاحات، ولكن الحقيقة تبقى أن سبأ كانت على قدر كبير من الحضارة حتى قبل ذلك الحين. وأقدم الوثائق التي توافرت لدينا عن بلاد العرب متضمنة في النقوش السبئية، وكانت امبراطورية سبأ تمتد من البحر الأحمر حتى الخليج العربي.

أما حمير– وهي القوة المهيمنة التي خلفتها في ذلك الجزء من بلاد العرب– فإنها لم تبلغ شأوها وإن برز بعض رجالها. وكانت سبأ وحمير تنطقان بالعربية الجنوبية التي تختلف كثيراً عن عربية أهل الشمال. وكان هؤلاء قوماً مسالمين وعلى النقيض من عرب الحجاز في الشمال، أولئك البدو الذين يعيشون في «بيوت الشعر»، وإن كانوا على دأبهم هذا في الزمن الحاضر، وينحدرون كما يقولون من نسل إسماعيل. ولما تحولت طرق القوافل من البر إلى البحر خسرَ عرب الجنوب مزاياهم التجارية، ثم تدهورت أحوالهم تدريجياً، حتى غلبت الحبشة على الحميريين بعد سقوط سبأ فاختفوا من المشهد.

ما كان أبناء الصحراء الحقيقيين بحاجة إلى الحضارة في تلك الأزمنة المبكرة أكثر مما يحتاجونها اليوم، وقد قال في وصفهم أحد الذين عاشوا بينهم إنهم منقسمون بين مجموعتين: العرب الأقحاح؛ وهم لا يستخدمون كلمة «بدوي» في حديثهم إنما مصطلح «العربي» الذي يشير إلى الجنس، ويشيرون إلى القسم الآخر بقولهم أنصاف أعراب. ويطلقون على بقية السكان اسم «الفلاحين». والعربي القح سيد الصحراء الذي يربي

الهجن، بينما عمل نصف الأعرابي – وهو بدوي أيضاً– تربية الغنم والماعز. وهذا الأخير أقل حرية من سواه في حركته وأكثر جنوحاً للاستقرار وزراعة الأرض، وهو يشكل بذلك الصلة بالفلاح المنبوذ الذي كان يوفر للأعرابي الذرة التي عمل في زراعتها والمرعى للإبل التي لا يملكها.

ويأبى البدوي تقديم الطاعة اليوم أكثر مما كان يرضى ببذلها حين كان العالم ما يزال في بواكيره، ولو فُرض عليه ذلك دفع بإبله إلى جوف صحراء غير ذات ماء، حيث لا يقدر أعداؤه الذين يمتطون الجياد على اللحاق به. ولو ثابروا على متابعته لقابلتهم بما لديه من أشكال الحيل الطريفة المبتكرة لمنعهم من متابعته، مثل ملء الآبار بحمل جمل من الجراد. ولعل قوانين الصحراء العظيمة ما زالت في الأرجح أشبه بتلك الشرائع القديمة احترام الضيافة وحماية العشيرة والانتقام لأي إهانة تلحق بها. ولطالما كان وجود هذه القبائل التي تضرب خيامها حيثما شاءت ومتى تشاء وتغير على مناطق الحضر يمثل دائماً خطراً على شرق فلسطين المكشوفة تماماً من ناحية الصحراء.

ولقد كان إلى جانب السبئيين والحميريين المتحضرين إلى حد ما وسواهم وأبناء إسماعيل الشرسين قبيلة من الأعراب تعرف بالأنباط بلغت شأواً عظيماً، وتحقق لها رخاء لم تبلغه قبيلة من قبل، ثم مضت إلى حيث سبقتها الأمم الأخرى، ولم تخلف سوى البدو غير المبالين الذين يقيمون مضاربهم على أطلال مجد غابر.

« بيوت الشعر الهزيلة كانت هنا، واستمرت الحضارة طوال أربعة آلاف سنة وغادرت النيل والفرات، ثم ارتدت عائدة من جديد بعد تداعي أحد أقوى قلاعها. فقد كان العرب أشبه بمحيط هادر، مسيطر عليه حيناً، ولكنه تغلب في النهاية على صبر وفضيلة إمبراطوريات عظيمة».

الفصل الثاني
البتــراء

لا بد من وقفة قبل الاندفاع إلى واد ينخفض ألفي قدم؛ لأنها لا تتيح لك أن تستمتع بالمشهد الهائل على امتداد ناظريك وحسب، بل تبسط أمامك هذه المدينة المهيبة الفريدة والمنفردة القائمة في الصخر. فهذه الوقفة تمنحك فرصة للتفكير الهادئ في القصة الرومانسية لعظمة البتراء وسقوطها وأفول ذكرها.

إننا الآن في قلب البتراء العربية، في أدوم التي كثيراً ما لعنها الأنبياء واشتدوا في ذلك. وقد اكتسب جبل عيسو سمعة بأنه موطن الشر والحكمة والأسرار؛ وكانت ذرية عيسو قوماً أقوياء يحكمهم أمراء. ولكن ما الذي جعلهم يهجرون ملجأهم في أعالي الجبال؟ يقول ديودورس سيكولوس: إنهم خرجوا من البتراء حين سنحت لهم الفرصة في الأسر البابلي للاستيلاء على بعض ممتلكات الإسرائيليين. ويبدو هذا في ظاهر الأمر محتملاً؛ نظراً لأن الأدوميين والإسرائيليين كانوا على الدوام أعداء، منذ أن منع الأدوميين موسى وأبناء إسرائيل من «عبور الحدود»، ولكن النبي ملاخي يقول: إن الرب أبغض عيسو فأباح جباله وملكه لوحوش البرية. وفي ذلك ما يوحي بأن مغادرة المكان كانت نتيجة قتال ولم تكن سلماً.

وتختلف الروايات في أمر أول من جاء إلى البتراء من الأنباط؛ ويقال أحياناً إنهم اتخذوا معقلهم الأول في الكرك، وهي ثاني جوهرة في الصحراء. ولربما كانوا قد قدموا إلى البتراء في القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، إلا أن أقدم إشارة بلغتنا عنهم في التاريخ العلماني ترجع إلى العام 312 ق.م، حين هاجمت قوات انتيغونس الأول المدينة وأخفقت. كذلك يرد ذكر الأنباط في الكتاب المقدس في قوله «أهل الجنوب» الذين ورثوا جبل عيسو؛ كما يرد ذكرهم في أسطوانة آشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد، وإن كان الشك قد اعتور هذا القول؛ فالمؤكد كما يبدو أن الأنباط كانوا المعنيين بذلك. وكان للأنباط صلة بسبأ عن طريق التجارة، ولا بد أنهم تمثلوا ما كان لهم من ثقافة وحضارة من المصدر ذاته.

فكانت لهم مستوطنات في أرض المينويين، ويرجح أنهم ينتمون إلى العرق ذاته. ويقول ديودورس إنهم كانوا «في المقدمة بين البدو الأعراب»، لكن لا يبدو أنهم كانوا جميعاً من البدو، حتى في الأزمنة الأولى؛ إذ إننا سمعنا بمدنهم التي لم تكن ذات أسوار لكونهم شعباً محباً للسلام. وليس في هذا بالمناسبة ما يدلل على أنهم من نسل نابت، وهو أول أبناء إسماعيل، ذلك الرجل العنيف الذي كانت يده تطال كل رجل.

إننا لا نعجب إذا علمنا ارتباط حضارة الأنباط بتدمر، وإن لم يكن لتدمر عظيم أهمية مثلما كان للبتراء، طالما أن هذه الأخيرة كانت مركزاً تلتقي عنده طرق القوافل الكبرى، ومع ذلك فقد كانت هاتان المدينتان تتصلان عبر هذه الطرق، كما أن تدمر ودمشق كانتا جارتين قريبتين. وكان الأنباط يتكلمون العربية، إلا أنهم كانوا يستخدمون الآرامية، وهي اللغة الغالبة في الإمبراطورية الفارسية، في النقوش والنصوص التي تصدر عن الأمراء والكبار والفرسان والمثقفين والأطباء والشعراء. ويقال إنه كان لهؤلاء أدب عظيم؛ ولكنني لست أدري ما الشاهد على هذا القول، و«كتاب الزراعة النبطية» الذي يفترض بأنه ترجم عن الكلدانية ليس أصيلاً على ما أظن.

لقد ارتفع هؤلاء القوم من تجار متواضعين ليصبحوا أصحاب إمبراطورية امتدت في وقت من الأوقات من البحر الأحمر حتى دمشق، ومثل قطعة من المطاط كانت رقعة إمبراطوريتهم تتمدد حسب الظروف وتتقلص. وبدأت فترة رخائهم الكبير قبل الميلاد بنحو مئة سنة، واستمرت حتى العام 106 ميلادية حين ضمت روما مناطقهم. وقد حافظ الرومان على استمرار التجارة وأهمية البتراء زمناً طويلاً، غير أنها كانت قد أخذت بالاضمحلال، وذلك بسبب التحول الذي طرأ على طرق التجارة وتنامي أهمية تدمر،

صورة [مقابل ص 22 في النص الانكليزي]
خزنة فرعون

حين سقطت روما والبتراء الرومانية. ثم أسدل الستار على البتراء في القرن السابع، ولم يرتفع هذا الستار إلا جزئياً خلال القرن الثاني عشر مع قدوم الصليبيين. وفي العام 1265 زار السلطان المملوكي بيبرس البتراء بعد استيلائه على الكرك، وصعد إلى هناك حيث تفقد حصن الصليبيين فيها؛ فوجده حصناً قوياً وهندسته مدعاة للإعجاب. ثم أسدل الستار نهائياً بعد ذلك على البتراء فتلاشت وكأنها لم تكن.

مرت القرون كئيبة على مصائر الإنسانية، غير أن الحاضرة الكبيرة التي تعج بالحركة غدت صامتة الآن صمت القبور المحفورة في جدرانها. ووحدهم الطلاب يثابرون في رغبتهم في إعادة اكتشاف المدينة الصخرية، ويحرص القوم على إبعادهم عنها؛ لأن القسم الذي يفترض بأن البتراء العربية تقوم فيه مملوء بأعراب محاربين يكرهون كل تطفل. وفي حالة البتراء التي يحرسونها بحرص شديد زاد فيه رواية تقول إن المنطقة كانت تحفل ذات يوم بكنوز عظيمة ما تزال مخبأة بين الكهوف.

وفي العام 1812– أي بعد قرابة ستمئة عام منذ أن غابت البتراء عن أبصارنا– جاء مستكشف مقدام عازم على القيام بعمل جريء، فأمضى ثلاث سنوات بين الأعراب

يتعلم العربية كأحدهم، وكان يتزيا بأزيائهم، ويطلق على نفسه اسم الشيخ إبراهيم؛ ومع ذلك فقد غامر بنفسه حين توغل في البتراء ومعه أحد الأعراب الذي كانت الشكوك تراوده. ولم يمض بركهاردت هناك سوى بضع ساعات، ولكنه خلص إلى أن هذه المدينة لابد أن تكون البتراء التي يتحدث عنها التاريخ؛ لأنه ليس هناك مكان آخر يشبهها سوى البتراء العربية. ولابد أنه قد خالجه شعور بالإثارة حين وقف في مكان أصبح كل زائر يقف منذ ذلك الحين، ولكن كلماته كانت واعية إلى أبعد حد؛ إذ كتب يقول: «ظهر للعيان على جانب الصخرة العمودية مقابل فتحة الوادي الرئيس مباشرة مبنى ضريح ضخم عثر عليه في أعمال التنقيب، وكان يُراد من اختيار المكان والجمال الذي كان عليه أن يتركا أثراً عظيماً لدى المسافر».

ومنذ أيام بركهاردت زار الموقع عدد محدود من الأثريين والعلماء، وعدد أقل من الزائرين العاديين، وكان الدكتور موزيل أول من أجرى دراسة علمية للقبور؛ وكان آخرهم السيد فيلبي المستشار البريطاني الراحل لحكومة شرق الأردن، وسير الكسندر كينيدي الذي تشهد كتبه حول هذا الموضوع إقبالاً متزايداً من الذين يهتمون بالبتراء. والمأمول أن تجري تنقيبات منهجية قريباً؛ لئلا تظل أسرار المدينة التي تعود إلى عيسو أو الحوريين قبله– ناهيكم عن الأنباط– مدفونة تحت الرمال الحمراء التي تغطي مدناً بأكملها كانت تنتصب في وادي موسى.

ولكن ها هي ذي الشمس قد ارتفعت وحان الوقت لنمتطي الرواحل باتجاه البتراء.

إن ساعة ونصف الساعة من هذه الرحلة لكفيلة بأن تحملك إلى أرض الحجر الرملي الأحمر، والطريق في الغالب منحدر وأحياناً زلق، ولكن الخيول الصغيرة والواثقة من خطواتها التي كانت تحملنا قادرة على التغلب على كل صعوبة إن تُرك لها أن تجد طريقها بين الصخور. وفيما أنت تقترب من المدخل إلى السيق يغدو المشهد أشد تطرفاً، ولا شيء يشبهه على الأرض. صخور ضخمة من الحجر الرملي تخيم على المكان، وتكاد تتلاقى فوق رأسك، وبعد باب السيق يضيق الممر، وتزداد الصخور انحداراً باطراد. إنه أشبه بالمدخل إلى كهف اللص؛ معتم وغريب وغامض. والمدهش في الأمر أن روما حاملة

الحضارة حتى أقاصي الأرض كانت قد دمغتها بطابعها حتى قبل أن ندخل المعقل النبطي. وكنا نمضي في طريقنا فوق دوابنا على ما كان ذات يوم طريقاً ممهداً، مثل أي من الطرق التي يصادفها المرء في مدينة رومانية، لكنه اليوم خراب، وأرض تكسوها أعشاب برية وأشجار قصيرة. وإلى جانبه كان يجري جدول [واد] من آثار الشتاء ثم بات جافاً مع مقدم الربيع. وقد وصف السيق إربي ومانغليز في كتابهما «Travels in Egypt and Syria رحلات في مصر وسورية».

بيد أن هناك وادياً ضيقاً شديد الانحدار (شقاً) هو الممر الوحيد إلى البتراء من هذه الناحية، كما كان شأنه في قديم الزمن. ومن المستحيل على المرء أن يتصور أكثر من مثل هذا الطريق رهبة وعظمة؛ فالعرض لا يزيد على فسحة بالكاد تكفي لمرور فارسين جنباً إلى جنب، والحواف في جميع الأماكن شاقولية المسقط، وتتفاوت ما بين الأربعمئة والسبعمئة قدم ارتفاعاً، وكثيراً ما تكون مرتفعة إلى حد أنها تعترض السماء، ويكاد جانبا السيق أن يلتقيا معاً على امتداد مئة ياردة، والضوء شحيح لا يزيد إلا قليلاً على النور في الكهف.

«وقد ارتفعت صرخات النسور والعقبان والبوم، وكانت هذه الطيور تحلق عالياً فوق رؤوسنا في أسراب، ويبدو أنها كانت تضيق بأي إنسان يقترب من مأواها النائي، مما زاد في تفرد المشهد. وهناك تنمو أشجار الطرفاء والتين البري، والدفلى على هواها حول الطريق، مما يجعل المرور في الغالب عسيراً. وفي بعض الأماكن تتدلى النباتات على أجمل ما يكون من المرتفعات والشقوق العالية حيث ضربت جذورها. كذلك تنمو نباتات (caper) الكبر بغزارة، حيث الظلال الدائمة تغذيها بالندى...».

«لقد اختفى الجدول تحت التربة فاراً من جفاف الطقس، ولكن فيضانه في بعض الأحيان قد أفسد الدرب الممهد العتيق والممرات الزلقة التي أتى بها جريان الماء، وأدى إلى صقل الصخرة التي قطعت لتشكل الدرب بما يثبت ضرورة فتح مجرى جديد لمياهه. هناك حوض بمحاذاة سفح المنحدر على الطرف الأيسر الهدف منه جمع الماء، ومن ثم ينقل إلى مستوى مرتفع عبر قناة ليصل إلى المدينة. وعلى مسافة لا بأس بها من الشق يجتاز

مجرى المياه هذا إلى الطرف المقابل، وعند طرفه يمكن رصد المياه وهي تمر على ارتفاع عال عبر أنابيب من الطين مفروشة ومثبتة بالملاط، في أخاديد أفقية محفورة على سطح الصخر وحتى عبر الواجهات المعمارية في بعض القبور، مما يجعل من المرجح أن تكون هذه من تاريخ متأخر».

وتجد الكثير من الوقت وأنت تمضي على امتداد هذا الشق الملتوي لاستطلاع المنطقة من حولك، وبسبب صعوبة الأرض ينبغي عليك السير متمهلاً. وهناك تصادف بعض القبور بين الحين والآخر، ولكن ليس بينها ما يسترعي اهتماماً خاصاً، وقد تتوقف عند أحد هذه القبور إذا كان له رواقاً معمداً بأعمدة من الطراز الدوري منتصبة على مساحة مستوية مكشوفة بفعل التنقيبات. وإذا كنت حكيماً فسوف تستمر في اندفاعك إلى الأمام؛ لأن الوقت ثمين في البتراء، فقلة أولئك الذين يتاح لهم ثلاثة أيام أو أربعة يمضونها داخل حلقتها الساحرة.

تتسم جوانب الممر السحيقة بأنها قريبة جداً من بعضها حتى لتكاد تلمسها بيديك الممدودتين، وهي باللونين الأحمر والبنفسجي الداكن حتى يكادا أن يكونا قاتمين، وإن كان ثمة شعلة تمنح دفئاً حتى في الظل، ثم يرسل شعاع مفاجئ من ضوء الشمس خطاً متكسراً رائعاً بلون الورد على الصخرة الكئيبة، ثم يُظهر لك المدخل صورة لا تنسى لخزنة فرعون إطارها الوادي الضيق المعتم للسيق. وهذه صورة حاول كل مسافر إلى البتراء أن يعبِّر عنها بالقلم أو قلم الرصاص، ولكن يمكنني أن أشير إلى الرسوم الممتازة التي خطها الميجور بنتون فلتشر ويستعاض بها عن محاولة الوصف بالكلمات؛ فلقد كانت نظرة الرسام إلى الموقع غير تقليدية، فهي نظرة من الداخل، ليست مؤطرة بالمدخل ولا أُخذت بالعكس تماماً؛ فالسحر العظيم الذي تتسم به النظرة المؤطرة بالمدخل تكمن في اللون الرائع، فهو بلون لهيب النار أكثر منه باللون الوردي للحجر الرملي تعكسه أشعة الشمس، والتضاد بين الطبيعة في إحدى أشد أحوالها انعتاقاً وصلابة، والفن في أحد تجلياته الأكثر رفعة. وإني لا أملك أن أرى خزنة فرعون عملاً فنياً فني من الفترة الرومانية المتأخرة؛ فقد غدت سورية هلينستية طويلاً قبل مجيء الرومان، وكانت قطعاً تحت تأثير

المهندسين الأنباط البارعين الذين حفروا هذا المعبد في الصخر.

وإذا مضيت لتلقي نظرة عامة للبتراء صادفت من فورك شارعاً من القبور، يتسع حتى تبلغ مسرحاً من الصخر، ومنه يتجلى أمام عينيك حوض وادي موسى، حيث قامت عدة مدن متتالية، ولكنها اليوم كتلة من بناء مغطى بالأشجار القصيرة والدفلى المتشابكة. وعلى الجوانب جميعها تنتصب الصخور الحمراء النحيلة تتخللها بيوت وقبور من الصخر، وهناك واجهة تقلد الطراز الكلاسيكي أو تذكر المرء ببلاد الآشوريين أو مصر، ونصادف أراضي شاسعة تمتد بموازاة سماء زرقاء. وذلك كله جديد غريب وقديم إلى حد يفوق الوصف، وقد يبدو ذلك ضرباً من المفارقة، ولكنه صحيح تماماً.

تثير معالم بتراء الرئيسة شيئاً فشيئاً إعجاب القادم الذي لا عهد له بها من قبل، ويمتد الشارع الرئيس المبلط والمسقوف في المدينة الرومانية على طول ضفة النهر مسافة كبيرة، حسب العادة المألوفة. وهناك بقايا المعبد وقسم من البوابة الثلاثية [بوابة النصر]، وهذه هي الآثار الوحيدة التي ما زالت قائمة، وكلها تنتمي إلى فترة متأخرة بعد ضم البتراء إلى الرومان.

وهناك الصخرة الضخمة التي يطلق عليها العرب اسم «الحبيس»؛ وهو لسان من الصخر بارز، وأحد الأماكن المقدسة إذ تقدم القرابين على إحدى النجاد البارزة. ويتمتع «جب عطوف» المهيب بأحد أكمل المذابح القديمة على قمته، ويضم هذان المرتفعان المهيبان بقايا حصن كان يحمي البتراء من الإغارة عليها، ويوفر مركزاً للمراقبة للمدافعين عن المدينة التي تكاد لا تقهر.

وثمة سوران رئيسان منحوتان في الصخر، ويحتويان على أضرحة على قدر من الأهمية، وهما السور الشمالي الشرقي حيث نجد بعض أهم الأضرحة التي تعود إلى المرحلة الكلاسيكية؛ مثل ضريح الجرة والضريح الكورنثي وضريح الحاكم، وهذه أشهر الأضرحة، ويجد المرء في السور الجنوبي الشرقي بعض أقدم الأضرحة النبطية الأكثر أهمية. ويمكن بلوغ الأماكن المرتفعة [المعليات] بالارتقاء من الوديان، إذ يصادف المرء بين الحين والآخر درجات محفورة في الصخر ليصعد عليها المتعبدون، وهناك درجات أخرى من هذا النوع

تؤدي إلى الدير، حيث يطل المرء على أروع المشاهد. وقد يكون المسير شاقاً جداً؛ لكن الهواء هناك عليل منعش والمناظر الطبيعية بالغة الجمال، وفي ذلك مكافأة للجهد المبذول لبلوغ هذه الأماكن.

وعليك لارتقاء جب عطوف– أو كما يسمى أحياناً تل المسلة– أن تتبع الممر الضيق وأنت تغادر السيق، وتصعد الدرب المنحوت في الصخر حيث تصادفك أدراج بين الحين والآخر. وهذه هي الدرجات التي كان الأنباط يصعدونها لعبادة «ذي الشرى»، فهل يا ترى كان أولئك القوم يصعدون ذلك العلو كل يوم، أم أنهم يعوضون عن هذا الجهد بحرق البخور والمر على أسطحة بيوتهم؛ إذ إنهم كانوا يقتصرون على الصعود إلى قمة جب عطوف العالية في المناسبات الكبرى، فقد كان عندهم معابدهم الصغيرة الخاصة. وهناك على القمة مسلتان ومذابح لتقديم القرابين، وأعلى من ذلك يقوم الحصن، ثم المذبح العظيم الذي أجاد وصفه سير الكسندر كينيدي في محاضرة ألقاها في يناير/ كانون الثاني 1924 أمام الجمعية الجغرافية الملكية:

«هناك على الجانب الآخر– أي الطرف الشمالي من الرف الصخري، بعد برج الحصن المهدم عند أعلى وأضيق بقعة من التلة– موقع «المكان المقدس» المسمى جب عطوف، وهو أكبر رواق مسقوف في البتراء وأكمله وأقلها ميلاً وتحدراً، وينتصب إلى جانب حوض القرابين المذبح الرئيس، وربما يكون هو نفسه مذبحاً على أحد جوانب مصطبة عظيمة مستوية، مثل قاعة طعام هائلة أبعادها خمسون قدماً طولاً واثنان وعشرون عرضاً. وواضح أنه إذا كان ثمة قرابين من الحيوان أو البخور؛ فلابد أن تكون الحيوانات صغيرة حتى يمكن حملها ميتة كانت أم حية، وإلا تعذر ذلك. ولقد كُتب الكثير عن الوظائف المحتملة للمذبح والحوض والمقاعد؛ ولكني أخشى أن يكون كثير مما كتب قد غلب عليه التخمين. ومما ينفرد به مكان العبادة البارز هذا أنه لا يضم أي مكان للمصلين الآخرين، على الرغم من المساحة الواسعة المخصصة للمحتفلين، بسبب ضيق التل وشدة انحدار جوانبه».

صورة [مقابل ص 28 في النص الانكليزي]
البوابة الثلاثية، البتراء

ومن المحتمل إذاً- حسب ظني- أن يؤدي الكهنة وحدهم طقوس تقديم القرابين على هذا القدر من العلو، ويقنع المتعبدون بمتابعتهم من مستوى أدنى. وكان أعظم الآلهة عند الأنباط ذو الشرى رب منطقة صبرة الجبلية، أو سعير التي يتحدث عنها الكتاب المقدس. والإله ذو الشرى على شاكلة بعل إذ يتصل أمره بالينابيع، ويبدو أن معبده الطبيعي في حرش أو دغلة، ويرويه جدول ماء يخصب واحة من واحات الصحراء. ويقال إن الأنباط كانوا يقدسون الشمس، وصار ذو الشرى شبيهاً بديونيسيوس، وبذلك لا يمكننا إلا أن نحدس بطبيعة هذا الدين. وجدير بالذكر أنه كان يرمز إلى ذي الشرى بحجر أسود مستطيل الشكل، وربما رمز هذا إلى عرشه. فمن تراهم كانوا أول من تعبد هنا؟ إن المذابح والأجران والأدوات الأخرى لتقديم القرابين سامية الأصل، وربما استخدمها عيسو، وربما نحتت من الصخر في زمن متأخر جداً.

كان للأنباط آلهتهم، وإن كان لإلههم المقدمة، ولديهم ترتيب هرمي فيه إلهتان رئيستان؛ هما اللات وهي أم الآلهة وكعبو، العذراء أم ذي الشرى. وهاتان ربما كانتا من

الآلهة الشمسية.

ويخبرنا استرابو أن أولئك المؤمنين كانوا حريصين أشد الحرص على الالتزام بشكليات الطقوس اليومية، ونحن نعلم أنهم كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة، ولهم نظريات طريفة في الروح الخارجية واعتقاد بالأشباح. وكان ملوكهم يلجؤون إلى المنجمين، كما كانت نساؤهم يصنعن شراب الحب والسموم.

ويقال إن القرابين التي كان الأنباط يقدمونها هي ضرب من المشاركة مع الإله، وليست من قبيل التقرب منه أو التزلف له. وكانت عبادة بعل شائعة وتختلف باختلاف المكان. ولم يكن القوم يعتقدون بقدرة عظيمة له؛ وإنما كانت قدرته تقتصر على معبده وما يجاوره، وهو هناك الأعظم. فقد كان بعل إلهاً قبلياً، ورأس عائلته الإنسانية، ويصله القوم بالطبيعة وليس خارجاً عنها، فكان بطبيعة الحال إله الخصوبة والزراعة. أما أن تكون هناك صلة بين ذو الشرى– إله ينابيع المياه العذبة– وباخوس وأن يتخذ صفاته، وتغدو أعياد الأنباط طقوساً جنسية؛ فذلك عندي دليل على تطور في الحضارة!

وتحتوي النقوش العربية الجنوبية على العديد من الإشارات إلى آلهة شمسية؛ فإذا كانت تعبد هناك فأي مكان رائع كان تل المسلة لالتقاط أول أشعة الشمس وآخرها. ولعل إله القمر كان يسير هناك حين يعم ضوء القمر، ويغمر التل بضوئه الأبيض، فيطل على البتراء النائمة تحت النجوم السورية، والخلية التي تضج بنشاط النحل تغدو ساكنة كأنما باتت الآن تحت تأثير الإشعاع المهدئ الذي يسري في الكون.

الفصل الثالث
المدينــة النبطيــة

ما من أثر بقي من المدينة النبطية ليخبرنا كيف عاش الناس هناك بعد ما هجروا الكهوف وسكنوا تلك البيوت العظيمة من الصخر التي يتحدث عنها استرابو، ولعلها بنيت في الأرجح من الحجر الرملي الغالب في المنطقة، ولكنها ربما كانت مغطاة ببياض المصيص، وملونة على النهج الذي سار عليه المصريون. وكان لهم كما رأينا أماكن صغيرة على سطوح بيوتهم يؤدون فيها طقوس عبادتهم للشمس أو ذي الشرى فيشعلون البخور والمر أمام رمزه: الحجر المستطيل ذي الزوايا القائمة الذي يمثل عرشه.

كان الأنباط، قبل كل شيء تجاراً، مع أنه لا يبدو أنهم استقروا في البتراء قبل زمن طويل؛ كما أخبرني البروفسور موزيل، الذي لا مناص لي من الاعتماد على أقواله أكثر من مرة، وقد كانت لهم السيطرة على تجارة العالم في الألفية الأولى قبل المسيح، ويسند هذا القول دليل صادفه في كل واحة على طريق التجارة إلى بلاد العرب. وكان مركز تجارة العالم في ذلك الحين في جنوب غرب بلاد العرب، وكانت القوافل الطويلة تحمل الذهب والفضة والأحجار الكريمة، فضلاً عن التوابل والبلسم وغرائب الحيوان مثل القردة والطاوس، مع الأصبغة والأقمشة ولوازم الحياة مثل الذرة والزيت، ولا تنقطع قوافلهم عن الحركة ذهاباً وإياباً. وكان للأنباط على الرغم من نزوعهم إلى المسالمة جيش متأهب، كما كانوا يضعون مفرزة للحراسة حماية لبضائعهم وبضائع من يدفعون ثمن الحماية لجميع المناطق النبطية. والمؤكد أنهم- بعد أن اتخذوا مقرهم في البتراء، ذلك الموقع المناسب الذي يلتقي فيه طريقان- قد وفروا للقوافل ملجأ، وكانت لديهم مستودعات واسعة لاستقبال البضائع.

كان مفتاح النجاح في التجارة في تلك الأيام يكمن في السيطرة على طرق التجارة؛ فتروي أخبار الآشوريين أنهم استولوا على الطرف الشمالي من الطريق الشمالي الغربي بين بلاد الفينيقيين ومصر، فازدهرت أحوالهم، وكانت قواتهم تردع محاولات سرقة القوافل التي تقع تحت حمايتهم. وفي هذه التواريخ نجد أن قبيلة الأنباط أقامت في القرن السابع

ق.م. مضاربها إلى الشرق من البتراء بجوار أقاربهم الأدوميين. وكان يشق هذه المنطقة طريقان متقاطعان؛ أحدهما يمتد من الخليج العربي حتى بلاد الفينيقيين، والآخر يوحِّد بين مصر وبابل. وبعد أن انتصر آشور بنيبال على قبيلة قيدار غدا هؤلاء الأنباط أقوى قوم في شمال بلاد العرب.

وكان من أمرهم أن اجتاحوا بلاد الأدوميين الذين كانت قوتهم قد دمرت في القرن السادس ق.م، وصاروا سادة طرق التجارة، وهي مطمع كل طامع، فضلاً عن حيازتهم المراعي اللازمة لقطعان ماشيتهم. وهكذا غدت البتراء مركز تجارة عظيماً، وانتهى أمرها في القرن الأخير قبل المسيح والأول في تاريخنا باحتكار تجارة العالم كله تقريباً. وقد كان للأنباط الغلبة في شبه جزيرة سيناء، وامتلكوا دمشق، واستولوا على واحة أدومو، وهي الجوف الحديثة، حيث يلتقي طريقان، أحدهما يؤدي إلى بابل والآخر إلى الخليج العربي. وقد أسس هؤلاء الأنباط مستوطنات ذات شأن في دولة المينويين ثم وصلت بالبتراء بواسطة الطرق البرية التي كانت لهم السيطرة عليها.

فأي مشهد حافل بالحركة والنشاط كان حال البتراء حين تحل فيها القوافل! فكان الكتبة ورجال الجمارك يسرعون للقاء الشريط الطويل من الجمال المحملة بالبضائع خارج المدينة، وذلك لحساب ما تحمله من البضائع. ولابد أن ذلك المشهد كان يبدو للتجار وقادة القوافل أشبه بالوصول إلى مدينة عامرة مبتهجة، بعد طول مسار خاضوه في الصحراء الجرداء وهم ينتقلون من واحة إلى أخرى. فإذا أنزلوا الأحمال عن ظهور الجمال وأزالوا عنهم آثار التعب بنبيذ التمر؛ فلربما وجدتهم ينتقلون في الشوارع الحافلة بحشود من الناس

صورة [مقابل ص 34 في النص الانكليزي]
القبور المدرجة، البتراء

من مختلف الأعراق، من البدو القادمين من داخل بلاد العرب والمصريين واليهود، والسوريين والنوبيين والمواطنين الأنباط والحراس.

ولم يكن الأمر يقتصر على مسألة توفير مستودعات لبضائع في طريقها إلى مقصد آخر؛ فقد كان الأنباط يشترون المواد ذات اللون الأرجواني من صور، وإن كانوا هم أنفسهم يصدرون بعض الأصبغة، كذلك كانوا يشترون النحاس والحديد، وميعة الصمغ، والزعفران والقرفة البيضاء، فضلاً عن حبهم للصور والتماثيل. ولا ريب أن البيع والشراء كانا يجريان في البتراء على قدم وساق عند وصول قافلة حسنة التجهيز، ولابد أن وادي موسى كان يضج يومئذ بالحياة؛ فكم هي اليوم مختلفة عما كانت عليه إذ أصبحت مقفرة موحشة خاوية على عروشها، وأضرحتها منهوبة وخرائبها قد غطتها الحشائش والشجيرات! وكم تختلف تلك الشوارع المزدحمة بالأحياء عن القبور الخالية، حيث لا يسمع صوت لوقع الأقدام على الرمال الحمراء المتراكمة، وكأنما الماضي قد كُنس بصلف وقسوة حتى لم يعد الحاضر قادراً على إيقاظ صدى.

ومع أن الأنباط كانوا يعيشون في بيوت في الوادي إلا أنه لا ريب أنهم كانوا يسكنون الكثير من الكهوف التي كانت تسمى قبوراً؛ ويشير سير الكسندر كينيدي إلى أن هذا هو الواقع بالفعل، وهو يذكر غرفة واسعة محفورة في الصخر غير بعيدة عن المسرح، ولابد أنها كانت تستخدم مستودعاً لخزن البضائع. وهي مقسمة إلى ثلاث عشرة فجوة في الجدار أو أربع عشرة، حجم كل منها يزيد على ست أقدام طولاً، وثلاث أقدام عرضاً، وثماني أقدام ارتفاعاً؛ ومن الواضح أن مثل هذه الغرفة التي نحتت في الصخر ولها مدخل وحيد، توفر قدراً من السلامة يطيب لقوم ما زالوا – إن قليلاً وإن كثيراً – من سكان الكهوف.

ولئن كان الأنباط يتمتعون بمدينة هي من أهم المدن على طريق القوافل، وتستخدم في

تخزين البضائع؛ فقد بنوا فوق ذلك جيشاً عاملاً له القدرة على الزج بعشرة آلاف رجل أو أكثر في الميدان. وكان الحكم عند هؤلاء الأنباط ملكياً، غير أنه كان بعيداً كل البعد عن طراز الحكم الاستبدادي؛ فكانت قوانينهم تقوم على العدل، ونمط عيشهم ساذج. أما حال بيوتهم فليس لنا إلا أن نقدرها تخميناً؛ لأن كل ما بقي منها اليوم عدد من القبور أو المعابد المحفورة، إلى جانب الغرف الصخرية التي لا تتسم بأي مظاهر عمرانية.

والقبور النبطية هي أدعى المعالم للاهتمام في البتراء، وقد وصفها بكثير من التفصيل برونوف ودوماجفسكي في كتابهما الضخم «Die Provincia Arabia» والدكتور جوستاف دالمان وبيركهاردت ودوتي والدكتور موزيل في كتابه البتراء العربية «Arabia Petrae» وجوسان وسافينياك في كتابهما «Mission Archeologic en Arabie» وسواهم. ولنا بالاستعارة من هذه الأعمال المرجعية الثقة أن نجهد لبلوغ فكرة واضحة عن عدة أساليب تميز مختلف الفترات التي حفرت فيها القبور والغرف بأناة ودأب في الصخر.

يقسم برونوف ودوماجفسكي هذه القبور إلى ستة أنماط: البرجية، والمتدرجة، والهيجرية المبكرة، والهيجرية Hegger، والأجنبية وأسلوب المعبد. أما دلمان فيقسمها إلى ثلاثة أنماط: النبطية والقبور المدرجة البسيطة والجدارية، ويرجع عهدها إلى القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، ويتسم الأسلوب الهلينيستي باستخدام موتيفات جديدة والتيجان النبطية المبتكرة والطراز الروماني المقوصر المثلث في الواجهة، ويعود تاريخها إلى العام 106 ميلادية. كذلك يقسم سير الكسندر كينيدي القبور إلى ثلاثة أنماط، إنما يجري قبل ذلك تمييزاً مثيراً للاهتمام بين تلك التي تتصل بشكل معين من الطقوس الدينية، وتلك التي لا تتصل بمثل هذه الطقوس. والأنماط هذه: هي الآشورية والمصرية والكلاسيكية (الهيلينية – الرومانية).

ويستمد أقدم هذه القبور شكلها من الآشوري، وهي ذات واجهة بسيطة وجملونات تعلو أخدوداً مستقيماً. وليس هناك من تزيينات تعلو الباب البسيط، وعدد الجملونات على العموم خمسة، وقلة قليلة جداً منها من عهد متأخر ذات حلية معمارية فوق الباب أو على جانبيه. وعندما يتطور الطراز أو يصبح مهندسو العمارة خاضعين لتأثير جديد نجد

أحياناً خطاً مزدوجاً، أو حتى قوصرة من الطراز الكلاسيكي تعلو الباب.

والطراز الثاني مصري ومعلمه المميز أن الإفريز ثقيل، والحلية ربع الدائرية تتضاعف أحياناً، والجملونات الضخمة القليلة العدد التي تعلو الحلية ربع الدائرية. وإلى هذا الطراز الكلاسيكي الصارم الضخم أخذت التأثيرات تتسلل شيئاً فشيئاً، تارة في الأعمدة، وطوراً في عمل زخرفي. ونجد في بعض القبور المقوسة ما يوحي بتأثير سوري.

كان المصريون طبعاً بناة قبور عظام؛ حسبنا منهم قبور الأهرامات وحدها التي تشكل المعلم لملوكهم من السلالات العشر الأولى. ومنها تلك القبور البسيطة المقدودة من الصخر في وادي الملوك، إلا أنهم بتزيينها في الداخل بالصور والرسوم قد جعلت العصر كله ينبض بالحياة أمام أعيننا. أما مبانيهم المنزلية– التي لم يبق منها شواهد– فيمكن تصورها مما تضمنته تلك الرسوم، فضلاً عن أزيائهم وعاداتهم. ويا له من أمر مؤسف أن الأنباط لم يرسموا داخل القبور؛ فمهما تكن تلك الرسوم فإنها يمكن أن تجعلنا نراهم على ما هم عليه.

وكان العرب قد أخذوا عن بناة الأهرامات المسلة وشكل القبر، واتبعوا نوعاً آخر كثيراً ما يشاهد في مصر؛ وهو بناء مربع مزين بهرم مبتور. ومن اليسير على المرء أن يدرك أن مصر كانت المهيمنة خلال السنوات الأربعمئة أو أكثر؛ فلابد لطراز العمارة المصرية من أن يأخذ به قوم لهم وشائج وثيقة تربطهم به بتأثير التجارة. فلقد كان لدى الرجال الذين حملوا التوابل والبلسم من بلاد العرب السعيدة (اليمن) والبتيومين (القار) من البحر الميت إلى بلاد الفراعنة الكثير من الفرص ليدرسوا عادات المصريين وتقاليدهم، والبيوت التي كانوا يعيشون فيها، والقبور التي شيدوها لموتاهم. ولعلهم عادوا ببعض فنون العمارة المصرية حين رجعوا إلى موطنهم ليعدلوا من طراز العمارة التي تلقوها من الآشوريين؛ لأن من شيم الأنباط التكيف مع الأفكار الجديدة. أما أن يكونوا أخذوا عن المصريين مثل هذه الأفكار أو لم يأخذوا؛ فالمؤكد تقريباً أن هذه العمارة ذاتها كانت بأيدي قاطعي الحجارة، فالأنباط لم يشتهروا بأعمال الحجارة كما يتجلى في آثار المعابد والأبنية في حوران فحسب؛ بل كانوا مبتكرين في نهجهم بالبدء بها من الأعلى ثم التدرج نحو الأسفل.

أما قبور اليهود فقد ذكرها عدة كتاب؛ ومنهم السيد فيرغسون في كتابه «تاريخ العمارة في كل البلدان» («History of Architecture in All Countries»)، فقال إنها تشبه القبور النبطية الأقدم، وإن كانت تنتمي إلى فترة متأخرة عن العديد من تلك القبور. وما يسمى «قبر الملوك» يعود لملكة تدعى هيلينة الأدبابينية، بنته ليضم رفاتها ورفات ابنها إيزاتيس الذي خلف أربعة وعشرين ولداً وأربعاً وعشرين بنتاً، وهذا ما يفسر الحجم الكبير للضريح. ويمكن بلوغ المكان باستخدام سلم محفور في الصخر يفضي إلى سرداب الموتى. وهناك واجهة لهذا السرداب يصفها المؤلف فيرغسون بأنها من الطراز «الدوري المحرف» في العمارة إلا أن الوضوح سمته العامة.

يعرض يوسيفوس رواية طريفة عن اعتناق هذه الملكة للديانة اليهودية ودور إيزاتيس في إعادة الملك البارثي إلى مملكته، ومكافأته لإيزاتيس على ذلك بوضع تاجه مستقيماً على رأسه، والنوم في سرير من الذهب. ثم تورط فيما بعد في معركة مع الأعراب، وهذا ما جعله يتصل بالبتراء.

أما القبر الآخر الذي نعرض صورة له فإنه يشبه القبور في البتراء، وإن كان مزيجاً من الزخارف التي لم يسبق رؤيتها هنا من قبل؛ فالأعمدة أيونية، والساكف أعلى العمود والإفريز من الطراز الدوري، والكورنيش في أعلى الجدار، وقرب السقف طرازه مصري، وهذا متوج ببرج مستدق، ويقال إنه منذ الفترة الهيرودية، وليس له صلة قطعاً بالاسم القديم، أي قبر أبشالوم. وإذا ما نظر المرء إلى وادي قيدرون من الطريق المؤدية إلى القدس رأى أن لهذا الضريح مشهداً جميلاً، وهو مثير للاهتمام بسبب الحفريات التي نفذت هناك مؤخراً.

تتشابه القبور الصخرية في البتراء كثيراً ولاسيما للمراقب العادي. ولابد أن هذه القبور تعرضت للنهب تماماً في وقت مبكر للغاية؛ إذ لم يبق ثمة ما يفيد بمعرفة الوظائف التي كانت قد بنيت لتؤديها، سوى مكان يحتوي على محراب لذي الشرى، أو شاهد على المآدب التي تولم

صورة [مقابل ص 38 في النص الانكليزي]
المدخل المحفور في الصخر لضريح الملوك، القدس

في الجنازات، أو كوة كان يودع فيها بقايا رفات موتى من الأنباط. وكان لبعضها أحواض لتجميع المياه وفناء للحدائق، وقد عثر في أحد هذه الأضرحة– وأظن أنه ضريح واحد فقط– على عدة هياكل عظمية. والأرجح أن فكرة البحث عن كنز في هذه القبور حمل البدو على الإغارة عليها أملاً بالعثور على كنوز ثمينة. ولابد أن البتراء كانت تعني عند البدو الأقدم عهداً مدينة إلدورادو الخيالية الغنية بالكنوز، وما زال بعضهم على هذا الاعتقاد إلى اليوم.

ومن التزيينات التي تلفت النظر بسرعة الجرة التي تتكرر صورتها، والتي يقول البدو إنها تخفي الكنز. وهناك جرار كبيرة أكبرها يتوج أعلى الدير، وهذه الجرار موضوعة في أعلى المثلث الذي يعلو مدخل البناء، أو عند أحد طرفي الكورنيش البارز. وهناك جرار محززة تزين المعالم الأكبر، ولها شريط قصير منحوت في الأعلى والأسفل، بينما يزين الشفة أُخدود يتضاعف أحياناً. أما القبور الأقل أهمية فتزين بأكواز صغيرة ذات شكل مستطيل وعنق طويل. فهل هذه الجرار رموز؟ يبدو أن ثمة رموزاً في تصوير الأقنعة المحفورة في النتوءات في بعض الواجهات، وفي الحيتين المجدولتين إلى بعضهما، ورأسهما مخفيان

خلف رأس إنسان. والأفعى رمز ورد من مصر كما ورد من اليونان وروما في ما بعد، وللعرب اعتقاد بالأرواح الخيرة التي «تسكن أفعى البيت»، ولعلها كانت تعويذة تطرد الروح الشريرة. كذلك يظهر العُقاب في رسوم المقابر، وغني عن القول أن هذا العُقاب يرمز إلى جوبتير وبعل، كما كان رمزاً لمملكة البتراء. وكان العرب يُتهمون بحب العُقاب، إلا أن هذا دليل على أن العُقاب كان رمزياً قومياً؛ إذ كان اسمه منقوشاً على قطع النقود لديهم.

ولا بد أن أقدم آثارهم ترجع إلى تواريخ أقدم من تلك التي قدمها الدكتور دالمان؛ فنحن لا ندري متى كان احتلال الأنباط للبتراء، ولكن إذا كانوا قد أتوا بعد سبي اليهود عام 596 ق.م– حين رحل الأدوميون– فلا بد أنهم بدؤوا بحفر الصخر بعيد ذلك بوقت قريب. فقد ثبت بطراز القبور الآشورية والمصرية التي اقتبسوها أو عدلوا من رسومها لتتلاءم ونظراتهم أنها تعود إلى تاريخ مبكر. ثم علينا أن نتذكر أن التأثير اليوناني الكبير إنما صار ملموساً بعد غزو الإسكندر لسورية في عام 332 ق.م.، ولكنه بلغ البتراء قبل ذلك عن طريق تدمر ومراكز تجارة أخرى سواها.

وكان الإغريق أول من أوحى للأنباط بالإتيان بشيء أكثر تطوراً مما بلغوا، وكانوا عملياً قد أخذوا الفن عن اليونان. والملفت في أمر هؤلاء القوم الأفذاذ أنهم– على الرغم من تقبلهم لنقل الأعمال الفنية التي أتت بها أمم تتقدمهم في الحضارة ورغبتهم في ذلك– كانوا يتمتعون بقدر من الأصالة في الدراسة تتجلى في اختيارهم الأنماط في العمارة والزخرفة. وكانوا مبتكرين في التيجان، ويكاد لا يضاهيهم في ذلك أحد، ثم إن العمارة لديهم أفصحت عن استقلال في الفكر من دون التضحية بمظهر الوحدة التي كان يكفل تحقيقها مزيد من الالتزام الصارم بالطراز.

لقد اشتهر المهندسون الأنباط بمعالجتهم الكتل وتصوراتهم الواسعة للشكل، كما أنهم برزوا بناة بالحجر، لمعالجتهم البازلت الأسود القاسي الصلب في حوران، ولمعالجتهم بنجاح حجر البتراء الرملي والطبقات الأنعم للحجارة الكلسية مما يتوافر هنا. وفي كلتا الحالتين كانوا يتمتعون بميزة كون المواد في متناولهم.

ولعل الغموض الذي يحيط بماضي البتراء – مهما كان ذلك مثبطاً للعزائم من وجهة النظر الأثرية – يرجع إلى سحر الموقع؛ فالتجوال في درب المدافن من جانب خزنة فرعون إلى المسرح تجربة جديرة بالاهتمام حقاً. فالأبنية الضخمة والمعتمة جداً ذات اللون الأحمر والدروب المفتوحة الواسعة لها مظهر خارق خيالي ليس من الأرض في شيء، ويسود المكان صمت مطبق لا تسمع فيه وطأ قدم. وكنت في عصر ذات يوم هناك أنتظر ووجدت الفكر يزين لي أن أراوح أهل البتراء الأموات لا بد أنها تسكن موطن السكون هذا، حين تناهى إلى سمعي وقع خطوات من داخل أحد القبور الكبيرة؛ فتساءلت في خلدي عن مصدرها؟ ثم ازداد وقع تلك الخطوات قوة، وظهر فجأة في عرض فتحة ليس لها باب ثور أسود فحل فتي شديد الجمال! حدق في ذلك المخلوق الذي راح يتطلع إلى العالم كله، وكأنه الروح الحارس للعالم الذي فقد عباده، بنظرة تنم عن الازدراء، ثم التفت واستدار ومضى ببطء مبتعداً نحو السيق.

أما المسرح الذي يعد رومانياً فهو مسرح واسع يتسع لزهاء ثلاثة آلاف متفرج. وموضعه بين المدافن؛ والصفوف الأدنى التي تقع فوق المدرج قد اختل رصفها مع إتمام الحفريات هناك. وهذا هو على الأقل الرأي الشائع، وإن كان ثمة كتاب يذهبون إلى أن الفتحات– الأشبه بالمقصورات في دور الأوبرا– إنما هي في الواقع نوافذ لغرف مفتوحة على المسرح. ويبدو غريباً أن يكون موقع المسرح بهذه الدرجة من القرب من المدافن، ولكن لعلها تعود إلى تاريخ أقدم. وكنت قد قرأت في مكان ما– لست أذكر أين الآن– أن هذا المسرح قد نقب عنه يوم كان التأثير اليوناني مهيمناً، لكن يقال عادة إنه من بناء الرومان بعد استيلائهم على البتراء في القرن الأول الميلادي.

ومن المسرح لك أن تتمتع بمشاهد رائعة من اليمين إلى اليسار، ومن المفيد أن تستريح نسبياً على المقاعد المحفورة في الصخر، لكي تحيط بمشهد بعض المدافن ومنظر المدينة عامة. وفي العصر تسقط أشعة الشمس هنا على الحجارة الحمراء الملساء، حيث تتجول السحالي على هواها زاحفة هنا وهناك، وفي الأراضي اليباب المترامية، وقمم الصخور السامقة المشرئبة نحو سماء نحاسية، بينما الدفلى تملأ مجرى الجدول وأزهار البرية ترصع

الحشائش القليلة عند قدميك. ويحسن المرء صنعاً في مثل هذه الأوقات إن خلد إلى الراحة واستوعب هذا كله في لا شعوره؛ لأن هذه المناظر لا تصادف المرء كثيراً في هذه الحال من الزحام والاعتيادية التي نطلق عليها اسم الحياة.

الفصل الرابع
خزنـة فرعـون

على الرغم من أنه لا يمكن إنكار أن الأبنية النبطية الأقدم هي الأكثر مدعاة للانتباه والاهتمام بين مدافن البتراء؛ إلا أن ما يسمى خزنة فرعون هي بالتأكيد الأجمل. وخزنة فرعون هذه تدين بالكثير لموقعها، سواء كان النظر إليها من وادي السيق المعتم أم من الداخل، وهي محاطة بالصخور المرتفعة التي تخيم عليها من فوق. فاللون الأحمر مثل لهيب النار للحجر الرملي في الواجهة يمثل تضاداً مع لون السطح القائم على أعمدة الذي بلون القشدة، وشجيرات الدغل الخضراء الكثيفة التي تجعل المنظر أشد تأثيراً في النفس حين تتفتح أزهار الدفلى الوردية اللون.

ويذهب بعض الكتاب إلى أن هذا المعلَم الجليل من عمل الرومان الذين أقاموه بعد العام 105، بل إن بعضهم يقول إنه يعود إلى عهد متأخر مثل زيارة الإمبراطور هادريان في العام 131 ميلادية؛ ولكن الدكتور غوستاف دالمان الذي كتب الكثير حول هذا الموضوع عينه يرى أنه يسبق بلا ريب الغزو الروماني، فيرى أنه مستلهم من الإغريق، ولعله في الأرجح كان ضريحاً أو نصباً لتكريم أحد ملوك الأنباط المتأخرين، وأقيم في زمن ليس بعيداً عن قيام الرومان «بإلغاء مظاهر الفخامة الملكية في هذا المركز الهيليني المتقدم بين صحراءين». وعنده أن العمارة والزينة لا تحتويان ما يمكن أن يكون مستمداً من القرن الأول الميلادي، والأبهة المعهودة في الفترة الرومانية مفقودة والطراز هيلينستي وليس رومانياً.

فلنلقِ نظرة تفصيلية أكبر على الخزنة:

تتألف الخزنة من عدة غرف كبيرة محفورة في الصخر، وواجهتها مدخل مسقوف كما في العمارة اليونانية، ونصل إليها عبر درج. ويبدو أن البناء كان يضم أصلاً أربعة أعمدة وحسب، تسند الواجهة الأمامية والواجهة المثلثة، وقد أُضيف عمودان اثنان، ومدت الواجهة المثلثة للإيحاء باتساع المساحة. وفوق الطابق الأسفل صف من الأعمدة التي تتراجع في المركز لإفساح المجال لعمودين صغيرين يزينهما في الوسط تمثال ايزيس؛ وعلى

كلا الجانبين تماثيل منحوتة لها قاعدة تمثل إله النصر المجنح، ويعلوها واجهة مثلثة تصل التزيينات الخارجية بالضريح الأساسي، ويذهب معظم الثقات إلى أن الجمع ما بين ضريح ومقام في طابق علوي أمر تختص به البتراء، ولكني لاحظت أن الدوق دولوني قال إن ثمة تشابهاً بينه وبين النصب الكوراجي الذي أقامه ليسيكراتيس في أثينا، فكتب قائلاً: «لا بد أن يكون أحدهما تقليداً للآخر». وهذا النموذج الجميل للفن الإغريقي إنما تحقق في مواقيت تبدأ منذ العام 335 ق.م، وهو الوقت عينه الذي كان فيه التأثير اليوناني قد بلغ ذروة قوته؛ أي في أعقاب فتوحات الاسكندر. وإذن فمهما يكن من أمر التصميم الذي تكرر مرتين في البتراء ذاتها، وسواء استنسخ من اليونان ذاتها أم كان نتاج عبقرية معمارية نبطية؛ فهو لم يأت من روما قطعاً.

وتزين الأعمدة في الطابق السفلي تيجان كورنثية وصفان من أوراق الكنكر أو شوك الجمل، والحلي الملفوفة والأزهار بين الخطوط اللولبية؛ وهذه جميعها أعمال مبتكرة التصميم تختص بها البتراء. وليس هناك حلية مقعرة بين جذع العمود والتاج، ومن ثم ليس ثمة اختلاف بين المقطع الأعلى في الجذع والتاج. وقد قصد أن يقفل المدخل ببابين، وبه ثقوب للمفصلات، وثقوب أخرى ذات شكل مغاير لإسناد العضادات وثغرات للمفصلات العليا. وهناك تجويف غريب ذو قناة تؤدي إلى الطرف الأيمن من أعلى درجة، ويرجح أنه كان يستخدم في صب سوائل القرابين على الأموات.

ولباب الدخول واجهة (أو خارجه) تتألف من ثلاثة أشرطة بأعلى الكورنيش مختلفة العرض، وتنتهي الأولى بسيما (حلية موجية إغريقية) معكوسة، والثالثة كذلك، بالإضافة إلى خوصة (شريط زخرفي بين قناتين في جذع العمود أو أي حليات أخرى). وللكورنيش أو القوصرة (الزخرفة البارزة أعلى الجدار، أسفل السقف) بيضة ولسان وزخرفات بحلية

صورة [مقابل ص46 في النص الانكليزي]
خزنة فرعون، البتراء

السبحة، وتلافيف الأسنان وحليها في الكورنيش مطلية بالأحمر والأبيض، وهناك تفصيل غريب جداً يتمثل بسعف بارزة تضفي على القسم الأعلى بروزاً.

وليس لدى العضادات (شبه العمود) في الطابق الأعلى قاعدة أو تزويق، وأبدان الأعمدة تتضاءل قليلاً، والتيجان مزينة بأشكال نبات الكنكر عند الجانبين، أما بقية التزيينات فتشبه تلك التي في الطابق السفلي. وهناك إفريز عند المدخل جميل الزينة، مع تصميم دقيق تبرز فيه أعشاب الذراح (أو الخويضر)، بين نمرين مجنحين، وتنتهي بحلي ملتفة في تاج العمود، وتظهر رؤوس الميدوزا الأسطورية، والعقاب الذي رأينا أنه رمز مدينة البتراء كما هو رمز الملك.

إن التماثيل التي تظهر على الواجهة إلى جانب إيزيس المقدسة التي تشبه بما تحمله من حزم الذرة الشكل المختار لتمثيل البتراء على النقود؛ هي الإله ديوسكوري والأمازونيات والانتصارات، وجميعها ترمز إلى نصر معين، مما يجعلنا نرجح أنه قصد بها تمجيد ملك ما.

ولم يعثر هنا على أي أثر لقبر؛ ومع ذلك فمخطط الأرض هو لقبر، ولعله لم يستخدم قط- وفقاً لما يذهب إليه الدكتور دالمان- بسبب اضطراب سياسي معين. وفي الداخل نجد قاعة واسعة بسيطة ذات مداخل في الجدران الجانبية تؤدي إلى حجرات جانبية. وجدير بالذكر أن لهذه المداخل أعمدة كورنثية مربعة، يعلوها إفريز وكورنيش يستند إلى مصطبتين جداريتين. وعلى الإفريز تقف طيور هائلة تطوق فتحة دائرية مؤطرة بساكف، ونصل إلى غرفة خلفية حيث يجب أن يسجى الجثمان عبر أربع درجات، وفي أعلى المدخل نصادف رأس الميدوزا.

والمظهر الخاص الذي يتسم به الطابق الأعلى أنه يضم معبداً أو مقاماً دائرياً في الوسط، وهذا مقلد في الضريح الراقي المسمى الضريح الكورنثي وفي الدير الضخم. والدير هذا مبني في موضع رائع وحجمه ضخم. ويطل هذا المرتفع الذي بني الدير عليه على مشاهد رائعة من وادي موسى، ومن بعيد تلوح قمة جبل (هور) هارون. والمنطقة المحيطة جميلة إلى درجة يتضاءل معها جمال المعبد إلى حد بعيد. ولقد بدا المقام الرشيق البارز في الوسط أشبه بنافذة بارزة هائلة على شاطئ بحر، وإني لأقر بتقصيري عن تذوق جمال نصب لطالما حاز على إعجاب كتاب كثر. ولعلي أفتقر للتذوق، لكنني لا أنفرد بهذا الرأي وحدي. ومع أنه جدير، بكل إطراء ممكن حقاً كونه إنجازاً؛ إلا أنه لا يملك أن يمتع العين قطعاً لكونه عملاً فنياً محاطاً بمثل هذه البيئة، وقد يكون من أسباب ذلك أن الحجارة الضاربة إلى الأصفر البارد التي بني منها لها علاقة بقصوره عن الإمتاع بعد اللون الرائع الذي تتصف به المدافن الصخرية الأخرى.

يكمن أقوى تأثير تثيره هذه المدافن في عنصر المفاجأة؛ فبعد صعود طويل إلى ما يبدو أنه أبعد بقعة وأشدها نأياً تصادف على الصخرة الطبيعية جرة هائلة منحوتة. فكيف وصلت إلى هذا المكان، إنها لتبدو عندئذ خيالية رائعة. وبعد انعطاف في الدرب الحجري تجد نفسك على قمة مغطاة بالحشائش وأوراق التوليب وأزهار البرية، حيث تجد معبداً كبيراً، وإذا قلت معبداً فلأنه أشبه بالمعبد منه بأي شيء آخر. وتدخل المكان بعد لأي، صاعداً بضعة كتل من الحجر، وإذ بك تجد نفسك في قاعة هائلة لا مخرج آخر لها. وفي محراب

يصادفك هناك تجد شيئاً ربما كان يستخدم مذبحاً، وكل شيء من حولك مقفر.

لا يملك المرء أن ينكر أن لثقل الدير والكتلة العظمية التي يتكون منها بناؤه سحرهما، ولكنهما دون الخزنة بكثير من حيث الفن، يقول السيد فيرغسون عند حديثه عن الدير إنه ليس بالأثر اليوناني ولا بالروماني؛ وإنما هو أشبه بالإفريز الدوري فوق تاج عمود بسيط جداً. أما عن الخزنة فيكتب أنها تتألف من قبو مربع يزينه رواق معمد بأربعة أعمدة كورنثية بالغة الجمال، على واجهة مثلثية ذات أثر إغريقي. وهناك فوق هذا ثلاثة أبراج متفردة جداً، يشق على المرء أشد المشقة إدراك استخدامها ونفعها. والبرج الأوسط منها دائري، وشكله مألوف جداً بين أشكال المدافن، ولربما كان استخدامه واضحاً لو أنه أكثر أهمية، أو انفرد بمكانه؛ ولكن ماذا عن البرجين على الطرفين؟ وبعد أن يعرض الرأي بأن هذين البرجين ربما كانا مأخوذين عن مدفن ذي خمسة أبراج، مثل مدفن ارونز، يختتم بهذه الملاحظة حول الخزنة فيقول: «لئن كانت أشكال العمارة كلها رومانية فإن التفاصيل تبلغ درجة من الرشاقة ومتانة التصميم عموماً ما يحمل على القول بأنه لابد من وجود تأثير إغريقي ما في هذا العمل، وآية ذلك أن الكتل الصخرية الباقية أعلى الجناحين تبين مدى قدمها كأنموذج مبكر، ومدى ضآلة تدرب مصمميها في نسخ أشكال من عماراتهم الاعتيادية في الصخرة».

ولسوف نجد أن هذا الرأي يختلف عن تلك النظرة التي حملها دي لينيس أو الدكتور دالمان؛ إذ يقول عند حديثه عن الضريح الكورنثي بأن تصميمه شبيه بالخزنة غير أنه أدنى من حيث التنفيذ والتفصيل، فهو «ينم عن قرن من التقهقر على الأقل، ولكنه يعرض في الوقت ذاته تكييفاً وأشكالاً من قَطع الصخر لا نقع عليها في الأمثلة الأقدم عهداً».

لا ترجع عناية العرب الشديدة بالخزنة إلى تذوق جمالياتها؛ وإنما إلى فكرة خاطئة هي أن الجرة التي تتوج القمة آخر ما بقي من كنز أكسب البتراء شهرتها. ولذلك لطالما كان يوجهون إليها سهامهم لكي يضعوا أيديهم على هذا الكنز، وكان في ذلك أذى للجرة، من دون أن يتمكنوا من إطلاق الدفق الموعود من الذهب أو يدمروا وعاء الكنز المفترض.

ليس من العسير أن نرى كيف بلغ التأثير الإغريقي البتراء؛ فمن دمشق وتدمر وهذه محطة

مهمة للقوافل كائنة قبل أن يسمع بها بالاسم الإغريقي، ومن حوران ومن المدن الإغريقية العشر (الديكابوليس) كان التأثير الإغريقي يتسرب إلى طرق التجارة التي شكلت صلة وصل بين العالم الخارجي والصحراء العربية. وقبل ذلك كان هذا التأثير قد بلغهم عبر منافساتهم والملوك السلوقيين. ويقال إنهم تلقوا دروسهم الأولى في الفن الاحتفالي من اليونان، ويستدل من نقوش قديمة أنهم كانوا يستخدمون الإغريقية والآرامية.

وكان الملوك الذين سادوا فيهم يعطفون على هذه المحاولة الثقافية، منذ عهد المؤسس الظاهر للسلالة أريتاس (حارثة) الأول إلى الملك رب ايل الذي يفترض بأن الرومان أطاحوا به حين استولوا على «بلاد العرب التابعة للبتراء» في العام 169 ق.م، وهو الذي لجأ إليه جاسون، وكان الأنباط يومئذٍ يصادقون المكابيين. ثم خلفه ملك قوي يدعى إروتيموس (حارثة الثاني) الذي يبدو أنه دعَّم الملكية. وكان حارثة الثالث– المعروف بـ «الفيلهيليني» (الهليني الهوى)، وحكم ما بين 85 حتى 60 ق.م– أحد أعظم الذين رعوا الثقافة اليونانية، كما أنه ملك دمشق وزاد كثيراً في المناطق التابعة للأنباط.

ويبدو أن اسم حارثة الذي يدَّون هاريتاث في النقوش النبطية، والذي يلفظ دائماً على النحو الأول عند يوسيفوس وكتاب آخرين أقدم عهداً؛ قد غدا اسماً اتخذه أحد الملوك الأنباط. وهذا ما يجعلنا نشك إن كان هؤلاء الملوك جميعاً – ونحن نعرف أحد عشر منهم متعاقبين– من أسرة واحدة؛ فحارثة الرابع الذي خلف عبادة الثاني قد تخلى عند توليه الملك عن اسم اينياس، وقد غضب القيصر عندئذٍ أشد الغضب حين لم يسأله الإذن «قبل أن يستولي على الحكم»، بما يوحي أن المُلك كان اختيارياً. فأرسل حارثة كتاباً وهدايا إلى روما، قوبلت بالرفض بادئ الأمر، ولم يتم تقبل إلا فيما بعد.

ولقد تقلبت مصائر هذا الموقع المتقدم للحضارة وتغير الوضع تماماً على يد متآمر داهية كان لطموحه أثر الكارثة في مصير اليهود أيضاً. وتفصيل ذلك أن انتباتر الأدومي الذي كان مقيماً في البتراء في أيامه الأولى، وله يومئذٍ صلات قوية بالملك، وبسبب من أغراضه الخاصة أخذ يوقظ أحقاداً دفينة خلفها الصراع بين أرسطوبولس وهيركانوس ولدي الكسندر ينايوس، فأقنع هيركانوس بالإسراع إلى البتراء لينال دعم الأنباط عسكرياً.

صورة [مقابل ص 50 في النص الانكليزي]
ضريح أبشالوم، القدس

ولكن هيركانوس الذي لم يكن تطيب له الحياة العامة ويسعد بمنصب دون الزعامة لم يسترح لهذه الحركة، ولكنه ترك انتباتر يمضي إلى البتراء ليرى كيف يكون أمر البلد، فلما عاد انتباتر هرب معه من القدس ذات ليلة، وقام بـ «رحلة كبرى» إلى البتراء حيث استقبله الملك مترفقاً في قصره.

قصره! أين كان هذا القصر، وماذا كان وصفه؟ لعل هذا القصر كان يشبه البيوت في حوران التي ما زالت أثارها شاهدة، ولم يكن القصر ليختلف عن هذه الأطلال كثيراً إلا في مواد البناء، ولا بد أن ذلك البازلت الأسود الصلد– الذي لا يلين كان الأصلب في المعالجة من الأحجار الرملية الأنعم– قد تطور بالضرورة بطراز خاص به.

ولقد وعد حارثة بقيادة جيش ضد أرسطوبولس مقابل أن يسترد اثنتي عشرة مدينة كان الكسندر ينايوس قد انتزعها منه. ويقول يوسيفوس إن حارثة قاد جيشاً من خمسين ألف فارس وراجل ضد أرسطوبولس، فهزمه في معركة ضارية، ثم ضرب حصاراً على القدس أعانه فيه اليهود، وكانوا إلى جانب هيركانوس. فماذا حدث بعدئذٍ لو لم تتدخل

روما؟ ولكن كان حتماً ما حدث بعدئذٍ؛ فقد ظهرت روما على المسرح ودحرت جموع الاثنين.

وكان بومبي قد وجَّه أحد القادة العسكريين إلى سورية، ويدعى سكاوروس، فأرسل إليه الرجلان السفارات للحكم في أمرهما، وعرضا عليه رشوة متساوية فقبل بما أرسله أرسطوبولس لأن صاحبها كان الأغنى، وأصدر الأمر لحارثة بالانسحاب لكونه عدواً لروما. وبعد معركة كانت الأخيرة مع أرسطوبولس دحر الملك النبطي الذي عاد وبقية جيشه إلى البتراء، ولنا أن نتصور هؤلاء يصعدون مضيق السيق بروح مختلفة كل الاختلاف عن الروح التي خرجوا بها.

وأما اليهود- فبسبب من خلافاتهم الداخلية والتي ما كان يجب أن تقع- فقد مكّنوا الرومان من أن يصبحوا سادة الموقف، ويقول يوسيفوس «تعود أسباب هذا البؤس الذي حل بالقدس إلى إعلان كل من هيركانوس وأرسطوبولس الحرب على الآخر، وهذا أدى إلى أن خسرنا الآن حريتنا، وأصبحنا رعايا تابعين للرومان». وكان بوسعه القول إن انتباتر كان سبب هذه المصيبة؛ فقد كان شديد الأثرة في تعامله مع الأنباط، ولم ينشد في ذلك سوى مصلحته الخاصة، واستخدم في أكثر من مناسبة ملكهم وسيلة له، وإن كان يبدو أنه أقرض عبادة مالاً وواجه بعض الصعوبة في استرداد هذا المال.

ولما عاد الأنباط إلى البتراء واجهوا العقاب لجرأتهم على يد القائد الروماني سكاوروس الذي أرسل على ما يبدو إلى البتراء، ولكن شكل المكان لم يرق له، فعمد عوضاً عن ذلك إلى حرق كل ما صادفه في تلك المنطقة ودمرّه، ولم يحمله على التوقف عن هذا إلا فدية معلومة من المال. وكان ذلك عسف واضح لكل ذي عينين؛ لأن الرومان كانوا قد انقلبوا في النهاية على أرسطوبولس وأقروا هيركانوس كبيراً للكهنة وحاكماً.

توفي حارثة الثالث الملقب بالفيلهيليني والذي بتأثيره صارت البتراء هيلينية، وخلفه عبادة، وكان ضعيف الفكر والبدن، وترك تسيير الأمور إلى رئيس وزرائه سلي (سيلايوس)، ويذكر استرابو أنه في عهده أرسل الرومان قوة بقيادة ايليوس جالوس مزوداً بتوجيهات ليتعرف إلى طبيعة الأرض في بلاد العرب السعيدة. وطلب إليه أن يعقد صداقات هناك أو

يقاتل سكان بلاد التوابل الأغنياء؛ أي أن يختار الأمر الأكثر ربحاً. فقرر القائد أن يخوض القتال فعقد مع الأنباط حلفاً، كي يرشدوا جيشه حين يخوض في هذه الأرض المجهولة والقتال في صفوفه.

وكان سلي هذا شاباً حسن الطلعة وداهية ماكراً وطموحاً، ولا يرعى حرمة لأمر، شأنه في ذلك شأن هيرود ذاته. فسار بالرومان وخاض في متاهات أرض يباب حيث لا ماء، ووجه أسطولهم إلى شواطئ لا مرافئ فيها. ولما اكتشف الروماني أن البربري الماكر قد غرر به وضلله، أملاً في أن يقتل بعض أعدائه وينهك الرومان بالجوع والعطش والمسيرات الطويلة؛ ثار غضبه ثورة عظيمة، ولكن سلي تمكن من الإفلات من العقاب إلى حين، ولا ريب بأنه ضحك في خلده بعد أن عاد سالماً إلى داخل أسوار مدينته، ظاناً أنه بز روما بذكائه.

وكان لهيرود بن انتباتر والملقب بالكبير أخت تدعى سالومة، وكانت لا تنقطع عن التآمر على الآخرين من أفراد تلك العائلة التي كان الود يسود بينها، وكانت سالومة مطلقة مرتين وتقيم عند أخيها، وحين قدم سلي إلى العشاء ضيفاً على أخيها وقع في هواها، فما كان منها إلا أن قابلت هواه بمثله، وعند تقدم لخطبتها من هيرود قبلت من دون تردد، ولكن هيرود رفض لأسباب مختلفة، منها أن سلي رفض اعتناق الدين اليهودي؛ وقال إن العرب كانوا يرجمونه لو قِبل بالأمر، فانتهت بذلك العلاقة. أما سالومة التي أُكرهت على الزواج من رجل ثالث، بعد شهور قلائل، ولم يكن الرجل من خيارها؛ فلم تغفر لهيرود صلفه ومضى سلي يغتنم كل مناسبة ليضيق على صديقه سابقاً.

وحين حاول هيرود فرض النظام والقانون في جزء متمرد من بلده ذي الأقسام الأربعة منح سلي الملجأ لعصبة من اللصوص في الأراضي النبطية، وشجعهم على استباحة أملاك هيرود، كذلك رفض سلي تسديد مال كان هيرود أقرضه لعبادة، ويبدو أنه استولى عليه. فجمع هيرود قوة مسلحة، وسار بها ليسترد ما كان له من المال، وفر سلي إلى روما واتهم الرجل الكبير بشن حرب من دون موافقة من روما. وبذلك تكلل هيرود بالعار وبات سلي منتصراً، ولكن إلى حين. فحين مات عبادة وتولى الحكم اينياس الذي اتخذ اسم حارثة

الرابع ذهب رئيس الوزراء السابق الذي أراد العرش لنفسه إلى الإمبراطور والدمع يترقرق في عينيه، مجللاً بالسواد، قائلاً إن الأمور لا تجري على نحو ما ينبغي في منطقة الأنباط، وأن حارثة لا يملك الحق في التاج. مما جعل الروماني المتعجرف يرفض التاج الذهبي الذي أرسله إليه حارثة، والكتاب الذي يعلن توليه العرش خليفة للملك المتوفي. ولاح لبعض الوقت أن سلي على وشك الفوز في لعبته الخطرة. ولكن حين أجريت التحقيقات وصار سلي متهماً– إن بحق وإن بباطل– بضلوعه في موت عبادة مالت عقارب الساعة إلى الاتجاه الآخر، ثم بعثت ضده الدعوى القديمة أيضاً بأنه ضلل الجنود الرومان، فانقلبت الأمور على المتآمر وأُعدم في روما، بينما كان حارثة يستعيد الحظوة، وغدا هيرود أقوى من أي وقت مضى. وهكذا تنتهي قصة لا دلالة سياسية لها؛ إنما لا تخلو من أسباب الاهتمام لأنها تنقل إلينا شيئاً من صورة الأزمان التي عاش فيها الملك الذي من أجل ضريحه أو للاحتفال بمجده ربما حُفرت الخزنة في الصخر.

الفصل الخامس
البتراء قبل الحقبة الرومانية

كان انتباتر مؤسس الأمجاد الهيرودية، حاكم يهوذا كلها، وقد جعل من نفسه ضرورة ليس لروما غنى عنها، واقتدى به ابنه هيرود الكبير في خطواته أشد الاقتداء. ووجد الأباطرة الرومان أنه من المفيد لهم أن يكون رجل مثله ذا ثروات طائلة في طاعتهم ورهن إشارتهم، ولا ريب بأنهم وجدوا فيه رجلاً مخلصاً أميناً على مصالحهم وذا مواهب وطموح.

ولم ينس هيرود الأدومي أهله في البتراء البعيدة قط؛ فلقد استمر على صداقتهم، وما انفك يقرضهم المال حين يلائم ذلك أغراضه، كما كان في الوقت ذاته لا يتردد في قتالهم حين تدعو الضرورة. فلما استولى انتغونوس بن أرسطوبولس المغدور على القدس لجأ هيرود إلى البتراء طلباً للأمان، وهو في طريقه إلى مصر وروما. ثم عاد بالتأكيد يحمل لقب ملك اليهود، وفي النهاية استولى على القدس بمساعدة من روما.

وكانت كليوبترا المصرية شخصية شهيرة أخرى اضطلعت بدور في تواريخ الأنباط، ولقد استهوتها تلك البلاد حين مرت بها في طريقها إلى سورية، فسألت مارك أنطونيو أن يمنحها المناطق اليهودية والنبطية. ولكن أنطونيو لم يجرؤ على تلبية مثل هذا المطلب الفضفاض، ولا كان بوسعه أن يعرض عن طلبها كل الإعراض؛ فأقطعها الساحل الفينيقي عدا مدينتي صور وصيدا، وهذا استثناء تضيق به النفس جعل الملكة النهمة في ضيق له ما يسوغه. كما قدم لها أيضاً جزءاً من الأراضي النبطية والايتورية وأريحا التي أجرتها لاحقاً إلى هيرود.

ويقال إن هيرود كان الرجل الوحيد الذي قاوم سحر أفعى النيل القديم؛ فقد رأى الرجل أنها امرأة خطرة ومتعبة، بل مضى إلى حد نصح مارك أنطونيو باغتيالها، وأحزنه أن يكون هيام الجندي العظيم بتلك الملكة قد حال دون أخذه بهذا الحل البسيط، والذي يتبناه هيرود دائماً عند الشدة. فلما قدمت كليوبترا إلى سورية قدم لها الكثير من الهدايا الثمينة، ثم رافقها إلى حدود ملكها ولم يمنعه ذلك من أن يغتبط لفراقها. أما كليوبترا فقد

ضاقت بهذا المتسلق الأدومي الصغير إذ أظهر أنه داهية يصعب الإيقاع به، وحاولت أن ترد له الصاع صاعين بعد حين.

وتفصيل الأمر هو التالي: كان هيرود يهيئ جيشاً لمارك أنطونيو لقتال أوكتافيان حين تلقى أمراً بتوجيه هجومه عوضاً عن ذلك إلى الأنباط، وكانت كليوبترا الملهمة بهذا الأمر المفاجئ، وحجتها في ذلك بأنها ستجني من هذا الهجوم فوائد أياً كان المنتصر في المعركة، فإذا خسر هيرود أفادت من ذلك كثيراً وحازت على ملكه، أما إذا خسر الأنباط فإنها ستفوز عندئذٍ بالبتراء، والأراضي العربية التابعة للبتراء؛ فأرسلت أحد القادة ليكفل نجاح الخطة، ثم أخذت تنتظر النتيجة. ولقد دار النرد؛ ولن تكون خاسرة أياً كان الرابح.

كان هيرود على وشك الفوز في المعركة حين وصل ذلك القائد، وصادف أنه ينفر منه، وانضم إلى الأنباط ومعه تعزيزات، وتحولت المقادير إلى صالحهم. وفي معركة أخرى أحرز هيرود نصراً مؤزراً، فعاد إلى اليهودية مكللاً بالغار، ومنها توجه إلى روما ليشرح لأُوكتافيان أنه مهما بلغ ما يكنه لأنطونيو من حب فبمقدوره أن يكن له مثل هذا الحب أيضاً. وهكذا لم تفز كليوبترا بشيء في النهاية، وبعد موتها آلت ممتلكاتها إلى هيرود الذي ضم إليه أربعمئة من حراسها الغاليين، ولا بد أنه شعر في أعماقه بأنه نال منها على المدى الطويل؛ والحق أن هذا كان شأنه مع معظم من كان له اتصال بهم.

وعلى الرغم من أن الأنباط قد انتصروا في بعض المعارك القوية، إلا أنهم لم يشتهروا بوصفهم محاربين، وربما يعود ذلك إلى أن قواتهم كانت أقرب إلى الشرطة المعدة بطبيعتها لحماية طرق المواصلات منها إلى الجماعة المقاتلة فعلاً.

صورة [مقابل ص 58 في النص الانكليزي]
المسرح في البتراء. والمدخل إلى السيق

أما قصة حياة هيرود السياسية ومآسيه العائلية الملطخة بالدماء فليس لها أي علاقة بالبتراء، ولكن هناك صلة تجعل الارتباط بينهما يبرز إلى المقدمة من جديد في عهد ملك الأنباط حارثة الرابع. وقد علمنا أن أحد أبناء الطاغية هيرود ويدعى هيرود أنتيباس كان محظوظاً؛ إذ تمكن من الهرب من سورة أبيه وغضبه، وتزوج بابنة ملك الأنباط، ولنا أن نتخيل المشهد المألوف والودي للأميرة وهي تغادر بسلام ومعها بعض الأملاك، وقد مثل هذا الزواج إنجازاً عظيماً من الناحية السياسية، إذ إن الزوج العتيد كان بين جملة أمور أخرى تتراخ أي حاكم الربع من ولاية بيراية [حاكم الجليل وملحقاته عبر الأردن]، وعاش الاثنان معاً حيناً، أما كم طالت الفترة فلسنا ندري، ولا ندري كذلك إن كانت في سعادة أم تعاسة، أو ولد لهما أطفال أم لا. ثم استدعي أنتيباس إلى روما لأمر ما، شأنه في ذلك شأن الأمراء جميعاً وروما يومئذ محور الكون.

وحين حل أنتيباس بروما عاشٍ لدى أخيه فيليب، وليس المقصود الحاكم، وإنما هو فيليب آخر، وزوجة فيليب هيروديا وكانت ابنة أخته أيضاً، فوقع في غرامها، ويبدو أن المأساة أخذت تتكشف سريعاً، وانتقلت الأخبار بسرعة في تلك الأيام، وسرعان ما بلغت

مسامع الزوجة التي كان الزوج قد تركها في البيت أن أنتيباس وقع في غرام زوجة شقيقه، وعرض عليها أن تتخلى عن زوجها وتلتحق به في فلسطين. وقد قبلت هيروديـاس، بشرط أن يترك زوجته النبطية، قبل أن تنتقل للعيش معه، فوافق أنتيباس على هذا الشرط، وأسرع عائداً إلى بلده لإعداد ما يلزم لهذه الحال الجديدة. وليس معلوماً ما كان رأي فيليب بهذا التدبير، إنما حين بلغت الأميرة النبطية هذه الأنباء استقر رأيها على الإسراع إلى أبيها لتتفادى مذلة الطرد. فغادرت المنزل بسرعة، وكانت تقصد الوصول إلى [قلعة] مخايرس (مقاور) الواقعة على الحدود بين أملاك زوجها وأملاك أبيها. فادعت بأنها ستقضي هناك فترة قصيرة، ولكنها مضت مباشرة، وجمعت ما لديها وهربت عبر الحدود حيث استقبلها رعايا والدها، ومضت تنتقل من قائد إلى قائد ومن حصن إلى حصن حتى بلغت البتراء. ولكم يود المرء لو يعلم بما كان يجول في خاطرها من الأفكار حين دخلت وهدة السيق؛ وما إذا كانت ممتنة إذ استطاعت الهرب أم كانت مكلومة الفؤاد، وما إذا كانت قد اصطحبت أولادها معها، أم تراها عجزت عن إضافة إنسان آخر إلى هذا السباق الذي بدأ على هذا النطاق الواسع، وأُنسي قبل أن ينتهي مئة عام، وكل ما نعلمه أنها أخبرت أباها بحكايتها، وأن حارثة أعلن الحرب على صهره.

ومرة أخرى خرج الأنباط من البتراء وهم عازمون على الحرب، ولا بد أنهم شعروا أن هيرود أهان أمتهم. وخرج هيرود أنتيباس للقائهم، وربما كان يخالجه شيء من الاضطراب للمجرى الذي اتخذته الأحداث. وقد استقرت زوجته الجديدة وابنتها سالومة من زوجها الأول في مخايرس، وكانت تلك الإشارات المتداولة عن زواجها التي يطلقها واعظ متطرف يدعى يوحنا ويوصف بالمعمدان وما تتضمنه من إهانات مصدر إزعاج للزوجة. وكان يوحنا رجلاً خطيراً له الكثير من الأتباع، ويسهل عليه الإتيان بأي أذى؛ فلديه هؤلاء الأتباع المستعدون أبداً للسير وراءه حيثما شاء، ولذلك فقد أودع السجن بتهمة الخيانة العظمى. ولقد رقصت سالومة يومئذٍ ووعدها هيرود بأن ينفذ لها كل ما تطلبه، فسألته بإيحاء من أمها أن يقدم لها رأس المعمَدان. وكان وقتاً عصيباً بمعنى من المعاني، فقد خسر هيرود يومذاك معركته الأولى، وكانت هزيمة نكراء، حتى إن أتباعه انتابهم الجزع من

عواقبها. ثم أعقب الهزيمة زلزال جعل الناس يجزعون ويقولون إن الرب غاضب، ويوم القيامة حل!.

ولقد شعر الأنباط بغبطة النصر، كما يمكن أن يتوقع المرء، ولكن الفرح لم يطل؛ فقد ألقى أنتيباس بمساعدة من الشيطان وبعون من جسارته بلا ريب خطاباً مدوياً في جيشه، مما دفعهم إلى الهجوم من جديد والتفوق في القتال تماماً والانتصار. شعرت الزوجة المهجورة بالأسى حين وجدت قوة الانتقام فعادت أدراجها مهزومة؛ فقد كان لديها ما يجعلها تدرك لاحقاً أن الزوجين الآثمين لا يسلمان دائماً من العواقب. إذ استبدت الغيرة بهيروديا من أخيها الذي غدا ملكاً، مما جعلها تحمل أنتيباس على السفر إلى روما ليحصل على تاج أيضاً. وانطلق الاثنان يعدان لرحلتهما المعتزمة بأقصى قدر ممكن من الاقتصاد في النفقات؛ فالوقت لم يكن يتسم بالبهجة الشديدة، لكن الأمر لم يقتصر على رفض إعطائهما التاج؛ بل وانتزع منهما حكم ربع الولاية، ومنحت للأخ الذي باتت تحسده لما ناله. ويذكر التاريخ أن هيروديا آثرت أن تتبع زوجها إلى المنفى بدلاً من أن تعود إلى فلسطين مجللة بالعار، أما مصير الزوجة الأولى فإن التاريخ لم يذكره.

والأمر الغريب أن قلة قليلة فحسب من النقوش قد ظلت ثابتة على جدران المدافن، وأما النقوش التي عُثر عليها في مدائن صالح فغير ذات بال. وكان القصد منها جلاء بعض الحقوق القانونية التي يتمتع بها الموتى والمنحدرين منهم في المدفن، وعلامات مهددة بلعنات ذي الشرى واللات، والتي قد تخزي كل من يتجاهلها. وهناك سطور قليلة وجدت في الواحات تذكر بأناس غير ذوي أهمية، وربما كانوا قد عاشوا هناك أو مروا بالمكان مع إحدى القوافل. ومن هذه الكلمات: «سلام! عويسو بن فريو؛ حظاً سعيداً!» ويرد في نقش الدعاء بالراحة لسعدو بن جعرم – البا – علي «ليذكر وينعم بالسلام إلى الأبد!»

ولقد عُثر على نقش في غرفة في البتراء كان الوصول إليها بسلم، ويبدو أنه قصد بهذا النقش تكريم ذكرى عبادة الثاني، ذلك الملك الكسول واهن العزيمة الذي ترك لوزيره سلي حكم مملكته عنه. ولقد قامت له ديانة في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وكان من المألوف

الشائع إضفاء الألوهية على الملوك، ويلوح من مظهر الغرفة أنها كانت معبداً والنقوش المدونة هناك تجري على النحو التالي:

«هذا تمثال عبادة المقدس الذي أقامه جتاش بن بطمون... ملك بن ويثرا رب حتاش القائم على تل بطمون، جدهما، لحياة حارثة ملك الأنباط، ومالك، وعبادة، ورب إيل، وفص إيل وسعدت وهاجر أولاده وحارثة بن هاجر، حفيده.... في السنة 29 من عهد حارثة ملك الأنباط، ليخيم السلام عليه!».

ويذكر إربي ومانغلز في كتابهما «رحلات في مصر وفلسطين» أن هذا النقش موضوع في مدفن واجهته واسعة وتصميمه عربي وله أربعة أعمدة. وليس فيه شيء تام سوى الجزء الأعلى، وهذا برهان آخر على أن العمال المحليين قد بنوا من الأعلى باتجاه الأسفل. والنقش على لوح مستطيل من دون إطار أو نتوء، ويتميز عن بقية السطح بأنه مشغول بدقة، وتبرز الأجنحة من النهايات، وتأخذ شكل سكين فأس، وهذه شائعة في الألواح الرومانية والإغريقية. ويبدو أن المراد بها أن تكون مواضع تلقي اللوالب أو الأربطة، ولئن كان اللوح كله محفوراً في الصخر القاسي؛ فإن هناك لطخات تصادف في المكان الذي ضربت فيه المسامير الكبيرة لإعطاء القطعة مظهر قطعة مستقلة. والحروف حسنة القطع ومحفوظة جيداً نظراً للواقية التي تتوافر من القوصرات البارزة.

ويقدم بليني وديودوس سيكولوس روايات مختلفة عن الحياة في البتراء حين كان ظل روما محسوساً عند عتبة المدينة، إنما قبل أن تنتزع من المدينة حريتها؛ فيقول استرابو: «تدعى عاصمة الأنباط البتراء، وهي تقوم على بقعة محاطة ومدعمة بصخر أملس ومستو، وهو من الخارج مقطوع وشديد الانحدار، ومن الداخل حافل بينابيع الماء للاستهلاك المنزلي وسقاية الحدائق. ومعظم الريف خارج هذه المنطقة المطوقة صحراء، ولاسيما ناحية اليهودية. وإن تكن هذه أقصر طريق إلى أريحا فإن الرحلة إليها تستغرق ثلاثة أيام أو أربعة....وهي تحكم أبداً من ملك ينتمي إلى سلالة ملكية....وللملك وزير هو أحد المرافقين ويسمى أخاً، وتتمتع البلاد بقوانين ممتازة في إدارة الشؤون العامة.

صورة [مقابل ص62 في النص الانكليزي]
الضريح الكورنثي، والضريح ذو الطبقات الثلاث، البتراء

وقد اعتاد أثينودورس– وهو فيلسوف وصديق– أن يروي لي مستغرباً أنه وجد عدداً كبيراً من الرومان وسواهم وغرباء آخرين يقيمون هناك، ولاحظ أن الغرباء كثيراً ما تستغرقهم الدعاوى والتقاضي فيما بينهم ومع أهل البلد؛ ولكن أهل البلد هؤلاء لا ينشغلون بالتخاصم فيما بينهم قط ويعيشون في سلام ووئام».

وكان أثينودورس فيلسوفاً رواقياً، ويظن عموماً أنه من أهل كَنانة بالقرب من طرطوس، ويقال اليوم إنه وُلِد بالبتراء قرابة العام 80 ق.م. ولكن الرجل كان على أي حال على معرفة جيدة بالمدينة الصخرية. وكان أثينودورس ذا حظوة عند أوغسطس قيصر، وقد اعتاد أن يتكلم بحرية تامة معه، ويذكر أنه أشار على الإمبراطور أن يكرر حروف الهجاء قبل أن يدلي برأي في قول صدر ولم يقع موقعاً حسناً عنده.

وهناك شواهد على أنه كان لدى روما مخططاتها للبتراء منذ مرحلة مبكرة؛ فقد كان الرومان الذين كانت لهم تجارة مع الأنباط يعودون ويروون حكايات رائعة عن ثراء

هؤلاء القوم وكثير منهم استقر هناك. فماذا تراهم كانوا يتحدثون في البتراء الملوكية؟ كانوا يتحدثون في السياسة طبعاً التي زادتها الخلافات الأزلية بين البطالمة والسلوقيين تعقيداً، ثم هناك حال الصيرفة والبضائع التي كانت تأتي بها أحدث القوافل القادمة من المشرق. ولربما زاد من الأحاديث المتداولة نتف يتداولها الحرس الأنباط والحميريين في واحة من الواحات كالعُلا، مما يقع بين ولايتين، ويطول عندئذ حديث الشائعات بضعة دقائق أخرى، وربما بلغ حارثة أخبار من دمشق بأن الحاكم هناك قد أمر باحتجاز واعظ متمرد يدعى بولس، ثم كيف فر من سجنه تحت جنح الظلام، بعد أن أُنزل من شباك سجنه في سلة.

وكثيراً ما كان حارثة يلجأ إلى العرافين حين تُعرض له قضية ذات شأن؛ فعندما كان فتيليوس يزحف إلى البتراء سأل الملك عن نتيجة الهجوم، فجاءه الجواب إن فتيليوس لن يدخل البتراء، وأنه في وقت قريب سيموت هو أو من أوفده. ولقد أوقف فتيليوس زحفه في منتصف الطريق، وقفل عائداً بعد تلقي نبأ وفاة الامبراطور تيبريوس.

لم تقتصر آثار الأنباط على البتراء وما حولها وحسب، ففي حوران بنوا البيوت والمعابد التي كشف عن آثارها دي فوغو، ولاسيما في معابد سي والسويداء. ولئن كان الأنباط قد عمدوا إلى نسخ أنماط أمم أخرى، فإنهم لم يقتصروا على أخذ فنونهم عن سورية ومصر وفارس واليونان وروما، وإنما كانت أعمالهم تتميز بتفرد شخصيتهم أيضاً، ومع ذلك فقد اكتسى فن الأنباط بشيء من الشرق، كما اتسمت تصوراتهم بالاتساع والحرية في الغالب في معالجة التفاصيل. ومن غريب الأمر أن يكون قد قدر لهذا الشعب الذي بدأ حياته مقلداً أن يؤثر في أساليب الفن الروماني والمسيحي في سورية فيما بعد؛ فقد كانت تعالج الأشكال الكلاسيكية– وهي أصيلة من حيث البناء والزخرفة، كما في كل مكان في سورية– بقدر من الحرية أكثر من أي بقعة أخرى، من دون التضحية بذلك الطابع الذي كان مبعث السحر في العمارة اليونانية واليونانية – الرومانية الجيدة.

ولقد استخدم الأنباط التاج الذي أتى به المعماريون في البتراء في أعمدة مدافن المدينة من دون استثناء تقريباً. ويذهب الراهبان الدومينيكيان جوسان وسافينياك إلى أن هذه

التيجان تشكل أبرز مظهر في العمارة النبطية. وهناك ثلاثة أشكال خاصة، وللشكل الأبسط قرنان عند الزوايا وزائدة مستديرة في الأعلى، ثم هناك طراز آخر ذو مخلب تحت القرون يفصلها عن بعضها تجويف، وطراز ثالث يقع عليه المرء في معظم المدافن الكبرى. ولهذا تاج مزدوج يتشكل أولهما بفضل قالب فوقه تاج عمود من طراز نبطي خالص. ويظن السيد ديولافوي أن هذه الأشكال مستمدة بلا ريب من طراز فارسي، أما السيد دي فوغو فيجدها نسخاً فجة من التاج الكورنثي فحسب.

وقد كان المعماريون الأنباط إذا خرجوا بتصميم تاج لعمود ثابروا عليه لذا نجده يتكرر مرة بعد مرة في البتراء؛ بل إن التاج المزدوج يستمر إلى ما بعد الاحتلال الروماني.

الفصل السادس
البتـراء الرومانيـة

استولى الرومان على البتراء في العام 106 ميلادية، وزادت قليلاً معرفتنا بقصتها؛ فيبدو أن الأنباط بذلوا الكثير في الدفاع عن حرياتهم، وحافظوا على قسم من حوران ردحاً من الزمن بعد الهجوم الأول. ولكن أهالي البتراء غدوا بعدئذ مثل الرومان تماماً، وازدهرت مدينتهم، واستمرت التجارة على حالها من الازدهار تحت توجيه الرومان؛ فقد شق الغزاة أحد أشهر الطرق وهو الذي ربط بين البتراء والبحر الأحمر، ثم تبع ذلك شق طرق أخرى. كذلك استعاضوا عن البيوت النبطية بأخرى من طراز أكثر أهمية، وشيدوا قوساً عند مدخل السيق وبوابة ثلاثية [بوابة النصر] ومعبداً، وتبدو هذه المباني العامة في حوض وادي موسى حيث ما زال يمكن رؤية آثار الطرقات. وكما هو الحال مع روما يحظى دين المنتصر بالمراعاة، ونجد إبيغانيوس (130–190م) يكتب عن مهرجان جرى في البتراء احتفالاً بكعبو وذي الشرى.

زار هدريان البتراء واحتفل بالزيارة بسك قطعة نقد معدنية نقشت عليها عبارة بتراء أدريانا «Adriane Petra». ولعل أعظم الرخاء الذي عاشته البتراء كان في نهاية القرن الأول الميلادي، أما القرون التالية فقد كانت فيها البتراء مركزاً للتجارة، ثم ما لبث أن انحدرت أهميتها حين تحولت طرق القوافل، وحل البحر محل اليابسة طريقاً أثيراً، ثم حين صعد نجم تدمر بوصفها مركزاً مهماً وطريقاً مفضلاً للقوافل.

تنتمي معظم القبور في المرحلة بعد الكلاسيكية إلى الحقبة الرومانية؛ فضريح الجرة غاية في الأهمية، وذلك بسبب بساطته ومهابة طرازه وعلو الموضع الذي يحتله، فهذا الضريح يقوم على ارتفاع مئة قدم فوق وادي المعبد، ولا ريب بأنه معبد وليس ضريحاً، فهو يطغى على المشهد بأعمدته الضخمة الملتصقة بالجدار التي تسند ساكفاً يتخلله شبه أعمدة صغيرة، يشكل واجهة مثلثة تستند إليها الجرة. وواجهة المعبد منحوتة من الصخر الوردي، أو بلون لهب النار الأحمر الجميل، وتقوم على منصة مربعة تستند بدورها إلى

تكوينات مقوسة ذات طبيعة ضخمة جداً. ولا بد أن عدد المهندسين الذين اشتغلوا في إنجاز هذه المأثرة كان كبيراً، ويشير إلى تاريخ يعود إلى عهد ليس أقدم من القرن الأول الميلادي. والوصول إلى المعبد يتم بارتقاء درج عظيم، وهذا الدرج كما البنى الجانبية في حالة من الخراب، ولا يمكن ارتقاؤه إلا إذا كان المرء يتمتع بلياقة بدنية حسنة تمكنه من الصعود.

والساكف الذي يعلو الباب مزين بتروس تتخلل الأخاديد الثلاثية، وفوقها نافذة ومثلها ثلاث نوافذ في الطابق العلوي، وفي الوسط تمثالان يتميزان بالنحت الغائر. وهناك إلى اليمين واليسار من الشرفة المرتفعة ممر من الأعمدة ذات الطراز الأيوني، يبرز من حائط صخري يشكل جانباً من السياج، وهذا المعلم البارز حديث العهد في البتراء، أو بالأحرى بقايا البتراء التي نعرفها قبل الحقبة الرومانية. ولا ريب أنه كان في البلدة والوادي الكثير من مثل هذا المعلم لكنها اختفت من أمامنا.

ونجد في الداخل غرفة واسعة ضخمة ذات تأثيرات لونية رائعة في السقف وعلى الجدران، وتتميز بدقة حفر زواياها. أما مظهر قوس قزح الذي يتركه التجزيع فجميل جداً، وثمة نقش يفيدنا بأن المعبد كرس كنيسة في عهد «الأسقف جاسون وافر التقديس» في العام 477 ميلادية.

والضريح ذو الطوابق الثلاثة [الضريح الملكي أو ضريح القصر] في حالة عطب شديد بسبب عوامل الزمن والطقس التي نالت منه أكثر مما نالت من معظم الأبنية الأخرى. ويعاني الطابق الأعلى من عدم اكتماله؛ إذ إن الصخرة التي شيد عليها لا ترتفع كفاية ليكتمل التصميم. وهذا المعبد صورة عن قصر روماني، وليس تصميماً لمعبد كما هو معهود أكثر، وما زال فعلاً النموذج الفريد من نوعه في البتراء. وكان الفرس قد اعتادوا بناء واجهات القصور لكونها مداخل لقبورهم، ولكن ذلك لم يكن عادة رومانية قط. ويقول فيرغسون إنه شبيه بمنصة العرض في بعض المسارح الإغريقية الأقرب عهداً،

صورة [مقابل ص 68 في النص الانكليزي]
معبد الجرة، البتراء

ولو كان قبراً فإن ذلك «إحدى أتم الضلالات في تطبيق العمارة الإغريقية على مدى الزمن». وللطابق السفلي أربعة أبواب ضخمة، ويحيط بكل باب عمودان، وكل باب يؤدي إلى أربع غرف؛ ويعلو العمود الأوسط واجهات مثلثة، والأعمدة الخارجية تحيط بها واجهات مقوسة مستديرة. وثمة ساكف أو إفريز يسند الطابق الأوسط، وعلى وجهه ثمانية عشر عموداً صغيراً وبعض النوافذ. أما الطابق الأعلى وهو مبني من الحجر فيسنده ساكف مربع.

يعد الضريح الكورنثي نسخة رومانية عن الخزنة، وللطابق السفلي ثمانية أعمدة كورنثية، بينما يضم الطابق الأعلى المقام وبروزين اثنين أقل شأناً، ويركب على ذلك كله الجرة المعتادة. وهناك قبر آخر بالغ الدقة هو قبر الحاكم الروماني سكستيوس فلورنتينوس وعليه نقش باللاتينية، وتبين الواجهة مدخلاً أساسياً محاطاً بالأعمدة وعلى الواجهة المثلثة رأس الميدوزا وعقاب باسط جناحيه.

ويظهر أحد أشد ما تتميز به المعالم الرومانية على أوضح نحو عند الارتقاء إلى الدير؛ فبالنظر عبر الوادي يشاهد المرء عبر واد سحيق ضيق معبداً يفتن العين، وهذا ينتصب على

مصطبة واسعة، تضفي عليه الأعمدة السامقة والواجهة البسيطة مهابة يزيد منها موقعه. ولأنني أعرضت عن الصعود وفحص هذا المعبد؛ سأقتطف ههنا وصفاً أخذته عن سير الكسندر كينيدي؛ إذ كتب يقول:

«إن نصب الأسد– وهو أحد المعالم الكلاسيكية القليلة، شأنه في ذلك شأن الدير على الطرف الغربي من البتراء– غرفة مائدة [في المنزل الروماني وبها ثلاث أرائك ترص على شكل حدوة حصان]، وليس مدفناً، الأسود موضوعة في نتوءات منخفضة على كل طرف من الممر. ولوجوه التيجان النبطية بين القرون بعض التزيينات من اللفافات في الأعمدة. ويحمل الإفريز رأسين للميدوزا، وأربع حلي صغيرة مزخرفة ببتلات الورد، وواضح على العموم أن هذا النصب من زمن متأخر. ولكنه من الملحوظ جداً أن المآدب التي كانت تقام ههنا تتصل بعبادة ذي الشرى، الذي يقوم رمزه على صخرة ملساء على الطرف الأيسر من الممر. وليس من المؤكد إن كان تاريخ المسرح يرجع إلى الحقبة الرومانية، أم أنه من زمن حارثة الثالث حين كان التأثير الهيلينستي قوياً في البتراء، ولكن من المعروف جيداً أن الإغريق كانوا يرون في المسرح حاجة ضرورية؛ بينما كان الرومان يؤثرون المدرج الذي تجري فيه المباريات بين الإنسان والوحوش الضارية، ولذلك فإنه يرجح أن يكون هذا البناء قد شيد في زمن أسبق.

في البداية– وبعيداً عن تغيُّر الحكم وحضور الجنود الرومان، والعدد المتزايد من المستوطنين الرومان– ثمة فارق عظيم في طابع الحياة في عاصمة الأنباط؛ قد لا يكون ظاهراً على السطح، فلطالما كانت روما تلوح في الأفق فتفرض الجزية، بل تطلب إمدادها بالرجال للقتال في صفوف جيوشها، ثم ازدادت الوشائج ارتباطاً بين البتراء وروما بعد أن تم ضمت سورية وعدت مقاطعة رومانية، وغدت القدس مدينة رومانية تعرف باسم «ايليوس كابيتولينوس». وكانت روما قد دأبت زمناً طويلاً تتطلع إلى التحكم بتجارة الشرق، ثم يبدو أنها مضت إلى تنفيذ مشروعها حالما تمكنت من الاستيلاء على المفتاح المؤدي إلى بلوغ هذا الهدف. وكثيراً ما كان يشار إلى روما على أنها القوة التي حدت من شأن قبائل بدو الصحراء، وما زالت الطرق في الأرض اليباب تدل عليها شواهد من

خطوط الجنود الرومان وأحياناً على الأحجار في تلك البقاع. فما زالت الدروب الممهدة ذات الحدود المعلومة بشواهد من الحجارة أو قطع البازلت السوداء هنا وهناك. ولا ريب بأن التجارة أفادت من حالة الرخاء الذي عم المنطقة، ولو إلى حين على الأقل. أما أن الرومان أدركوا على المدى البعيد الطابع الخاص للتجارة، أو كان هذا شأن العرب الذين نشؤوا في مناخ التجارة أكثر مما تعلموها؛ فقضية أخرى.

لقد كانت القوافل تجري على مدار السنة طوال عهود، وهي تقطع الطرق القديمة من الخليج العربي وسبأ لتحط في البتراء، حيث تتفرع الطرق إلى مصر وفلسطين وسورية، وتتوقف في أرسينوة وغزة وصيدا وصور والقدس ودمشق وأماكن أخرى عديدة ليست في مثل شهرة تلك المدن.

صورة [مقابل ص 70 في النص الانكليزي]
مشهد من صف الأعمدة في معبد الجرة، البتراء

والمؤكد أن المسيحية دخلت البتراء والمنطقة المحيطة بها في وقت مبكر، ومن المرجح أن الرومان– وكانوا ذوي أفق واسع في موضوع ديانات الشعوب الأخرى، إلا إذا تدخلت في أمرها الصراعات السياسية، كما كان الحال مع اليهود– قد تركوا قدراً معيناً من الحرية للطائفة الجديدة؛ بل من المحتمل أن يكون بطرس الحواري قد عاش في البتراء في السنوات الثلاث التي أمضاها في المنطقة وراء الأردن قبل بدء رسوليته. وقد صارت البتراء في القرن

الرابع مركزاً أسقفياً، ولكن ليس لدينا ما يدل على الزمن الذي عين فيه أول أسقف.

ولابد من ملاحظة أن الإمبراطورية الرومانية ذاتها كانت في تحول، ومعها مصائر البتراء؛ فعندما انقسمت الإمبراطورية قسمين ضُمت سورية إلى الإمبراطورية البيزنطية، وتحت قيادة قسطنطين باتت المسيحية قوة عظمى، بينما برزت إلى المقدمة في الوقت ذاته عبادة النار عند الفرس. وتحولت المدن اليونانية العشر الكبرى وصارت مراكز استيطان رومانية ذات رخاء عظيم، وكانت تدمر مركز التجارة الأول. ذلك أن أهمية البتراء بدأت تنحدر تدريجياً قبل الكارثة؛ فزالت خصوصيتها القومية وطويت تقاليدها القديمة، وتحولت تجارتها إلى قنوات أخرى، وأخذت تغرق في الظلال. ثم اختفت فجأة في النهاية. وتوقف عندئذ سك العملة الذي بدأه حارثة الثالث، ولم يعد هناك مع بداية القرن السابع حديث عن مدينة الصخر، ويمكن أن يكون خسرو الثاني الفارسي قد استولى على المدينة وعمل نهباً في كهوف الكنوز فيها.

فهل يا ترى تكون فارس قد بدأت بتدمير البتراء؟ وكيف كان هذا الدمار التام الذي نزل بالبتراء عاصمة بلاد العرب التي كانت تنعم بالرخاء؟ إنها أسئلة لا نملك إجابات عنها؛ لقد اختفت البتراء من التاريخ تماماً، كما لو أن التاريخ أسدل ستاره على المسرح. أما الممثلون – الرومان المستعمرون والأنباط الذين اتخذوا طابع الرومانية لأنفسهم – فقد اختفوا أيضاً، ولم يرفع إلا القليل من الستار قبيل قدوم الصليبيين في الأيام الأولى من القرن الثاني عشر.

الفصل السابع
القلعـة الصليبيـة

إن «قصر وادي موسى» الصغير أو صيلا selah – كما كان الصليبيون يسمون الحصن الذي بنوه على تل المسلة في البتراء– لم يكن بالعمل الضخم كما هو الحال في بعض الحصون الأخرى التي شيدوها في تلك المرحلة تقريباً. ولكن لابد أنه كان على قدر كبير من القوة لأسباب يتصل بعضها بالمادة التي نُحت منها هذا الحصن، فضلاً عن علم الهندسة الذي بلغه بناته، فشأن الهندسة أن تتطور سريعاً في أوقات الحرب، ولذلك كان بين الفرنج مهندسون عسكريون ولم يكونوا يأبون عن أخذ العلم عن الرومان والبيزنطيين الذين سبقوهم.

كان الصليبيون قد وصلوا إلى فلسطين في لحظة مواتية لهم حين كان ذلك البلد التعيس يخوض كعهده حرباً أهلية، وكان آخر الغزاة يومئذ السلاجقة الأتراك الذين أسس إمبراطوريتهم السلطان طغرل بيك، في العام 1038. وكان هؤلاء قد استولوا على الأراضي التي كانت في ملك الخلفاء في بغداد وجزءاً من إمبراطورية الإغريق القديمة، واجتاحوا سورية وأشعلوا فيها ضرباً من حرب العصابات. ولقد أصاب الصليبيون في بداية الأمر توفيقاً عظيماً، ولو أنهم لم يستولوا على البلد كله؛ بل احتلوا مناطق معزولة منه، لكنهم ضموها إلى بعضها على نهج الإغريق في توحيد الولايات بوساطة طرق عسكرية شقوها يومذاك. وقد شكلوا في البداية أربع إمارات نسبوا كل إمارة إلى البلدة التي تتميز بها، وهي: إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس.

ثم قسمت الإمارات الجديدة إلى اقطاعات، وأقاموا في تلك البقاع الكنائس والأديرة والقلاع، كما شيدوا قلاعاً ثانوية كان الغرض منها حماية خطوط الاتصال. وكان للمدن الرئيسة إقطاعاتها التي قامت على النظام الإقطاعي الذي كان له صداه الحسن في الشرق. وكان الهدوء يسود العلاقات بين المسيحيين والمسلمين حين ينتهي القتال، وقد أدى هذا الوضع إلى أن المسيحيين بعد عقد من الزمن قد بدؤوا يلبسون لباس الشرقيين وأخذوا

الكثير من عاداتهم بعد أن كانت هذه الأمور تبدو لهم في البداية غريبة.

وهكذا لم يكن سكان غرب فلسطين من يبعث على الخوف بعد ترسيخ الصليبيين لأقدامهم كما كان شأن الأتراك وعرب البادية المتململين. وقد مات غودفروا دو بويون البطل الرقيق المشاعر، الذي رفض أن يتوج ملكاً حيث عذب المسيح ومات، وتوج شقيقه بلدوين– الذي لم يكن يقيم وزناً لمثل هذه الأمور– ملكاً على مملكة القدس اللاتينية يوم عيد الميلاد عام 1100 في بيت لحم ذاتها. وكان بلدوين هذا رجلاً ذكياً شجاعاً وذا همة عالية، وآية ذلك أنه حين رأى الخطر يتهدده على الجانب الآخر من الأردن خرج بنفسه ليقيم الدفاعات عن ممتلكاته في الغرب، ويستطلع إمكانية امتلاك أراض في الشرق. ويقول غيوم دوتاير [وليم الصوري]– وهو أول مؤرخ يعتمد العلم في تاريخه، بلغته الفرنسية الجميلة التي كانت مستخدمة في القرن الثالث عشر والتي حرص الناشر على الإبقاء عليها في الطبعة الحالية من كتابه:

«Li rois desiroit mout a acroistre son roiaum et larger en cele partie» ويقصد بـ (cele partie) coele- Syria أو ما يسميه الفرنج «la Syria sobale» سورية المجوفة:

كان الصليبيون قد بلغوا فلسطين في صيف 1097، ولم يقدَّر لبلدوين الأول أن يجمع جيشاً حتى العام 1115، وقطع عندئذ البحر الميت، وأقام الأساس لقلعة الشوبك التي أسماها الجبل الملكي Mons Regalis لأن من بناها ملك.

أما الحصن الذي قام على هضبة مرتفعة تطل على منحدر حاد سحيق فكان اختياره حسناً لأنه يشرف على طريق الحج. وكان الصليبيون– فضلاً عن جباية الأموال من الحجاج والتجار– لا يتورعون عن نهب قوافل المسلمين؛ لذلك كانت أولى المهمات الآن

صورة [مقابل ص 76 في النص الانكليزي]
الدير، البتراء

السيطرة على طرق التجارة، بعدما دخل المسيحيون اللعبة بهمة أيضاً، وكانت تلك الطرق هي التي استخدمها الأتراك في تقدمهم للهجوم.

كان هناك الجبل الملكي [قلعة الشوبك] أو مونتريال Montreal وهو الاسم الشائع، ويعرف كذلك باسم حصن مونتريال «Crac de Montreal»، وهي عبارة يفترض بها أن تكون مشتقة من كراكس charax الإغريقية، وتعني «وتداً» أو «خازوقاً». وكان هذا المعنى يستخدم للقلعة العظيمة التي تحمي الطريق ما بين حمص وطرابلس، «قلعة الفرسان»، قلعة الحصن، «le Crac des Chevaliers»، فالكراكس Kerax اشتقاق آخر، ولكن الاسم الآخر «صخرة الصحراء» الذي كثيراً ما يذكر هو ما اصطلح عليه بسبب بنية الحصن الصخرية، كما أن اسم البتراء مشتق للسبب ذاته. وهذه الحصون على اختلافها يرد ذكرها في عصور مختلفة بوصفها الـ «Crac» الصخرة، الأمر الذي من شأنه إثارة الالتباس ما لم يكن الاشتقاق جلياً.

ولقد ضم بلدوين الكثير من الأراضي حول الشوبك، حيث تكثر أشجار الفاكهة والكرمة، وكانت الأسوار الثلاثة من الحصن من الاتساع حتى أن لودولف سودهايم الذي زارها ما بين 1336 و 1341 رأى من الخارج صخرة تفجرت منها ثلاثة ينابيع، وفي

الوسط كانت تُزرع الذرة بما يكفي الحامية هناك مدة عام، وفي الداخل كانت هناك عرائش الكرمة. وبينما كان القرن الرابع عشر يقترب من نهايته استُبدل بالحصن الصليبي حصن إسلامي أصغر كثيراً من الحصن الأصلي، وفي القرن الماضي (القرن التاسع عشر) هدمه إبراهيم باشا.

ولقد أوكل بلدوين إلى أحد الفرسان مهمة السيطرة على الحصن، وجعل الفرسان الآخرين تحت إمرته على أن يوفر الجنود المؤن، ثم قسمت الأرض على مذهب الإقطاع، بين المحاربين المقدمين. وفي العام 1116 نزل الملك إلى إيليم (إيلة) عند خليج العقبة حيث يبدو أنه أقام هناك قاعدة للتجارة البحرية. وقد جاء إلى هذه المنطقة الراهب ثيلمار الذي بدأ الكتيب الذي وضعه عن رحلاته بالقول: إنه رفع الصليب تكفيراً عن خطاياه، وكان ذلك في العام 1217، وراح يضرب عصا الترحال في الأرض المقدسة؛ فيقول إن جزيرة جراي– وهي في ملك الصليبيين– كانت قبل ذلك في مُلك المسلمين الذين كانوا قد جعلوا منها سجناً لآلاف المساجين من مختلف الأقوام. ولا بد أن بلدوين قد مر في ذهابه وإيابه بالبتراء، فقد كان يعتزم بناء حصن هناك ليزيد من منفعة تلك المنطقة.

إن المرء ليتوق إلى معرفة أي انطباع كانت تخلفه البتراء لدى أولئك الرجال الذين طالما شهدوا بأعينهم الغريبة الكثير من الغرائب؛ إنما لم يشاهدوا قطعاً غوراً سحيقاً كهذا يفضي إلى مدينة خربة تبدو كأنها نزلت من القمر. فماذا بقي من المدينة الرومانية؟ أتراها اختفت تحت ركام الزمن؟

سواء أكان ما بقي ليدهش القادمين الجدد قليلاً أم كثيراً، ومهما كانت الأفكار التي راودت عقولهم وهم يتقدمون صعوداً على الطريق لتفتيش المكان، بحثاً عن مكان ملائم لبناء حصن؛ فالمؤكد ما يلي: كان وصولهم من منظور التاريخ أمراً مهماً جداً، لكونه يردم الفجوة ما بين سقوط البتراء في القرن السادس واكتشاف مدينة المدافن من جديد في القرن التاسع عشر. والأكثر من ذلك أن هذه المدينة تحرض المخيلة؛ يا ترى أسار عيسو على أرض السيق المنفتح، أم أنه قطع هذا الطريق فوق دابة، أو لعل موسى قد سار وأبناء إسرائيل على خطاه وهم في التيه. ثم كم جاء الأنباط وغادروا وهم يركبون دروب الوادي

الشاقة، وسار هيرود على الدرب وهو مشغول البال بحبك المؤامرات أو الأحابيل لإحباط مؤامرات يحيكها خصومه. ولطالما جاء المعماريون اليونان والمصريون والبابليون والفرس وحشود الناس من كل لون وعرق وملة بصحبة القوافل، جيلاً بعد جيل، ومشوا في مواكب لا تنتهي على هذا الطريق. وكانت خوذات جنود الفيالق الرومانية تتلألأ تحت أشعة الشمس حين يتسرب عمود من النور عارض عبر الممر، والآن جاء الأمير البورغندي وأتباعه من بلاد عديدة، يشدهم إلى بعضهم رمز الصليب الذي كانوا يضعون رسمه على ردائهم وتروسهم.

ثمة بقايا لحصنين اثنين في البتراء؛ ولكن أحدهما- وهو الذي استخدمه الصليبيون- يقع إلى الشمال الشرقي من الخبثة. وهذا الحصن عال والأخاديد تحته تحيط به من كل الأطراف، وقد وسع أحدهما ليشكل خندقاً يجعل الاقتراب من الحصن من ناحية الشرق مستحيلاً. كذلك حُفِرت الأخاديد في الصخور على الطرف الأبعد أيضاً، فهي تكاد تصبح شاقولية ويستحيل معها الارتقاء إلى الأعلى. ويقوم الحصن فوق هضبة سويت على السفح الشرقي، وكان إلى الغرب من الخندق سور بارتفاع الصدر من قامة الرجل ما زال بعضه قائماً. وهذا السور يبدأ فوق وهدة الوعيرة، من بناء مربع الشكل ويستمر حتى طرف الخندق. ويشاهد هنا، بعد، سور دفاعي أُقيم على قمة تل بشكل مصطنع. وجدران السور هنا سميكة جداً وذات طاقات ودرجات تؤدي أحياناً إلى مستوى أدنى. وإلى الجنوب من الجدار تتراجع الهضبة، وهنالك درج محفور في الصخر يفضي إلى مصطبة أدنى، ومن جديد وإلى الأسفل يفضي الدرج إلى الخندق. والخندق الذي يمتد من الشرق إلى الغرب تقسمه أربعة أسوار متقاطعة، وهو مغلق عند حده الشرقي جدار صخري.

تبين أجزاء من السور وآثار أبراج قوية مربعة مواضع حدود الحصن الجنوبية، وهناك يقع إلى الجنوب الغربي قريباً من مدخله كنيسة صغيرة وفق الطراز القوطي، وما زال محراب الكنيسة قائماً، وتحت الكنيسة هناك صهريج ماء يصل إليه المرء عبر ممر هو سرداب، وهو قالب متصالب غير تام، وله ثقب يمكن بوساطته جر الماء إلى المصلى.

ومن المعالم البارزة في هذا الحصن البرج المحفور في الصخر، وهناك تحت هذا البرج

برج آخر مستدير وبقايا أسوار حيث كان ثمة قنطرة متحركة تعلو الخندق أمام الحصن، وترفع لتسد فتحة بابه وقت الخطر. بالإضافة إلى قنطرة متحركة أخرى يمكن إنزالها فوق المدخل عند الممر المسقوف الذي يفضي إلى السيق.

لاشك أن الصليبيين كانوا يستشرفون الأفق الفسيح بشعور ما من العجب، ولعل هؤلاء قد وقفوا عند المسلتين الغامضتين، اللتين كانتا جزءاً من الطقوس القديمة، ومن بعدهما معالم غامضة لصحراء اقتحمت المشهد، أو يحدقون في «الموقع المقدس» الغريب ومذبحه الكبير والترتيبات الخاصة بالقرابين. ولا شك أن ترك تأمل الطبيعة وهي في أروع أحوالها، والطبيعة البشرية وهي في حال من النشوة مع إراقة الدم بوصفها عبادة، من أجل الانقضاض على إحدى القوافل ونهبها؛ كان أمراً يجدد قوى الإنسان العادي.

لقد أصبح الصليبيون الآن في وضع يسمح لهم بفرض الإتاوات على كل عابر على طرق التجارة، كذلك صار هؤلاء ينخرطون بكل حماس في المشروعات التجارية. وغدت أوروبا تدرك عندئذٍ لأول مرة سحر الشرق. وكما استيقظ العلم وبُعث من جديد في إسبانية تحت تأثير المسلمين المغاربة؛ كذلك بلغت مباهج الأعمال الفنية والفاخرة أوروبا بفضل التعاون الحثيث بين الصليبيين والمسلمين.

لم تكن التجارة في أوج ازدهارها من قبل، كما هو حالها في ذاك الوقت؛ فقد افتتحت المدن الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط علاقات تجارية والمستوطنين اللاتين في فلسطين؛ وهكذا اتصل الشرق البعيد والغرب. وامتدت الامتيازات لتبلغ موانئ المتوسط ونال الصليبيون مزايا مؤكدة؛ فكان القطن والصوف يصدَّران إلى أوروبا، والكتان والحرير في حالتيهما الخام والنسيج. وصار حرير دمشق موضع إقبال شديد، واشتد الطلب على التوابل من بلاد العرب، وبدأ ظهور الجمال وهي تحمل السكر وصباغ النيلة والزعفران والتوابل والعقاقير، وما هذا إلا غيض من فيض مما يخرج من بلاد العرب وفارس، وتحمله الجمال على طرق يعود تاريخها إلى أقدم العصور، وثم تشحن هذه البضائع إلى أوروبا. وقد نشط البنادقة– وهم دائماً في المقدمة في كل ما يتصل بالتحف الفنية أو التجارة– في هذا المجال أشد النشاط، وما سوى ذلك من البضائع المفيدة إن كان كثيراً وإن قليلاً،

ووجدت مختلف أنواع السجاد والمطرزات والأعمال الفنية والكتب النادرة طريقها إلى الأسواق الأوروبية.

وكان يقام كل عام معرض عند بحيرة فيالة بالقرب من بانياس ومنابع نهر الأردن، وهناك كانت القبائل العربية تقيم مضاربها، ومعها أرتال من جمالها وما تحمله من البضائع، بعد أن تكون ربما قطعت مئات الأميال عبر الصحراء من اليمن السعيد إلى البحر الميت، أو لربما وردت هذه القوافل من شواطئ البحر الأحمر أو من سواحل الخليج العربي، متجاوزة البتراء والشوبك، وعلى طول طريق الحج على خط واحد مع البحر الميت، حتى تتجاوز ربة عمون وجراسا ودرعا المعروفة آنذاك باسم إدريا. وكان هناك– سوى التجار العرب ووكلاء الصليبيين– حشد غفير من الحجاج الذين يقصدون مكة، لأن مواقيت السوق تتماثل دائماً مع موعد الحج.

وليس من المرجح أن يكون الصليبيون بناة حصن الوعيرة بأكمله؛ بل يرجح أن يكون ثمة ضرب من التحصينات سابق لهذا الحصن. ولابد أن العمل قد استغرق سنوات عديدة حتى اكتمل على كل حال، حتى لو استطاع المعماريون استخدام بعض الأسوار من قطع الصخر، وحتى لو أعانهم على أمرهم التشكيل الطبيعي لأراض مرتفعة محاطة بالأخاديد. فضلاً عن أن ما لديهم كان مدة قصيرة نسبياً من الوقت ينبغي عليهم الإفادة فيها من موقعها الاستراتيجي وأسوارها القوية.

ولقد كان هناك في وقت ما شيء من التردد في تحديد ما إذا كان الحصن قائم حقاً في البتراء، أم أنه في الجوار منها وحسب. ولا شك بأن غيوم دي تاير كان واضحاً حول هذه النقطة؛ فقد ذكر أن قصر موسى قد استولى عليه الفرنج بقيادة بتروسي كوميتي في هجوم عام 1144، وكان يومئذ في قبضة المسلمين. وظل في إمرة الفرنج حتى السنة التي كان فيها الاستيلاء على القدس؛ أي في سنة 1189.

وبعد هذا التاريخ تلاشت البتراء، وفي العام 1265 وبعدما أصبح السلطان [الظاهر] بيبرس قائداً للكرك قدم إلى البتراء وتسلق الطريق الصعبة، ونصفها درج ونصفها الآخر ممر، وقد أعجبه عمل الصليبيين السيئي الحظ، وعندئذٍ أسدل الستار حقاً على ذلك المشهد. مدينة

مدافن انقضى تاريخها ودفن تماماً تحت الرمال الحمراء وأجمات وادي موسى، وكأنما ما مضى لم يحدث قط، والبتراء راقدة طوال السنين حتى كانت بداية القرن التاسع عشر. فقد مضت مئة عام منذ أن قدم بوركهاردت قربانه إلى هارون ذريعته لدخول المدينة المحرمة، ومنذ ذلك الحين قام أولئك القلة من الذين حملوا أنفسهم على الاهتمام بآثار قوم بادوا وأنجزوا في هذا الكثير، ولكن البتراء لن تسلم أسرارها حتى يسمح بحفريات وتنقيبات على نطاق واسع؛ فلنأمل أن يرفع النقاب في وقت قريب عن البتراء بعد هذا الزمن الطويل.

الفصل الثامن
الكـــرك

تربض في أعالي قمة جبل شاهق بين البحر الميت والصحراء أطلال قلعة عظيمة تخترق أفق السماء. وهي لا تبدو خرائب للوهلة الأولى؛ فالأسوار ما تزال قائمة، ومحاطة أحياناً بالأبراج الدفاعية، وتبين معالم السور المترامي الأطراف الموقع الذي كان ذات يوم حصناً وقلعة للصليبيين. وإذا نظر المرء من بعيد وجدها على الشكل ذاته الذي لا بد أنه كانت عليه أيام بهائها الأولى. وما زالت هذه العمارة الآن كعهدها يومذاك تهيمن على المناطق التي تمتد قرابة الثلاثين ميلاً حتى البحر الميت. بالإضافة إلى أنها تهيمن على الطريق الذي ينحدر في الاتجاه المقابل لطريق الحجاج في الصحراء، وما تزال شامخة بموقعها القوي فخورة بقوتها، ذلك الأمر الذي لا يملك أن يمنحه سوى الزمان. ووسط العزلة الجبلية هذه تبدو القلعة حية بما في المباني القديمة من حياة غريبة تتجاوز الوجود الزائل لأجيال من الرجال.

نحن الآن في قلب مؤاب، وسط ذلك الوتد من الصخر الذي ينتصب مهيمناً فوق البحر الميت، مشكلاً عائقاً عظيماً وخطاً طويلاً مستوياً هو أحد أجمل المشاهد التي يمكن رؤيتها من القدس، حين تحيل الشمس الغاربة الصخرة الجرداء إلى سديم كالحجر الكريم. وإذا قدمت من البتراء حيث المشهد أشد تطرفاً كان أثر عزلتها أقل، ولكن لا ريب بأنه بدائي ومهيب. والمشهد كله على وجه الإطلاق مختلف؛ فهو أشبه بشيء على كوكب آخر، وألوانه مختلفة كل الاختلاف، وإن كان يمكن للمرء أن يقع– على مرحلة ليست بالبعيدة كثيراً، أي في ممر أرنون– على هذا الصخر الأحمر ذاته.

لقد ذهب لون البتراء الوردي والأحمر الملتهب، وذهب معهما الشعور بعالم ميت؛ فداخل هاتيك الأسوار لا يخلو من الحياة إذ لا تزال تقف بلدة الكرك الحديثة، والدرب المتلوي الذي ينحدر من كتف تل يغوص إلى واد يعترضه سرير نهر في زوايا قائمة قبل أن ينحدر إلى تلك البلدة. وهناك رجل يتبع اثنين من الجمال، وثمة فتيان صغار يرعون قطيعاً

من الماعز ذي اللون الأسود؛ ونصادف على جانب الدرب– عند القوس الذي يقود إلى ممر مقنطر كان ذات يوم المدخل الوحيد إلى القلعة– بعض النساء العربيات. والمنطقة ذات أخاديد ووهاد ملتوية المسار تتخلل جبالها المتجهمة، ووديان خضراء وإشارات إلى أرض ذات فلاحة وزرع. والدرب الذي يعترض الفج بجسر من الحجر طريق جيد، ويخلص المرء بانطباع– حتى قبل أن يدخل الكرك– بأن الرخاء سائد في المنطقة.

كان أول ما سمعنا بالكرك من مختلف المراجع يتصل بما يرد عن قبر مؤاب في العهد القديم؛ فنعلم من هذا المصدر أن ميشا [ميشاع] ملك مؤاب كان يدفع إتاوة إلى ملك إسرائيل هي: «مئة ألف من الحملان ومئة ألف من الكبوش الضأن مع الصوف». وبعد موت أحاب ثار وأفلح في أن يجعل إسرائيل في خدمة مؤاب مدة ثمانية عشر عاماً. وكل المآثر التي أتت لميشاع بالنصر محفورة على حجر مؤاب الشهير الذي اكتشف في ديبون في القرن (التاسع عشر) الماضي، وقد أسقط الهزائم التي مُنيَ بها.

ولو أخذنا بالروايات التي أوردها الكتاب المقدس فإن ملكي إسرائيل ويهوذا كادا أن يموتا من شدة العطش، ثم بعدما ارتويا من الماء الذي قدمه لهما إليشا [اليشاع] ألحقا ضربة موجعة بميشاع، ودمرا مؤاب وقضيا على أهلها، وكان معروفاً عن ميشا أنه كان واثقاً كذلك من أن ربه كموش سيوجه خطواته في المعركة ويمكنه من النصر؛ شأنه في ذلك شأن الإسرائيليين المؤمنين بأن الله سوف يهبهم النصر، وهذا ما جعله ينذر ابنه ليضحي به لربه حين ظهر أن الأحوال تسوء. وقد دمر الإسرائيليون مدن مؤاب ولم يبقوا إلا حجراً واحداً في قبر حراست [قبر حارس]، وهو اسم آخر لـ «قبر مؤاب»، وفيه ما يوحي بصلة ما باسم الملوك الأنباط الذين كانوا سلالة الحارث.

صورة [مقابل ص 86 في النص الانكليزي]
على مشارف الكرك

ولا شك أن أشعيا أخذ بعد الهزيمة يغني «وقر مؤاب. ليلة قهرت مدينة مؤاب دمرت، وليلة قهر حصن مؤاب دمر، قد صعدوا إلى معبدهم وديبون إلى المشارف للبكاء. مؤاب يولولون على نبو وميدابا. في كل رأس قرع وكل لحية مقصوصة. تحزموا بالمسوح في شوارعهم. كل يُولول على السطوح والساحات ويفيض بالبكاء». [نبوءة أشعيا، الفصل الخامس عشر، العهد القديم].

ويقول النبي إرميا إن الذل قد حق على مؤاب وكموش ويجب استئصال شأفتهم، ذلك أن هذه الحرب التي تشن عليهم لا يقصد بها إخضاع عدو متعجرف استعاد أرضاً كانت إسرائيل قد انتزعتها منه، وإنما هي حرب دين عازم على القضاء على الوثنية وآلهتها الزائفة.

ولا بد أن مؤاب كانت دائماً محصنة منيعة إلى حد ما مهما يكن من أمر سادة النجد الصخري هذا الذي تقف فوقه شامخة. وأما المؤابيون فقد اختفوا من المشهد في القرن الثاني قبل الميلاد، ولربما غدوا من سكان الكهوف بعد النصيحة التي قدمها النبي إرميا مستهزئاً: «اتركوا المدن وأقيموا بين الصخور يا سكان مؤاب، وكونوا كالحمامة التي تعشش في أطراف فم الهوة». [نبوءة إرميا 48: 28 العهد القديم]

لكن ما يهمنا هنا ليس تلك الشذرات من تاريخ مؤاب؛ بل تاريخ الصليبيين الأقرب عهداً والضبابي، وهم بناة الحصن والقلعة، حيث قام الأول وارتفع على أسس كائنة أصلاً.

وقد مات الملك بلدوين الأول في العام 1118؛ أي بعد سنتين من بنائه الحصن في البتراء،

ثم خلفه ابن عمه بلدوين الثاني الذي اتسم عهده بالأعمال الضخمة، وتدعيم النظام الإقطاعي الذي رسخ جذوره في الشرق بيسر شديد. وقد تزوجت ابنته ميليساند من فولك كونت أنجو، الذي كان يومئذٍ في الستين من عمره، واختير ملكاً خليفة لبلدوين الذي امتد حكمه من العام 1131 حتى 1144، ومات من دون أن يخلف ولياً للعهد، ويعد عهده فترة باهرة في تاريخ مملكة القدس اللاتينية. أما القلاع الكبرى على الساحل في شمال وغرب فلسطين فقد قامت على نقاط إستراتيجية، إذ كانت توفر الحماية لبعضها بعضاً، وتتصل فيما بينها بطرق عسكرية، ولزيادة الحماية لغرب فلسطين عن طريق مونتريال والبتراء وقلعة أهمون، كما تقرر تعزيز الموقع القوي أصلاً والمعروف باسم صخرة الصحراء، وإن كان الاسم (La Pierre du Desert) أكثر إلفة عند الفرنجة.

تأسست قلعة الكرك في وقت متأخر من عهد فولك؛ أي ربما في العام 1140، على يد نبيل كبير من نابولي كان حامل كأس الملك بلدوين الثاني. ويسميه غيوم دوتاير «باين لو بوتييه»، وكان يوقع بهذا الاسم مختلف الوثائق؛ مثل شهادة بلدوين الثاني بصفته صاحب مونتريال، وشهد قانون غيوم دى بوري بصفته صاحب طبرية في عام 1132، كما كان يوقع باسمه «باين»؛ ولكنه وقع في العام 1136 قانون الملك فولك باسم بنسيرنا، ولعله اسم العائلة، نظراً لأن الطابع الإيطالي يغلب عليه هنا أكثر من باين، ويرجح أن يكون هذا تحريفاً إفرنجياً.

منح باين لوبوتييه إمارة الكرك؛ فبنى القلعة العظيمة فيها، ولعله أفاد من التحصينات التي كانت من قبل، ثم شيد بعدئذٍ تحصينات أخرى على أسس رومانية، وكان الرومان يسمون الكرك أماتروم لقربها من العمونيين أكثر من انتمائها إلى المؤابيين، أما اليونانيون فأسموها تشاراغموبا، أي الوتد، أو خازوق مؤاب. أما ما عرفت به عند الأنباط فلا تذكر الوثائق إلا إذا كان حير حارسيت، غير أن المعروف أنها كانت إحدى حصونهم أيام كانوا في ذروة سلطانهم، وربما كانت مدينتهم الرئيسة قبل استيلائهم على البتراء.

كان للكرك في الأصل مدخلان؛ هما ممران مقنطران محفوران في الصخر، أما القوس الذي ينتصب عند فتحة النفق الذي يفضي إلى الطريق العالي الحالي ثم إلى برج بيبرس فمن

أشغال الرومان، والممر ضيق ولا يسمح إلا بمرور بضعة رجال جنباً إلى جنب، ويمكن إغلاقه تماماً عند الحصار.

تنتصب الكرك على هضبة صخرية ترتفع ثلاثة آلاف ومئة وخمسة عشر قدماً فوق سطح البحر، ويفصلها عن التلال المجاورة وهاد ضيقة، بينها واد يصل بين حديه جسر وادي عين الست. وهناك في محيط الوديان حقول تزرع بالذرة، وأراض للرعي تتصل بسفوح بعض التلال المنخفضة. ولئن كانت طبيعة تلك الناحية برية ونائية؛ فإن هناك مناطق خصبة أيضاً.

يتجه الدرب نحو تلة جاسئة تفضي إلى بلدة الكرك الحديثة، وأبرز العمائر فيها بناء واسع كبير، يقف منفرداً، وأحسب أنه كان مدرسة، وبعض البيوت من الحجر الصلد، منها مقرا محافظ الكرك والشيخ ومنزلاهما. وأبعد من هذه الأبنية هناك أطلال القلعة، وأول انطباع يتولد لدى المرء أن البناء عظيم الحجم؛ والثاني سحر اللون واتساع المشهد. والأحجار الكلسية التي تشكل الأسوار لها لون القشدة الصفراء الدافئ بفعل الزمن وحرارة الشمس وأثر الأمطار والرياح؛ ومن الأسوار الخربة العديدة تتدلى النباتات المتعرشة والمتسلقة. ومن بعيد تشاهد على الشرفات المفرجة تلال اليهودية السحيقة الوردية اللون، على الطرف الأبعد لحوض تتلألأ مياهه ذات اللون الفيروزي هو البحر الميت. وإن هذا المشهد اللذيذ النائي والسماء الشديدة الزرقة والرمال الدافئة والصخر الذي تزيده الشمس بهاء، هذا كله ما يعبر عنه الرسم الذي لن تزيده الكلمات إضافة. ولقد رأينا عند النظر من مواقع ممتازة أخرى مشاهد رائعة للجبل والوادي وسرير النهر وهو ينفتح ويتسع، وكان هذا الإحساس الطاغي ذاته يغلب على مشهد أرض مترامية ومعالم قمم جبل خلابة.

إن أطلال القلعة الإقطاعية القديمة وتوابعها لتثير في النفس العجب حقاً لضخامتها، ومستودعات الغذاء والممرات المسقوفة ذات الفجوات التي تصوب منها الأسلحة إلى العدو حين يقترب، والأبراج والجدران التي تصل بينها؛ لتشهد جميعها على العناية التي أولاها بناة القلعة الهامة الحصينة لبنائها وتدعيمها. فليس بالأمر السهل إطعام حامية كبيرة، وحشد تام من المدنيين طوال سنتين من الزمن، كما كان الحال في أشد حصار

عانت منه الكرك وآخره، ويسهل وصف إدارة هذه المستودعات خاصة حين يتذكر المرء الأحوال القاسية التي لابد من مواجهتها في زمن الحرب المستمرة؛ إذ إن الكرك كانت في وضع المهيمن على طرق القوافل التي يتلهف المسلمون للسيطرة عليها، وكم من محاولات بُذلت للاستيلاء عليها وانتزاعها من الصليبيين.

يتصف وادي الكرك بأنه واد ضيق سحيق يمضي ملتفاً متعرجاً، ثم يصب مياهه في البحر الميت، حيث تمتد الأرض إلى المياه الخضراء التي تكاد أن تكون شفافة، مما جعل هذه الأرض تعرف باسم «اللسان» الذي اكتسبته عن جدارة. وهذا أحد الوديان شبه الاستوائية الذي يتناقض إلى حد الإدهاش مع المكان المقفر تماماً لبحر الملح، وهذا الوادي شأنه شأن الواديين الأشد بهاء وشهرة وهما أرنون والزرقاء.

ومن الطبيعي أن أوسع المشاهد تغدو متاحة عند النظر من عل، وأفضل مكان لهذا الطابق الأعلى مما بقي من مستودعات، حيث كانت تخزن المواد وأعتدة الحرب. وهناك يصادف المرء سلالم مخربة تفضي إلى ممر يمتد ما بين السور وفرجاته، والسياج الأخضر الذي كان ذات يوم جزءاً من داخل القلعة. ويصادف المرء عند زاوية هذا البناء سلماً لبرج صغير ترتقيه فتجد نفسك على هضبة، وتتكشف أمامك عندئذ مناظر فسيحة أينما توجهت. الجبال والوديان والمراعي والصخور العارية من كل حلية، وحدود الصحراء البعيدة؛ وهذه جميعها لها سحرها المميز، ولكن تلك اللمحة إلى البحر الميت بمياهه الخضراء وقد تحولت إلى أنقى زرقة بانعكاس السماء على صفحتها؛ لهي الأروع بين تلك المشاهد كلها. كما أن تلال اليهودية الجرداء– التي صارت وردية اللون في ضوء العصر والمدى

صورة [مقابل ص 90 في النص الانكليزي]

الطويل الذي يبلغ أريحا ووادي الأردن- كل ذلك يرسم صورة خاصة بالبلد، صورة تظل في الذاكرة لا تبارحها.

وليس هذا بالمكان الصالح ليجلس المرء ويعجب بالمشهد الذي أمامه وحسب؛ بل إنه مشهد يوفر للمرء فكرة طيبة عن الحصن والقلعة كما كان حالهما أيام الصليبيين أيضاً.

تنتصب الكرك كما رأينا فوق تل مرتفع سحيق الهاوية، ومن هذا الموقع يسهل على المرء أن يرى مدى عزلته عن التلال الأخرى المحيطة، وبعضها يبلغ من الارتفاع ما يجعله على مستوى التل الذي تقوم عليه القلعة. وتفصل الوديان السحيقة تل القلعة عن سواه من التلال، فيما على طرفه الجنوبي نجد خندقاً مصطنعاً، وهناك خندق آخر إلى الشمال؛ إنما لا يُشاهد من هذه النقطة. أما القلعة فتقوم في أقصى الجنوب على لسان من الأرض، ولئن كانت القلعة ذات مساحة مترامية مع كل توابعها؛ فإنها لا تحتل إلا رقعة صغيرة نسبياً من إجمالي المساحة المسوّرة.

ولنحصل على أي فكرة عن الحياة التي كان يعيشها باين لوبوتييه صاحب الكرك، ثم صاحب إقطاعية شرق الأردن التي تمتد من خليج العقبة حتى الزرقاء؛ علينا أن نتذكر ذلك الأثر الكبير الذي كان لحصن الكرك يومذاك على الرغم من صغر حجمه؛ فقد كان للسيد الذي يحكم الحصن- وهو منصب رسمي أحياناً- جناحه الخاص وخدمه وحشمه ومساعدوه وأطباؤه، وكان من ملاحق هذه المكانة أن يتمتع صاحب الحصن بقيادة مجموعة من الفرسان يختارون من بين حشد من الرجال الذين استمروا بالتدفق على الأرض المقدسة، وهم متلهفون لحمل الصليب أو لجني الثروات. لصاحب القلعة الحق في أن يكون لديه مهندس كبير، ولعله سوري، وحشد من العمال بإمرته، مهندس

بارع حصيف ذو حيلة ومن أهل المنطقة، ولا يعنيه أمر مستخدمه سواء كان من المسلمين أم من المسيحيين، فضلاً عن الحدادين، وصناع العربات وسوى ذلك من أصحاب الحرف والصناعات. وأما الجند فكانوا من مختلف الجنسيات، وإن كان جلهم من الفرنجة، وعدد منهم من السوريين الذين صاروا يخالطونهم مع مرور الوقت.

ولقد كانت البلدة تضم الشخصيات، أو بالأحرى الطرف الأعلى منها، وفيها دكاكين صغيرة مثل تلك التي يصادفها المرء في الأسواق العربية الحديثة، ثم يمكن أن يضيف المرء إلى ذلك طبقة التجار وأصحاب الحوانيت الصغيرة. ومن المعتاد أن يقصد الزوار هذه الحصون أو حتى تلك البعيدة، ومن المعتاد أن يطلب أحد الأمراء المسلمين؛ إذ لم يكن من غرائب الأمر أن تنشأ صداقة بين مقدَمي الطرفين، استضافته أحياناً أو أن يطرق الباب تاجر أو جماعة من الحجاج، ويلوح أن السيدات اللواتي قدمن مع الصليبيين قد أخذن بارتداء الأزياء الشرقية، وأصبحن يقبلن عليها إقبالاً شديداً؛ فيوصفن بأنهن يرتدين الملابس ذات الأطراف الطويلة، ويكثرن من استعمال الألوان والمساحيق، ويتخذن الخمار على وجوههن كلما خرجن من خدورهن. وكان الرجال من الطبقة الوسطى الذين يتزوجون بالسوريات يغلقون الأبواب على نسائهم اللواتي يقسرن على ألا يخرجن من الدار من دون نقاب يستر وجوههن. وكان يقوم على خدمة السيدات رقيق من الأرمن والسوريين، أو أي أسير حرب، أو أولئك النوبيون ذوي البشرة السوداء الداكنة، وهم مقصد كل طالب والأغلى ثمناً في سوق النخاسة.

وكان سكان البلاد جميعهم ينقسمون وفق الطبقات المعروفة، ولهم طرائفهم المألوفة في أوقات السلم. وتستخدم القاعة الكبرى محكمة، ويتولى عقد جلساتها سيد القلعة، كما كانت تُستَخدم مسرحاً يعرض فيه أصحاب ألعاب الخفة والرشاقة فنونهم، شأنهم في ذلك شأن المغنين والراقصين والموسيقيين الذين يمتعون مجتمع ذلك المكان. وقد يحدث أحياناً أن تصدر عن الأبراج والمرح في أشده إشارات تنذر بأن «حذار.. المسلمون قادمون!» وعندئذ تتوقف الألعاب والمهرجانات، وتأوي النساء إلى خدورهن في الأبراج، بينما يهرع الرجال للدفاع عن الحصن. وكانت هذه الإشارات التي يرسلها القوم بالنار من

أحد الأبراج وسيلة يكثر الصليبيون من استخدامها، ويقال إنهم كانوا يتراسلون بها حتى مع جموعهم في القدس، وكان هذا شأنهم في كثير من ضروب الحصار الذي لطالما تعرضوا له.

ومن الأعلى تظهر قلعة جبل الزيتون [في القدس]، وبرج دار الحكومة تبدو صورته في عرض السماء، ومن اليسير أن يتبين المرء البرج المسمى برج داود الذي بناه هيرود ليزين قصره ويدعمه، وبالإمكان إشعال نار على قمته التي يمكن رؤيتها في الكرك. وكما أمكن رؤية النار في أعلى أبراج الكرك من القدس كذلك كان يمكن مشاهدة القلعة من أي مرتفع، إذا كان الجو صحواً. وجدير بالذكر أن الصليبيين كانوا لا يجهلون الشموع الرومانية، كما كان الحمام الزاجل يستخدم في كثير من الأحيان في أعمال مراسلي البريد.

ولم يكن هناك الكثير من الوقت في معظم الأحيان بين المناوشات الحربية والحصار؛ بل كانت القلعة دوماً عرضة للهجمات حتى حين كان السلام قائماً في الغرب والشمال، وما زالت قبلة الطامعين طويلاً بعد طرد الصليبيين من الأرض التي احتلوها.

الفصل التاسع
القلعـة الإقطاعيـة

تثير خرائب الكرك الاهتمام من عدة نواح؛ ليس أقلها أهمية النظرة المعمقة في نهج الفرنجة في أخذهم بأفكار مهندسي العمارة المسلمين، فيما يحرصون على الإبقاء على الجوانب الرئيسة في منظومتهم الدفاعية. وقد تناول عدة كتاب هذا الموضوع، ومن أشدهم عناية به إم. اي. راي M.E.Rey الذي يوفر لنا كتابه Etude sur le Monument de l'architecure militire de Croises en Syrie» العديد من التفاصيل المثيرة للاهتمام.

حين شرع الفرنجة ببناء السلسلة الممتازة من الحصون التي تقع على نقاط إستراتيجية على خطوط الاتصال؛ أخذوا الكثير من ملامح التصميمات البيزنطية التي تضمنت شيئاً مأخوذاً من الرومان، مثل المتاريس المرتفعة والاستحكامات والشرفات، وأخذوا عن الإغريق أسلوب خطوط الدفاع المزدوجة المتراكبة، إذ إن الخط الأول أدنى من المتاريس ليتيح للآلات أن تأخذ مداها في العمل. أما الأسوار الخارجية فكثيراً ما تبلغ سماكتها ثلاثين قدماً عند القاعدة، حتى تبلغ طولاً معيناً بقصد توفير الحماية من هجمات العدو والاحتياط من خطر الهزات الأرضية. وهناك في أعلى هذا السور الضخم ممر مفرغ يقلل من الوزن، ويشكل الشرفة المفرجة التي تطلق النار منها، وتمنح السور تاجاً مزدوجاً.

كانت الأبراج في الهندسة الحربية البيزنطية صغيرة نسبياً، ومتقاربة من بعضها بقدر ما تسمح طبيعة الأرض، ولكن كان هناك برج كبير، يتخذه رئيس الحرس مركزاً له. وهذه الأبراج على العموم مستديرة، وفي أعلاها شرف مفرجة للدفاع. وكانت الأبراج التي على «المتاريس» توضع على مسافة من تلك القائمة على الأسوار الضخمة، وذلك في كثير من الأحيان لتدعيم المواقع الضعيفة، وهي أصل الباستيل الذي ظهر بعد بضعة قرون في أوروبا.

وكان القصد من تلك القلاع إحكام السيطرة على المناطق التي حولها، وقطع خطوط اتصال العدو وتقسيم قواته وتوفير الدفاع للمناطق المحيطة. وقد اختيرت تلك المواقع كما

في حالة الكرك والشوبك وكذلك البتراء إلى حد بعيد؛ لأن هذه الحصون كانت تتحكم بطرق القوافل الرئيسة.

ولقد اختلفت القلاع التي أقامها فرسان المعبد– في بعض النواحي– عن تلك القلاع التي أقامها الصليبيون؛ وآية ذلك أن هذه القلاع أقرب من سواها إلى القلاع العربية في تلك الأيام. وتصادف نماذج ممتازة من فن الاستبالية في القلعة الهائلة المعروفة بقلعة الحصن، أو بالتسمية الإفرنجية كراك دوشوفالييه، التي تشرف على الوادي الممتد بين حمص وحماة حتى طرابلس.

كانت قلاع فرسان المعبد قد بُنيت– شأنها في ذلك شأن تلك القلاع التي بناها المسلمون– على قمة منحدر سحيق، وتؤدي وظيفة دفاعية، وما كانت بحاجة إلى أسوار ضخمة. فكان يحيط بها خنادق محفورة بجهد شديد في الصخر ثم تملأ بالماء، وكانت حجارتها أبداً مكسية. والأبراج مربعة الشكل أحياناً، ولا تبرز كثيراً من الأسوار.

وهناك مجموعة ثالثة من القلاع، والكرك مثال مهم عليها، وتتألف من القلعة الإقطاعية التي يملكها رجل يتخذ لقب سيد القلعة. ونجد هنا مرة أخرى اختلافات معينة ولو أن المعالم العامة تبقى كما هي. وجدير بالذكر أن الكرك لم تكن في مُلك أي من التنظيمين الكبيرين، وظلت تحافظ على طابع القلعة المملوكة من نبيل عظيم حتى النهاية.

تحتل مدينة الكرك أعلى تل معزول عن محيطه من ثلاث جهات بوديان سحيقة، وهذه تتصل من ناحيتين بهذه القمم الأخرى بتلال صخرية. وهناك القلعة التي تنتصب على واحدة من هذه القمم في أقصى جنوب المنطقة المسورة، وهي محمية بخندق محفور من عمل

صورة [مقابل ص 98 في النص الانكليزي]
قلعة الكرك، إطلالة على البحر الميت

الإنسان، حيث خزان المياه الكبير الذي يتغذى من نبع ما زال يعرف باسم «عين الفرنجي». وعلى التل الصخري الآخر- ناحية الشمال الغربي- يقوم البرج المعروف باسم السلطان بيبرس، والبناء الكبير هناك محمي بخندق أيضاً.

كان المراد من القلاع الإقطاعية مثل الكرك أن تستوعب جمعاً عظيماً من البشر، على نحو ما رأينا، وتقوم بأودهم مدة غير محدودة من الزمن، ولذلك كانت ذات اتساع وضخامة. وكان من أولى ضرورات الحياة في وقت مثل هذا توافر احتياطي مناسب من الماء، ولذلك وجدنا أن الصليبيين قد جعلوا هناك أربعة خزانات احتياطية، وما استطاعوا من الصهاريج لهذا الغرض.

تبين خريطة الكرك في كتاب إم. راي الذي سبقت الإشارة إليه الشكل الغريب الذي تتسم به الأرض التي تحيط بها التحصينات؛ فهي أشبه برجل خروف والقلعة بمنزلة العظم منها. وفي هذه المساحة كانت البلدة وملحقات القلعة والأبراج المدعمة في خط الدفاع الداخلي، ويقع البرج الرئيس في الجنوب من القلعة التي تنتهي هنا ببناء كبير واسع يشكل حصناً.

تولد أطلال هذا الحصن لدى المرء انطباعاً بأنه بناء قوي جبار، أما الأبراج فمتصلة ببعضها بحائط. وإلى أسفل التل المائل إلى الجنوب والشرق تبين كتل الحجارة أماكن الأسوار القديمة. وتتكرر القصة ذاتها أينما أجلت النظر.

ولابد لمن يود دخول القلعة من المرور ببوابتين، ولكل منهما باب منزلق، ولا يصل المرء إلى الساحة إلا بعد المرور بما يسميه م.راي «دفاعات معقدة»، وتقع الساحة على مستوى أدنى من الغرف الرئيسة، التي تقع كلها في القسم الأعلى من البناء.

يتسم داخل القلعة بأنه في حالة من الخراب الشديد؛ حتى ليشق على المرء أن يتبين شيئاً سوى القليل جداً من التصميم الأساسي، ولكن هناك مستودعات كبيرة تقع تحت الأبنية

التي كانت ترتفع أربعة أو خمسة طوابق. وهناك صهاريج وممرات طويلة تحت أروقة مقنطرة ذات فتحات يمكن النظر منها إلى العالم الخارجي. وفي وسط الساحة ثمة كنيسة صغيرة على الطراز القوطي، ومبنية وفق الخطوط التي تحكم بناء قلعة الحصن والمرقت وصفد. وينتهي رواق الكنيسة بمحراب شبه مستدير تضيئه أربع نوافذ، ويخفي الجدار بثخانته سلماً يفضي إلى سقف الكنيسة. وما زالت الجدران هناك تحمل بعض آثار لوحات جدارية.

ولقد غدا إقطاع شرق الأردن أحد أهم الإقطاعيات في المملكة اللاتينية؛ فالمنطقة امتدت إلى ما وراء نهر الزرقاء إلى البحر الأحمر، بما في ذلك مناطق المؤابيين والأدوميين، وتلك القلاع التي وضعت لحماية المنطقة؛ بل لقد اتسعت رقعتها بضم المنطقة الواقعة غرب البحر الميت. ولما مات باين خلفه ابن أخيه موريس، ومات الملك فولك، وخلفه بلدوين الثالث الذي ضمت في أيامه الخليل إلى ممتلكات صاحب الكرك، مما جعله السيد على جانبي البحر الميت، وكان لديه قاعدة بحرية في إيله على خليج العقبة، ثم أضاف إلى ممتلكاته صحاري شبه جزيرة سيناء الشاسعة.

ولقد أتت تلك الممتلكات المترامية الأطراف للكرك بغنى عظيم؛ بسبب تمتع السيد (صاحب القلعة) بحق فرض ضريبة على التجار الذين يمرون في الدروب التي تقع في المنطقة التي يملكها، وعلى كل سفينة تبحر في البحر الميت؛ فقد كانت تلك المنطقة مقر كرسي البطريرك فضلاً عن أنها كبرى المدن في الإقليم كله. ومن الجلي أن السادة في الشوبك يؤثرون حياة الحركة في الكرك على الحياة المقيدة في ذلك المعسكر المتقدم المنفرد من الحضارة؛ لأنهم اتخذوا مقرهم هناك تاركين أمر العناية بالقلعة إلى من يولونهم القيادة عنهم.

ولا يصعب على المرء إدراك أن هؤلاء السادة– الذين توافرت لهم ممتلكات مترامية، ومنصب على هذا القدر من الأهمية، وكثير منهم لم يعتد ذلك من قبل– غدوا أشبه بصغار الملوك، يشنون الحروب أو يعلنون السلام متى شاؤوا، من دون إذن من ملك القدس الذي كان رأس تلك الطوائف المبعثرة هنا وهناك شكلياً. وكانت الجماعات الكبرى من فرسان

المعبد والقديس يوحنا في القدس قد ضربوا مثالاً سيئاً؛ فقد كانت تستبد بهم الغيرة من بعضهم بعضاً، وكان سبب طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة يرد إلى تمرد بعض الأحزاب هناك؛ فلو أنهم كانوا أكثر اتحاداً وتوفر لهم الدعم المناسب من البلدان التي خرجوا منها للقتال من أجل الصليب لاختلف تاريخ فلسطين أشد الاختلاف.

يخبرنا المؤرخون في العصور الحديثة أن التقسيم المتعسف الذي اعتمد في تعيين مختلف الحملات التي خرجت لدعم الصليبيين إلى حملات عديدة كثيرة لم يكن صائباً من الناحية التاريخية؛ فإن الرجال والسلاح ما انفكوا يتقاطرون عدة وعتاداً طوال الوقت، إلا أن الروح المعنوية والعبقرية القتالية اللتين عُرف بهما الصليبيون الأوائل أخذتا تخبوان، ثم خمد الحماس المعهود فيهم. كذلك ضعفت روحهم المعنوية بسبب تزاوجهم مع أهل سورية، ويبدو أنه كان للباس الشرقي والعادات الشرقية– وهما أمران يلائمان المناخ أكثر من لباس وعادات القادمين الجدد– تأثير موهن في الفرنجة؛ ففي العام 1127 ظهرت في الأفق غمامة، وقلعة الكرك قد اكتمل بناؤها يومئذٍ وصارت تشمخ فوق الجبال حتى البحر الميت، وإذ بالسماء تكفهر منذ ذلك الحين.

في ذلك العام 1127 صعد نجم رجل فذ هو الأتابك عماد الدين زنكي صاحب الموصل، وكان عماد الدين أول المسلمين الذين نهضوا لصد الفرنجة. وقد كان على ابنه نور الدين محمود الذي فاق أباه شهرة أن يتابع فتوحات هذا الأب، ويتفوق على ما أنجزه، وكان على القائد الكردي صلاح الدين يوسف من بعده أن يخرج الصليبيين من سورية.

وكان ضياع الرها أول ضربة كبرى تنزل بالصليبيين، ولئن كان (الفرنجة) قد استعادوا هذه المدينة بعد ذلك مدة؛ إلا أن المسلمين استعادوها من جديد في العام 1146 بصورة نهائية. وكان ذلك نصراً عظيماً، وأفاد منه عدو [الصليبيين] فائدة حقيقية في عملياته. وبعد ذلك لم تعد الجيوش في سورية منقسمة عن تلك القوات المتوضعة في الشرق، وبذلك تفككت أعظم إقطاعية صليبية.

في العام 1164 أرسل صلاح الدين وعمه إلى مصر، وكان العم قائداً بارزاً، ولكنه كان حينئذٍ عازفاً أشد العزوف عن التوجه إلى مصر؛ لأنه لم يكن راغباً في ذلك الحين بتسطير

المآثر والبطولات. ولئن كان صلاح الدين يومئذٍ متواضع المكانة؛ فإنه سرعان ما برهن على موهبته في فن الحرب والدبلوماسية، فكانت مكافأته أن صار حاكم مصر بعد وفاة السلطان الفاطمي الضعيف. وفي ذلك الوقت كشفت غيرته من نور الدين عن نفسها؛ إذ على الرغم من العطف والحدب اللذين أغدقتهما الأسرة الزنكية عليه ظل يخشى طوال الوقت أن يقف نور الدين في وجه طموحه، كما لم يكن يقبل أن يشاركه آخر شيئاً من أمجاده، وبعد موت الأمير في العام 1173 صعد نجمه ليصبح اسماً وفعلاً سلطان سورية ومصر.

عاد صلاح الدين من مصر عازماً على تدمير حصون الفرنجة المنعزلة، فالقضية لم تكن قضية دين وحسب؛ بل كان من الأهمية بمكان أن تغدو الطرق العسكرية التي تصل الأجزاء البعيدة من الإمبراطورية الإسلامية حرة من وطأة الأجنبي. وفضلاً عن ذلك كان لا بد من النظر في السؤال القديم المتصل بالتجارة؛ فقد كان الفرنجة يملكون يومذاك العديد من تلك الطرق، وبعضها أنشأه الرومان، وجميعها معبدة بألواح عظيمة من الحجارة، وأعمدة مستقيمة تعين حدود تلك الأراضي. وكان ثمة أبراج قائمة تتخلل المنطقة وتفصل الواحد عن الآخر مسافة محددة، وفيها يجري تحصيل الأموال المترتبة على التجار وسواهم، وينبغي عدم الاستخفاف بالأموال المحَصَّلة من مكتب الجباية هذا القائم على جانب الطريق. وكانت الطرق في شرق الأردن مريحة ولا سيما وأنها تتفرع في اتجاهات عديدة، ومن الطرق ثمة طريق يصل مثلاً ما بين البتراء والخليل، ويستغرق على ظهر الجمل أربعة أيام. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى فتح جانبي البحر الميت للقوافل لو قدر أن يُطاح بالفرنجة من مواقعهم الرئيسة.

وقد ظلت سورية تحتفظ بموقعها بوصفها مركزاً للتجارة، على الرغم من الحرب الدائرة هناك؛ فإلى جانب تأديتها دور الوسيط بين نصف أمم الأرض، إذ كانت تنقل السلع من طرف إلى آخر؛ كان لديها العديد من الأشياء الجميلة للتجارة، وهي إما مواد من منتجات الزراعة أو مواد تصنع في ذلك البلد. وذات يوم قال النبي ايليا– ذلك الشاعر الملهم الذي كانت كلماته أشبه بالجواهر– يندب أمجاد صور التي زالت:

كانت سورية السوق الذي يقصده التجار فهي حافلة بالسلع والأدوات؛ وأسواقها تعج بالحلي المرصعة بالزمرد، والأرجوان، والمطرزات، والقماش الفاخر، والمرجان، والعقيق».

ويعود فيقول: «إن بلاد العرب وجميع أمراء قيدار مشغولون بتجارة الغنم والماعز».

«وكان تجار سبأ ورامة يشغلون الأسواق بأطيب أنواع التوابل والذهب والأحجار الكريمة».

وكان هناك– فضلاً عن التجار وقوافلهم– الحجاج الذين يقصدون مكة والمدينة، ولا ريب أن المسلمين كانوا يضيقون أشد الضيق وهم يرون الشوبك تعترض طريقهم إلى الحج، وتفرض على الحجاج جزية، بل تهددهم أحياناً بالنزول والانقضاض عليهم.

وقد بلغنا أن رينو (ريجينالد) دي شاتيون [ويسميه العرب أرطان] الذي كان رجلاً متهوراً، وشديد النزوع إلى اتباع أهوائه من دون أن يتدبر بفكره أين تؤدي نوازعه قد قدم من أوروبا سنة 1147 بصحبة الملك لويس السابع، فتزوج بالأميرة القائمة على عرش أنطاكية، ووقع في الأسر في حلب مدة خمس عشرة سنة. ولما أُطلق سراحه عاد إلى أنطاكية فوجد هناك ابن زوجته الأمير الحاكم. وبعد وفاة زوجته تزوج من جديد بأرملة وارثة أيضاً، وكانت زوجته هذه المرة أرملة همفري صاحب تورون في الجليل الأعلى، كما كان صاحب مونتريال [الشوبك] والكرك؛ فصار بذلك صاحب إقطاعية شرق الأردن– واتخذ الكرك مقراً له. وعلى الرغم من أنه كان يتحلى بخصال معينة فقد كان قدومه إلى الأراضي المقدسة وبالاً لم يقتصر على الكرك وحدها وإنما أصاب الصليبيين أيضاً.

الفصل العاشر
الكـرك تحت الحصـار

لقد عانت القلعة الحصار مرات ومرات قبل استسلامها نهائياً، وكانت أشكال الحصار تلك غير موفقة، وتكاد جميعها تتصل بالصراع الذي دار بلا انقطاع بين رينو دي شاتيون وصلاح الدين.

كان لبطل الحكاية صلاح الدين– الذي يرتبط في أذهان معظمنا بأقدم ما نتذكره من حكايات الفروسية– مثالبه كما له فضائله، والحق أنه أتى ببعض المآثر التي تدل على النبل والشهامة مثل إرساله جوادين إلى ريتشارد قلب الأسد حين رآه يقاتل راجلاً، كذلك هناك شواهد على ما ينطوي عليه من الرحمة في معاملة المساجين متى لاءمه ذلك. ولكن كان له وجه آخر فقد كان ينحو إلى القسوة وعدم الشفقة أحياناً ولكنه كان حقاً طموحاً، ويجنح إلى الغيرة من الآخرين، ومن المحتمل أن هذه الغيرة تشتد به حين يرى موضوعها يعترض طموحه، ولكن الغيرة ريح عاصفة لا خير يرجى منها، وقد أفادت منها حامية الكرك حين انسحب من حصارها في العام 1173؛ لا لسبب سوى أنه لم يكن مستعداً للقاء مولاه نور الدين.

وتفصيل ذلك أن والد صلاح الدين وعمه كانا قد قدما لأتابك الموصل ذات يوم خدمة جليلة، وحين اضطرا في يوم من الأيام للفرار لم يكن أمامهما إلا اللجوء إلى قصره، فأحسن الأتابك استقبالهما، ثم أناط بكل منهما منصباً رفيعاً؛ فكان أحدهما والياً على دمشق والآخر قائداً في جيشه. فنشأ يوسف [صلاح الدين] في هذا القصر، وكان مديناً في كل ما لديه إلى الزنكي وأسرته، ولما بلغ الخامسة والعشرين مضى إلى مصر ليخدم بإمرة عمه، وكان يقاتل هناك حين كان كل من الفرنجة والمسلمين يحاول ضم مصر إليه، فكانت الغلبة للفرنجة أول الأمر، وأكرهوا صلاح الدين على ترك الإسكندرية، ولكن الترتيب الذي توصلوا إليه لا يزيد على كونه اتفاقاً بين الطرفين على ترك مصر لحكامها الفاطميين. وكان صلاح الدين وفق ما ذهب إليه ستانلي لين بول رهينة أو ضيفاً لبضعة أيام في معسكر

الملك أماليريك، مما يوحي أنه ربما تلقى القائد المسلم الشاب رتبة الفروسية من همفري تورون. وهناك إخباريون كثيرون تناولوا هذه الرواية؛ ولكن ما من أحد منهم قدم مثل هذا التفصيل الذي نطالعه في صفحات أخبار إرنو وبرنارد الصراف.

والقصة هنا ظرفية تغلب عليها الشبهة؛ إذ تقول بأن صلاح الدين كان أسير حرب بعد الحملة على مصر وحل في مونتريال؛ فعرض عمه نائب الأتابك في دمشق الذي كان على قدر عظيم من الثراء تقديم فدية له، وما زين له أن يتبع هذا النهج كان مصادقة أمير مونتريال للمسلمين. ولقد قبل هذا الأمير وهو همفري تورون بالفدية، ثم أجاب الأسير إلى مطلبه بأن خلع عليه رتبة الفروسية قبل أن يلتحق بعمه في دمشق. ومهما تكن حقيقة الأمر فإن المؤرخين متفقون على أنه تلقى رتبة الفروسية هذه، وقد برهن في مناسبات عديدة على جدارته بحمل هذا الشرف.

ولربما تكون الأمور قد اختلفت أشد الاختلاف للفرنجة لو أنهم لم يصغوا لقسم من جماعتهم أصروا على غزو مصر، على الرغم من معاهدتهم مع الخليفة الفاطمي، وكان من شأن ذلك أن هرع المسلمون وساندوا المصريين، ثم سرعان ما أصبحوا القوة الحاكمة. ولقد خلف صلاح الدين عمه في وزارة مصر حين مات، وحل بعدئذ محل الخليفة الفاطمي سلطاناً على مصر بعد وفاة الخليفة. ولئن ظل صلاح الدين قائد الجيش في مصر ويدين بالولاء لنور الدين فإن منصبه كان الأعلى في القاهرة.

صورة [مقابل ص 108 في النص الانكليزي]

بوابة الكرك

فك الحصار عن الكرك والشوبك أيضاً لأن نور الدين كان يقترب بقواته؛ فآثر صلاح الدين عدم لقائه والانسحاب والعودة إلى مصر، بعذر واه لم يكن ليخدع أحداً، بدلاً من اللقاء بالرجل الذي كان يقف حائلاً دون تحقيق أحلامه الطموحة. ولقد بلغ نور الدين في النهاية منتهى الغضب، وبات على وشك غزو مصر ليعاقب القائد الكبير لديه؛ لكن والد صلاح الدين نصح ابنه أن يسأله الصفح ليتفادى الكارثة. وعندئذ– وفي تلك اللحظة الملائمة لصلاح الدين– مات نور الدين. أما الرواية عن عرضه ولاية سورية لابن الملك الراحل الصغير واستيلائه على المُلك حين عارضه جماعة الزنكي فقصة لا شأن لها بالكرك. وقد غدا صلاح الدين ملكاً على سورية ومصر، وأمضى بقية حياته متنقلاً بين البلاطين، وكان يمر جيئة وذهاباً على الطرق التي تخفرها قلاع شرق الأردن، وهذا ما يفسر تلهفه على امتلاكها بمعزل عن كراهيته لرينو.

وليس هناك من شك أن رينو هذا بذل أقصى ما لديه ليكون منفراً لكل من يتصلون به؛ فكم من مرة نزل فيها من «عش الغراب»– وهو اللقب الذي كان المسلمون يطلقونه على الكرك– ليختطف قافلة، وقد حدث هذا الاختطاف قطعاً في مناسبتين في أيام السلم، وكان رد صلاح الدين على ذلك الاستيلاء على سفينة تحمل حجاجاً [مسيحيين]. وسرعان ما أخذ بعد ذلك يحوم حول الشوبك؛ ولكنه لم يهاجم يومئذٍ أياً من القلعتين لوجود قوات للفرنجة في التلال حول الكرك بانتظاره للانقضاض عليه.

أصيب الفرنجة بنكبة عظيمة في العام 1197 بموت همفري دو تورون الذي قتل وهو يقاتل دون ملكه الشاب، وكان همفري هذا يتكلم العربية، وله صداقات حقيقية بالعديد من المسلمين الذين كان وقت الحرب يقاتلهم بالضراوة ذاتها التي يقاتلهم بها الفرسان الآخرون.

وقد كتب أحد المؤرخين العرب يقول: «إن الكلمات لا تفي هنفري حقه من الوصف؛ فاسمه كان مثالاً للشجاعة والمهارة في الحرب. وكان والحق يقال فتاكاً، وقد أفلته الله من عقاله ليعاقب [به] المسلمين».

ومع أنه كان لهمفري هذه الشخصية التي تنحو إلى الفتك إلا أنه كان ذا طبيعة محببة

أيضاً، وكان الكثير من اتفاقيات الهدنة على العموم من تدبيره.

كان همفري تورون الرابع في العام 1184 فتى في مقتبل العمر، وهو ابن زوجة رينو الشاتيوني الثانية، ويتأهب للزواج بايزابو بنت الملك أماليريك، أو آموري، والأخت غير الشقيقة لبلدوين الرابع. وكان من المقرر أن يقام الزفاف في الكرك في حفل عظيم وابتهاج كبير، حيث كان يقيم العريس إلى جانب والدته وزوجها. ولقد تمت الاستعدادات للزفاف، ثم جاء النبأ الصاعق؛ إذ تواردت الأخبار بقرب وصول المسلمين وعلى رأسهم صلاح الدين. ولسنا ندري إن كانت الأخبار المشؤومة عن هذا الزحف قد تواردت في الليلة السابقة، حينما أشعلت تلك المشاعل على أعلى الأبراج، أم أتى بها رسول على عجل، طالباً الأمان خلف متاريس المدينة القوية. فكل ما نعرفه أن الزفاف أقيم يوم اقتحم صلاح الدين القلعة.

ولا بد أن العروس كانت ترتدي الملابس الباهرة، كما يستفاد من قراءة رواية عن حفل زفاف جرى في صور في العام ذاته، وكان الكاتب مؤرخاً عربياً تولى وصف العروس: «كانت [العروس] ترفل في ثوب رائع، وذيل الثوب يجري من خلفها، ويمسح الأرض فيما هي تجره وراءها. وقد وضعت على مألوف العادة على جبينها تاجاً ذهبياً معقوداً بعصابة من رقائق الذهب، ومثلها حول عنقها. وعند اكتمال هندامها تقدمت بخطى صغيرة متوازنة كخطوات اليمامة».

ويضيف المؤرخ أن الموسيقى عزفت مقدمة لمسيرة العروس، ويتبعها جمع من الفرسان الذين ارتدوا أجمل الأزياء وكذلك السيدات، فيما هي تمضي في طريقها بين المشاهدين من المسلمين والمسيحيين.

ولكن فيما كان حفل العرس يمضي كما تمضي الأعراس في الكرك؛ كان صلاح الدين الضيف غير المدعو يدق أبواب المدينة، ثم اجتاح التحصينات السفلية وبلغ أبواب القلعة ومضى يدكها دكاً. ولقد صار له أن يتدبر الدخول من أحد الأبواب؛ لكن الهجوم مني بالاندحار ثم سدت الثغرة. وفي تلك اللحظة زينت لرينو إحدى ومضاته الفكرية مما كان يحدث له أحياناً؛ فأرسل هدية الزفاف للعدو الجاثم خارج أبوابه، وكانت عبارة عن خبز

وشراب، ومعهما خرج قطيع من البقر والغنم ليكون وليمة للعرس. وقد أرفق رينو بهذه الهدايا المفاجئة رسالة قال فيها إنه يود تقديم تحياته لصلاح الدين الذي كثيراً ما كان يحمله يوم كان معتقلاً في القلعة، وكان يلمح على ما يبدو إلى فترة أسره في حلب؛ فربما كان يومئذ قد لاعب الطفل الصغير [صلاح الدين] ابن الساعد الأيمن للأتابك.

ولقد سُرَّ صلاح الدين بالهدية، ثم سأل عن البرج الذي سيحل فيه العروسان الشابان؛ فلما علم بالمكان أصدر أوامره بألا يتعرض هذا البرج للهجوم. ولما انتهت هذه الإجراءات المتمدنة مضى ليقصف القلعة بأضخم آلات الحصار لديه، محاذراً دائماً المس بذلك البرج.

كان ثمة خندق عريض يعزل القلعة عن البلدة حيث كان صلاح الدين، ولابد أنه كان وقتاً عصيباً لحامية القلعة؛ فقد كان الطعام يومئذ لا يفي بحاجة ذلك الجمع الكبير المحتشد في القلعة وتوابعها. ولذلك بعثوا برسال أنزلوه من الجانب شديد الانحدار للجبل، أملاً بأن يتمكن من الوصول إلى القدس، ومن الجلي أنه بلغ هدفه فعلاً؛ إذ أشعلت عندئذ النار إشارة إلى أن الكرك تواجه مشكلة.

وفي الليلة السابقة للمسير من القدس لإغاثة القلعة أشعل الملك شعلة على أعلى برج داود، وعندئذ أدركت الحامية المحاصرة أن الغوث قريب. ولعل صلاح الدين أدرك السبب في إشعال تلك الشارة في الليلة الظلماء، ولما بلغه أن بلدوين قد اجتاز نهر الأردن وأقام معسكره بالقرب من «بحر الشيطان» فك الحصار عن القلعة الشامخة وهي ما تزال على منعتها.

كان من تهور رينو دو شاتيون ذلك العمل الذي كان له أسوأ العواقب وحدث بعد طول تفكير ومداولة وإعداد دقيق؛ إذ كان بمنزلة دق ناقوس الخطر الذي أيقظ لدى المسلمين النزوع إلى حرب دينية، وقدم لصلاح الدين ذريعة كان بحاجة إليها لإيقاظ العداء في نفوس المسلمين المتأججة وحملهم على خوض حرب إفناء.

ولقد كان رينو محظوظاً في وقت كانت الكارثة تداهم الصليبيين في عدد من الطرق؛ إذ استطاع الحفاظ على ملكه في المواقع الخمسة سالماً من الأذى. وفضلاً عن موقعه على

الأرض كانت له مزية السيطرة على ضفتي البحر الميت وامتلاك ميناء على خليج العقبة. ولقد ازداد الرجل غنى بما كان يجبى من المال من القوافل والسفن، وإن كان يرسل هذه الأموال أحياناً إلى بعض القوى الكبرى مثل فرسان القديس يوحنا في القدس، واستخدم قاعدته في العقبة لرسو سفنه.

وفي العام 1182 كانت الورشات في الكرك منهمكة في عملها، وأصوات طرق المطارق تسمع بلا انقطاع، والرجال غادون راجعون، وقد صارت الأشجار الباسقة في الجوار تقطع وتُحمل إلى الورشات لتصنع منها القوارب، وتُنقل حزماً حزماً على ظهور الجمال إلى مستقرها في خليج العقبة، حيث تجمع إلى بعضها وتنطلق من المرفأ في جزيرة جراي. فلما أصبحت الأمور جاهزة قاد رينو شخصياً الهجوم على ساحل بلاد العرب، ثم أنزل قواته هناك، وسار مرحلة يوم من المدينة [المنورة]، وكان عزمه أن يدمر العتبات المقدسة عند المسلمين؛ ولكنه لم يتمكن من تحقيق خطته، واكتفى بالهرب تاركاً أتباعه ليساقوا إلى مكة [المكرمة] مقيدين إلى الجمال، ووجوههم متجهة إلى الذيل ثم أعدموا.

جرت هذه الحماقة في العام 1182، ولم يكن هذا العمل الأرعن ليؤدي إلى كارثة؛ لو أن رينو لم ينقض على إحدى القوافل الغنية ويعمل فيها نهباً. وقد وقع هذا العمل مرة أخرى والهدنة قائمة؛ فأفقد ذلك صلاح الدين صبره فأقسم على أن يقتله بيديه. فجعل من المغامرة الأولى الشرارة التي قُدّر لها أن تشعل حماس المسلمين؛ ولكنها كانت مع ذلك على ما يبدو السقطة الأخيرة التي أدت إلى اندحار الفرنجة، حين حملت المسلمين إلى المسارعة إلى طلب الانتقام، في الوقت الذي كان الضعف ينال من صفوف الصليبيين والتردد في الرأي يستشري بينهم. كان بلدوين الأبرص قد مات وكذلك الفتى الصغير الذي خلفه. ولقد نصبت سيبيلا كبرى بنات الملك أماليك ملكة، ونصب زوجها جي دو لوزينيان كذلك ملكاً! وكان رينو قد منحهما تأييده، وإن طرح اسم ابن زوجته والأخت الصغرى ايزابو منافسين.

وصارت الأمور تسوء وتتدهور، وكان هناك فريق يطلب الحرب، وآخر رأى الوقت غير موافق؛ ولكن حين حل يوم الحساب الرهيب نسي الجمع خلافات الرأي، واجتمع

الفرنجة على الوقوف معاً في آخر جهد لإنقاذ الهدف الذي يجتمعون عليه، ولكن كان الوقت قد تأخر؛ فقد جمع صلاح الدين قوة ضخمة تعتمل في نفوس أفرادها روح الجهاد، ومضى الصليبيون يقاتلون قتال المستميت، ولكن الحر الشديد ونقص الماء الشديد جعل المعركة التي دارت على أرض حطين إحدى أقوى المعارك التي حفظها التاريخ. فلما انتهت المعركة، وذهبت يومئذ بأرواح زهرة الفرسان في القتال في سبيل الصليب؛ لم يكن هناك إلا القليل ممن نجا على أرض المعركة. وكان من بين الذين نجوا جي دو لوزينيان وريموند صاحب طرابلس ورينو، وهمفري التوروني.

ولقد نصب صلاح الدين معسكره على الأرض التي كانت مسرح المعركة، ولما استراح بعد القتال أرسل في طلب جي ورينو إلى خيمته. وكان جوف الملك ما يزال يعاني التشقق من العطش؛ فقدم له صلاح الدين كأساً من الشراب المثلج، فتناوله جي وشرب، ثم مرر الكأس إلى رينو؛ فقال صلاح الدين للمترجم «قل للملك: إنه هو ولست أنا من قدم للرجل الشراب».

ولابد أن رينو قد فهم المقصود حين رفض الغازي ضيافته، وما كان آتياً لم يتأخر؛ فقد انقض عليه صلاح وهو يصرخ بأنه سوف يثأر لمحمد، وقتله بيديه الاثنتين.

وفي ذلك العام سقطت القدس، ولابد أن حصار الكرك تلا ذلك؛ إذ إن الاعتقاد الشائع هو أن الحصار الأخير استمر مدة تزيد على السنتين. ونحن لا نعلم إلا القليل عن ذلك الحصار سوى أن الحامية فيه استسلمت في النهاية بسبب الجوع. وكان الأطفال والنساء قد أخرجوا من القلعة ليتدبروا حياتهم كيفما استطاعوا، وافتقر الرجال إلى القائد، وكان معظمهم من أبناء المنطقة. وقد ورد أن أرملة رينو تخلت عن الكرك فدية لولدها السجين منذ معركة حطين. ورب سائل يسأل هل كانت مقيمة في القلعة؟ ولعلها لم تكن تقيم في القلعة؛ لأننا لا نجد إشارة إلى ذلك في التواريخ القديمة، فيقول برنار لي تريزوريه إن صلاح الدين أعاد إليها ولدها.

ويذكر هذا الإخباري أن صلاح الدين أعاد النساء والأولاد إلى حامية الكرك، وأرسلهم جميعاً إلى المنطقة المسيحية. ولعل السبب في هذه البادرة أنه حقق انتقامه بضربة واحدة

حين خنق عدوه بيديه الاثنتين، وما عاد في حاجة إلى أكثر من ذلك.

وحين ساءت الحرب بالنسبة لصلاح الدين إثر تلك الضربات الهائلة التي وجهها ريتشارد قلب الأسد، وكان لها أثرها في إزالة بعض العار الذي جلبته معركة حطين؛ هدم العديد من القلاع، إلا الكرك والقدس فظلتا في حالة الدفاع. بل إنه عمد إلى دعم تحصينات الأولى، أي الكرك التي ظلت بمنزلة الجائزة التي يتنافس عليها الأطراف كافة، بعد أن غادر الصليبيون مشهد انتصاراتهم التي قَصُر عمرها وانقلاب مصائرهم التي طالت.

أما الشخصية الأخيرة ذات الأهمية والتي نسمع بها ويتصل أمرها بصخرة الصحراء؛ فهو السلطان المملوكي في مصر، والذي قدِم فجأة مرتدياً الزي العربي على ظهر جمل، ولقد بذل الظاهر بيبرس الكثير في التحصينات؛ فجدد البرج الذي يحمل اسمه وأعاد بناء بعضه، وما زال تاريخ القلعة الصليبية القديمة الراقية منذ ذلك الوقت غير مدون.

إذا ما نظر المرء إلى القلعة من الوادي فإنه يجدها ما تزال تحتفظ بقوتها وعظمتها، وللقلعة الرابضة هناك في الأعلى على قمة تل يكاد يكون جانبه حاداً مستقيماً؛ كالمسقط إلى هاوية كل مظهر القلعة في القرون الوسطى التي ما تزال مأهولة. أما العرب وهم في أرديتهم الزاهية على ظهور جمالهم أو مشاة يتابعون أغنامهم وماعزهم؛ فلا يبدو أنهم ينتمون إلى أي عصر، بل إنهم يبدون جزءاً من المشهد. وإذا ما نظر المرء إلى الأعلى نحو برج بيبرس والبناء الضخم بالقرب منه أو إلى الأسفل حيث جماعة من الفلاحين على الجسر؛ وجد الصورة الوهمية أمامه. والمشهد كله بالغ الرومانسية حتى إن المرء لا يعجب إن رأى رينو الشاتيوني وفرسانه يندفعون على أحصنتهم وهم يهمون بشن غارة، أو صلاح الدين ذاته على رأس قواته يحاصر القلعة من جديد.

إن النظرة الأخيرة للكرك تتوجها الملكة بين ملوك قمم الجبال، وهي تطل على الصحراء والبحر الميت، وتترك المرء حاملاً رؤى لشيء ما ناء وموحش؛ لكنه لن يشعر بالوحدة فعلاً لأن أشباح الماضي ما تزال تسكن هيكله الخرب.

الفصل الحادي عشر
مـدن السـهـل

سماء زرقاء، وبحر أخضر: ليس مجرد خضرة عادية؛ بل هو أصفى لون أخضر يمكن للعقل أن يتخيله، وصخور جرداء على الطرفين، وبحر صامت، ولا صيحة من طير من طيور البرية، وإن كانت تكثر في بعض أطراف الشاطئ؛ ذلكم هو البحر الميت. ذلك البحر بلونه الخلاب وتخومه الفاتنة بصخورها العالية، وهي تنحدر أشد انحدار حتى تبلغ الماء. وهذا على الأقل هو الانطباع الرئيس الذي يتحقق بعد أن يبحر المرء في مياهه ذات يوم أحد من الربيع الماضي. والحق أن الملح ما زال يُجمع في الطرف الجنوبي من البحيرة، وهو على ما أظن قد وقع تحت سطوة البدو، وما زال القار يشكل جزءاً من الصناعة المحلية، سوى أنه لم يكن هناك في ذلك اليوم ما يمكن للعين أن تراه. كانت السكينة سائدة لا يكدرها مكدر من المبتكرات الحديثة، كان المكان حافلاً بشكل يفاجئ المرء بمآسي الماضي. وليس هناك من مكان يثير الإحساس بمأساة الماضي أشد من تلك المياه ذات الخضرة الشديدة وشاطئ بحيرة الإسفلت الموحش.

كانت السماء تنعكس على صفحة الماء الذي يلوح من بعيد فتبدو المياه زرقاء فيروزية، فيما تبدو خضراء كل الخضرة حين تنظر إلى أعماق البحر من قارب، والمياه شديدة الصفاء حتى تكاد تتوقع أن ترى سابرينا تجدل شعرها باللآلئ، تحت الرغوة البيضاء مع كرات شفافة تتلألأ تحت الشمس كالماس، بيد أن المكان خال من الحوريات الوهميات؛ فتاريخه قديم جداً وحافل بالمآسي إلى درجة لا تسمح للمرء بأن تراوده هكذا رؤى ممتعة.

هناك إلى اليمين تلال اليهودية الشاهقة التي ترتفع قرابة ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر، وإلى اليسار الصخور الشديدة الانحدار ذات المشهد الآسر، وهضبة مؤاب المنبسطة التي ترتفع حتى لتكاد تساوي التلال ذاتها. إن وادي الزرقاء ماعين ظاهر للعيان؛ إذ تتناثر بعض أشجار النخيل البري لتبلغ تخوم البحر، مع امتداد المنحدرات الصخرية الحمراء العظيمة التي تذكر بالبتراء، لتحرس مدخل أرنون، وهناك امتداد طويل من البر في الماء،

ويبدو من مسافة وكأنه شاطئ ممتد، ويعرف باسم «اللسان». وفي طرفه الجنوبي القصي جبل الملح، جبل سدوم، وهو اسم ربما كانت له صلة بسدوم.

يخبرنا الجيولوجيون أن انخفاض غور الأردن يرجع إلى نهاية العصر الثلثي tertiary؛ ففي عصور ما قبل التاريخ كانت هذه البقعة بحيرة داخلية مترامية الأطراف من تجمع الأمطار الهائلة في العصر الجليدي، وكان مستوى الماء في تلك الأزمان أعلى بمقدار 1400 قدم من مستواه اليوم. وتشهد على هذه الحقيقة الرواسب البحرية، وآثار المياه العذبة على ذلك الإرتفاع؛ فقد كانت هذه المياه تملأ ذات يوم وادي الأردن حتى بحيرة الجليل [بحيرة طبرية]، ولكنها لم تتصل في أي وقت بالبحر الأحمر، كما يرى بعضهم. وحين تناقص هطول المطر وازدادت الحرارة تقلصت البحيرة، وفي وديان الجنوب الخصبة قامت المدن الثلاث الشهيرة التي بادت بسبب خطايا أهلها، وإنما أنقذت البلدة الصغيرة أو القرية بفضل صلوات [النبي] لوط.

بحر لوط! يؤمن العرب بكل قصة ترد في القرآن؛ ولكن روايتهم للقصة تختلف عن رواية الكتاب المقدس لاتصالها بخرق لقانون الضيافة، فضلاً عن الفضول القاتل الذي تمكن من تلك المرأة التي تحولت إلى عمود من الملح. والحق أنه كان هناك قديماً عمود من الملح، ويشار إليه دائماً على أنه امرأة لوط، والقول الشائع يومئذ أن التمثال تبعث فيه الحياة، ويتغير مع القمر بطريقة غامضة. وهناك مثال آخر عن المعجزة يتمثل في صخرة، وأسفلها صخرة تشبه الكلب الذي شوي لإطعام عابر سبيل، وبعث من جديد على يد النبي الغاضب

صورة [مقابل ص 120 في النص الانكليزي]

بوابة أرنون

بطبيعة الحال ليتحول، إلى حجر من جديد على يد صاحبته الحمقاء ذات القلب الطيب.

والقصة التي يوردها الكتاب المقدس واضحة جلية؛ فلوط بحسب هذه القصة لم يكن بالقديس فقد كان يستعذب أطايب الحياة، وهو شديد الشغف بالنبيذ الذي يصنع في منطقته. وقد اختار وادي الأردن الخصب حين ترك له إبراهيم الخيار، ثم نصب خيمته بالقرب من سدوم، وكانت مدينة لها حتى في ذلك الحين سمعة سيئة. وقد تعرضت مدن السهل التي كانت ذات ثراء فاحش لهجوم من الملوك الأربعة، الذين هزمهم إبراهيم بدوره، وكان قد قدم ليشد من أزر ابن أخيه لوط. ولكن كان لابد من إنزال العقاب بطريقة ما بأولئك القوم، وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة لذلك هي إفنائهم أجمعين. وكان لوط قد أشار عليه النذير أن يفر، وحثته الملائكة على الإسراع؛ بالهرب لأنهم ينتظرون خروجه ليبدؤوا عملهم. فأشاروا عليه باللجوء إلى الجبل، ولكن لوطاً سألهم على نحو ما هو معهود به، وانشغالاً منه بملذاته بلا ريب؛ أن يسمحوا له بالتوجه إلى صوعر، نظراً لتواضع المكان واستخفاف الجماعة به، مما يجعلهم يصرفون النظر عنه. فسمحت الملائكة له بالتوجه إلى صوعر، فمضى في سبيله، وبعد وقوع الكارثة الرهيبة انتقل إلى الجبل وسكن في كهف هناك.

فماذا حدث حين بادت مدن السهل العاصية؟ لقد قيل في هذا الأمر آراء عديدة؛ فالكتاب المقدس يقول إن السماء أمطرت كبريتاً وناراً من عند الرب، وقلب تلك المدن وكل البقعة وجميع سكان المدن و«نبات الأرض». وفي صباح اليوم التالي حين أطل لوط ونظر إلى مشهد الدمار، وجد «دخان الأرض صاعداً كدخان الأتون».

وهناك رأي يتصل بذلك الحدث يقول إنه كان ثورة طبيعية اتخذت شكل زلزال وعاصفة رعد وبرق، أصابت المواد القابلة للاشتعال والالتهاب في البحر الميت. ومع ذلك فإن المرء يتساءل أين هي بقايا تلك المدن؟ ترجح الاحتمالات أن تكون تلك البقايا تحت الماء في الطرف الجنوبي والسطحي من البحر. وهناك فكرة طالما كانت تقابل بالهزء في معظم الأحيان، ويبدو أنها سوف تجد لنفسها مصداقاً من أعمال علماء الآثار، وإنه

لأمر يستدعي التمحيص أن يأتي البحث العلمي الحديث بالبرهان مراراً على ما تناقلته الأحاديث القديمة.

كانت مدرسة الآثار الأمريكية منهمكة مؤخراً في دراسة هذه الناحية كلها وكانت المحصلة عدة اكتشافات مثيرة للاهتمام، وكان منها ما تمخض عنه البحث في كمية من الفخاريات تعود إلى العصر الحديدي، ويرجع تاريخها إلى 1400 قبل الميلاد. وبالقرب من هذا الاكتشاف وجد الباحثون مذبحاً خلصوا إلى نتيجة مفادها أنه كان في ذلك المكان مزار ومحطة للحجاج. واللافت في الأمر أن تاريخ الآثار يتوقف عند الفترة التي كان يفترض أن تكون المدن فيها قد انهارت، ولم تبعث من جديد حتى بعد ألف عام. وأما ما يتصل بالمواقع فالمؤكد أن كل مدينة من هذه المدن لابد أنها قامت في واد نظراً للحاجة إلى المياه، ويرجح أن صوعر قامت على الوادي ذاته مثل المدينة القروسطية، إنما أخفض منها، وأما سدوم وعمورة فالثابت أنهما قامتا على الواديين الآخرين على الطرف الجنوبي من البحيرة. ولسوف ننتظر حتى نتبين إن كان ثمة جهد سوف يبذل للتنقيب تحت المياه الضحلة التي تغطي التربة الآن.

كتب استرابو في العصر الأوغسطي أنه ثمة بالقرب من مسادة شواهد من الصخور التي تحمل آثار النار والشقوق والفلقات في عدة مواضع، وتربة شبيهة بالرماد، والقار يتساقط قطرات من الصخور، وأنهار تغلي وترسل رائحة كريهة لمسافة بعيدة، ومرابع السكنى خرائب متناثرة في كل اتجاه؛ لذلك ننزع نحن إلى الأخذ بالمذهب الشائع لدى أهل المنطقة بأنه كان هناك ذات يوم ثلاث عشرة مدينة، وعاصمتها سدوم، إنما كان يتحلق حولها ستون ساحة ولم يلحق بها ضرر؛ لكن الاهتزازات والتفجرات من الحمم والينابيع الحارة التي تحتوي على الإسفلت والكبريت أدت جميعها بالبحيرة لتفجر حدودها، وتتجاوزها وبالصخور لتلتقط النار، وقد أدى ذلك بالمدن إلى التمدد والتوسع، بينما هجر من استطاع من السكان تلك المدن وهرب إلى سواها.

يقدم لنا استرابو وديودورس مختلف التفاصيل الخاصة بصناعات البحر الميت؛ فيخبراننا أن أهل المنطقة كانوا يعرفون أن الإسفلت سيعلو إلى السطح لأن المعدن كان يتلوث به،

وليس يستثنى من ذلك الذهب. وإذا حذر القوم من هذا خرجوا في قوارب مصنوعة من القصب أو البردي، وانتشلوا كتلاً عظيمة من القار أو الإسفلت؛ لأن من شأن هاتين المادتين أن تطفوا على سطح الماء، ثم تقسم هذه الحمولة إلى مقادير صغيرة وتُحمل على القوارب. وكانت القطع الكبيرة تسمى «عجولاً» والأصغر غنماً؛ لأنها غالباً ما تبدو للعيان شبيهة بحيوان بلا رأس. وكان أولئك الذين يعملون في الجمع مسلحين، وكثيراً ما ينشب القتال بين المتنافسين على هذا الصيد.

كان الأنباط يتمتعون ذات يوم باحتكار جمع القار الذي كانوا يبيعونه بكميات كبيرة للمصريين الذين يخلطونه بمواد أخرى عند تحنيط الموتى، بل لقد قيل إنهم لم يكونوا يطمئنون إلى حفظ البدن من التفسخ من دون مادة القار الذي يبدو أنه لم يكن بوسعهم الحصول عليه من مكان آخر.

ومن المؤكد أن البحر الميت الفريد بمناظره الطبيعية كان فريداً في تكوينه. وعلى الرغم من أن الكتاب يختلفون فيما بينهم بكمية كل نقطة بالتفصيل؛ فإن الروايات العامة تتفق على أنه يصب فيه ستة ملايين طن من الماء، وذلك مقدار لا يمكن أن يخسره بأي طريقة سوى التبخر. ويحتوي على كلور الصوديوم وكلور المغنيسيوم الذي يضفي على الماء مذاقه المر، وكلور الكالسيوم الذي يجعل الماء زيتياً. ويقال إن الإسفلت يتشكل في الصدوع الصخرية في قعر البحر، فهو يتحرك وينطلق بفعل أي اضطراب يحدث في الطبيعة، فيصعد القار إلى الأعلى ويطفو على السطح في كتل كما رأينا. وقد عرض كيميائي عربي مشهور من القرن الثالث عشر لائحة بالاستخدامات الممكنة التي يفيد فيها القار في الطب وأغراض أخرى، ويلاحظ هذا الكيميائي أن البحر يلفظ «النتن القار من قعره، الذي له رائحة النفط، ويتشكل في شقوق الصخور، كما يخرج الكهرمان من البحر». ويقول هذا العالم إن هناك نوعاً آخر يستخدم في علاج التقرحات والالتهابات واضطرابات المعدة، فضلاً عن القضاء على ديدان الكرمة.

ويتساءل المرء عما بقي من أطلال مدن السهل أيام كان الأنباط يجمعون القار ليبيعوه للمصريين، فقد ظلت الرواية تدور عبر القرون على هذا النحو، سواء بقي من القار شيء

أم زال كل أثر له. ويبدو أن الكولونيل كوندر– الذي جعلت بحوثه في فلسطين الشرقية المنطقة كلها موضع اهتمام– يظن أنه من المستحيل أن تكون تلك المدن قد غرقت في البحر، فيقول: لقد دمرت تلك المدن وضاعت آثارها حتى لم تعد تظهر في طبوغرافية الكتاب المقدس، وقد اعتقد يوسيفوس – مثلما ما يزال يعتقد بعضهم اليوم في بريطانيا على الرغم من الشواهد الجيولوجية– أنها «تكمن في أعماق مياه البحر الميت المالحة».

ويبدو أن أحدث رأي في علم الآثار يشير إلى الفكرة القديمة التي تتفق مع هذه المدرسة التي كثيراً ما برهنت في النهاية على صواب ما تذهب إليه؛ فليس لنا إلا أن نأمل فيما التاريخ القديم يتكشف شيئاً فشيئاً أن يعثر على أمر جديد يتصل بهذه المدن التي اختفت تماماً أكثر من أي من المدن الأخرى التي تناولناها حتى الآن.

كان هناك في أيام الرومان عدة أماكن لرسو السفن؛ فكان لصاحب الكرك مرفأه عند مصب وادي الكرك. وقد ورد أن هيرود كان يرتاد حمامات المياه المعدنية كاليرهو متنقلاً بقارب اختصاراً لطول الرحلة. ولابد أن القوم كانوا يستمتعون بالحياة في بحيرة الإسفلت في تلك الأيام، ولكن يبدو أن المسلمين ما كانوا يستطيبون الحياة كثيراً هناك. ولعل أبناء الصحراء الذين كانوا يتقاطرون إلى الجوار عملوا على إبعاد التجار عن المكان، كما كانوا يؤثرون جيادهم السريعة على القوارب التي لم يعتادوها.

ولقد ظل البحر الميت حتى عهد قريب في منأى عن الملاحة؛ وكان أول من ركب البحر إيرلندي يدعى كوستيغان مات بسبب المناخ وشح الماء، وكان الثاني إنجليزي يدعى مولينو، وقد لقي المصير ذاته. ويُشكل رأسا المرل الأبيضان اللذان ينعكسان على المياه الخضراء على أجمل نحو «اللسان» ويدعى كل رأس باسم واحد من هذين الرحالتين الرائدين، وكلاهما أخذا من شواطئه القاسية وهما مشرفان على الموت، وكان كوستيغان قد قام بمحاولته البائسة في العام 1835، ومولينو في العام 1847. والمغامر الثالث أمريكي يدعى لينتش وكان أسعد حظاً من سابقيه؛ لأن حكومته جهزته بمعدات أفضل.

ومنذ ذلك الحين ظهر عدد من الناس الذين استخدموا قاربين مزودين بمحركات، وهذه القوارب تتوافر أحياناً، وكان أحد هؤلاء المغامرين يدعى الأب آبل، وقد وضع

رواية مثيرة جداً عن الرحلة التي قام بها واستقصى فيها الشواطئ بدقة وعناية بالغتين. ولكن علينا قبل التوغل في الممرات الضيقة المفضية إلى المدن القريبة من البحر الميت أن نلقي نظرة على الدروب التي على الضفة الغربية، وبذلك لا نملك أي دعوى لينظر في أمرها بأي قدر من العمق.

كانت مسادة– التي قال استرابو إنه شاهد بالقرب منها خرائب مدن أخرى دثرت– قلعة أكثر منها مدينة؛ فهي تقع على ارتفاع ألف وسبعمئة قدم عن سطح البحر الميت، فوق هضبة على قمة صخرة جرداء. ويكاد أن يكون لكل مدينة تشرف على البحر الميت مأساة تروى، وقصة مسادة قصة رهيبة.

لقد صعد جونثان المكابي متسلقاً إلى عش النسر هذا، وهناك بنى قلعة، ثم حصن هيرود الكبير القلعة، وأحاط الهضبة كلها بسور أبيض اللون عظيم، وكان له ثمانية وثلاثون برجاً، ومن ثم بنى لنفسه قصراً. ولهذا القصر قصة تروى؛ فقد كان قصراً قوياً منيعاً من خارجه وفخماً من داخله. وكان هذا القصر مزوداً بالحمامات، وهي مصممة بلا ريب وفق المخطط الروماني، وأرضه مغطاة بموازييك رائع، وتحيط به الحدائق والطرق، ويطل على مشهد رائع للبحر الميت، وربما لم يرق له وهو مرمي كالجوهرة تحت قدميه. والوصف الذي قدمه يوسيفوس للطريق إلى هذه الجنة قريب من طبيعة البلد إلى درجة أنه لا بد أن يكون هناك موقعه.

ويحدثنا يوسيفوس عن الطريق المفضي إلى القلعة فيقول: «والآن [أحدثكم] عن الدروب المؤدية إلى القلعة، ومنها طريق من بحيرة الإسفلت نحو شروق الشمس، وآخر على الجانب الغربي حيث الصعود أيسر، ويطلق على واحد من هذه الطرق «درب الأفعى»؛ لأنه يشبه الأفعى من حيث الضيق والانعطافات الدائمة، ثم لانقطاع الدرب في الانحدارات البارزة في الصخر، ثم يعود فيلتف على ذاته، ثم يتمدد من جديد شيئاً فشيئاً، وحدوث جلبة مع التقدم إلى الأمام. ومن يشاء أن يجاري هذا الدرب في مسيرته عليه أن يبدأ أولاً بساق واحدة، ثم ينتقل إلى الساق الأخرى، وليس هناك سوى الموت إذا ما انزلقت قدماك؛ إذ هناك على كل جانب هوة سحيقة ومنحدر شديد الانحدار، يكفي

لتبديد شجاعة أي إنسان بما يشيعه هذا الانحدار الشديد من رعب ورهبة.

وقد دعم هيرود هذا الموقع، وكان هذا أيضاً بالاعتماد على ما أورده يوسيفوس وآخرون في المراجع، وكان يرمي إلى حماية نفسه من خطرين: أحدهما الخطر المتمثل باليهود الذين خشي عودتهم إلى ملوكهم السابقين، والخطر الآخر هو الماثل دائماً والناجم عن مطامح كليوبترا وضعف أنطونيو. وكان من شأنه أنه زود القصر بالمؤن على أكمل وجه؛ إذ يمكن أن يجد المرء– لو اجتاح الرومان المكان ولو بعد مئة عام– طعاماً في الغرف المخصصة، ومن دواعي السرور أن نذكر أن الطعام ما زال صالحاً للأكل.

كانت المهمة المناطة بالقائد الروماني فلافيوس سيلفا الذي قدم إلى تلك المنطقة بعد ما استولى الرومان على القدس صعبة، وقد استولى على الأرض المحيطة، ثم ارتقى التل وأقام معسكره هناك، حيث ما زالت أثاره قائمة. ثم أقام سوراً عظيماً حول التحصينات التي كان قد أقامها هيرود، ونصب بعدئذ آلات الحصار. وكانت الحامية تتألف من هؤلاء المتطرفين المتعصبين بقيادة اليعازر، وكانوا جماعة من الرجال والنساء أيضاً ذوي البأس والجرأة كما تظهر الأحداث اللاحقة. فأقام هؤلاء سوراً آخر داخل التحصنات الخارجية منعاً لتسرب العدو، ولكن هذه الإجراءات جميعها كانت ضرباً من العبث؛ فالأمر انتهى برمته إلى الاستسلام. ولقد ألقى اليعازر خطبة عرض فيها أهوال المصير الذي ينتظرهم إن أخذهم الرومان أسرى، وتضرع إليهم أن يقتلوا أنفسهم بدلاً من الاستسلام فوافقت الحامية على ذلك. وبدأت المجزرة فقتل الرجال زوجاتهم وأطفالهم، ثم أخذ كل منهم يقتل الآخر؛ وجرت تلك الأحداث في صمت لئلا تساور العدو الشكوك، ولم يبق من تلك الجماعة سوى امرأتان وخمسة أطفال آثروا البقاء على التخلي عن الحياة.

وفي اليوم التالي وجد الرومان– حين دخلوا في النهاية القلعة التي أحكموا حصارها طويلاً– عدداً من جثث الموتى، وخيم على المكان صمت رهيب عوضاً عن الضجيج والصياح كما كانوا يتوقعون. وعلى أي حال فإن آخر مآسي البحر الميت قد أضفت عليه مسحة من العظمة.

الفصل الثاني عشر
عروعير ومخايرس

على بعد ثلاثة عشر ميلاً شرق البحر الميت يتحد جدولان ليشكلا نهراً، يعد على الرغم من قصره وشح المياه فيه أحياناً أحد الأنهار الثلاثة الكبيرة في ناحية شرق الأردن. وهذا النهر- شأنه شأن الأنهار الأخرى في فلسطين- أشد اعتماداً على الجمال الخارق للوادي الذي يجري فيه منه على مقدار غزارة مياهه.

وهناك في مكان ما بقرب طريق الحج تبرز مجموعة من الجداول الصغيرة، وتختلط مياهها حتى تتصل بمياه جدول ماء جنوباً. وبعد هذا الملتقى يجري النهر الذي تشكل عن ذلك إلى الأسفل عبر شق عظيم في هضبة صخرية من جبال مؤاب، حتى يصب في مياه البحر الميت المالحة في نقطة تبعد قليلاً إلى الشمال عن وسط ذلك البحر الداخلي مقابل موقع إنجادي. ويتألف الوادي أساساً من جروف شاهقة من الحجر الرملي ترتفع بشكل ألسنة من الأرض داخل البحر، وصخور مرتفعة شديدة الانحدار، يصل عرضها في الأعلى إلى ميلين، ثم يضيق حتى يبلغ قرابة مئة القدم عند منفذ الجدول.

وأما النهر فتحف به أشجار الصفصاف والدفلى والطرفاء والخروع والقصب، والمكان مرتع للطيور البرية، وكان في الجوار حتى عهد قريب جداً حيوانات متوحشة. وما زال مشهد أبناء آوى والضباع شائعاً، كما تجتمع هناك الذئاب، كذلك يرد على ألسنة المسافرين ذكر رؤيتهم للغزلان والظباء وطيور أبي منجل جميعاً. ومن بين الطيور ثمة طائر معين لا يُشاهد إلا في تلك المناطق، ويعرف باسم غير شاعري تماماً هو «السَّوادية»، كما أن في المنطقة طائر الطيهوج الرملي وآكل النمل والقطاة اليونانية والأوز البري والقرلي واللقلق، فضلاً عن النسر والعقاب.

كان بعض الرجال الذين يطرقون تلك الوديان على القدر ذاته من الضراوة التي تتصف بها حيوانات البراري تلك التي تنتصب على أربع قوائم؛ فكان من شيمهم التربص مستترين في ظل صخرة ضخمة من تلك الصخور، حتى إذا لاح أحدهم انقضوا عليه

على حين غرة، وهو لا يملك حيلة مع الشرسين هؤلاء. فيذكر بركهاردت– وقد كتب ذلك في العام 1812– أنه وجد في وادي أرنون أكواماً من الحجارة يفصل بينها مسافات منتظمة، ولاحظ أن حارسه الأعرابي كان يضيف بضعة أحجار إلى كل كومة. فلما سأله بركهاردت عن السبب أخبره أن هذه الحجارة توفر للمسافر الأعزل سلاحاً يستخدمه إذا داهمه اللصوص. ولكننا قد خلفنا هذه العادات غير المتحضرة وراء ظهورنا منذ أكثر من مئة عام.

يكاد القادم من البحر الميت ألا يتبين مدخل وادي أرنون؛ إذ يلوح للناظر أن الصخور تكاد تلتقي والباب (البرج) الضخم الذي يحرس باب المجيب، كما بات العرب يسمون النهر القديم، يقطع الدرب. وأمام الشق في الصخرة ضرب من النتوء الرملي، حيث تنمو الدفلى بما هو معهود بها من كثرة ووفرة، وتمتد إلى الخارج، وتكاد تخفي وراءها حوض ماء عظيماً تنعكس على سطحه صور الصخور الحمراء على نحو آسر. ولكن المرء لا يقرب مدخل الوادي إلا بعد أن يرتقي الصخور ويخوض في المياه. بيد أن الأحوال تختلف؛ إذ يمكن للمرء أن يخوض في مياه أرنون إلى عمق معين، في حين أن المياه في مناطق أخرى تكون منذ البداية عميقة نسبياً. والنظرية التي تقول إن مياه البحر الميت في ازدياد لها ما يؤيدها على ما يبدو بتغيير ظروف الشاطئ الذي يزداد غمره تدريجياً.

يتصف مشهد الوادي بأنه أخاذ ومدهش، وللجروف الصخرية المنحدرة جميعها ذرى تثير في النفس شعوراً بالروعة. والزخارف القوطية على قدر عال من الجمال والروعة التي تتسم بها البتراء؛ بل إن المرء ليحسب بعض الصخور كأنها من عمل مهندس معماري، كذلك هناك بعض الصخور المسطحة الملساء. ويتلوى الوادي ويلتف، وترتفع الأسوار أربعمئة قدم، وتنعكس على صفحات الماء الرقراق صورة الصخرة الحمراء النحيلة، وشجرة الطرفاء الخضراء كالريش في أعماق المياه الزرقاء، فضلاً عن السماء الزرقاء الصافية التي

صورة [مقابل ص 132 في النص الانكليزي]
البحر الميت

خلت من السحب. وهكذا فإن الظلال التي تبعث النشاط والموشاة بنثرات قوية من نور الشمس تجعل المدخل إلى هذا الوادي العجيب مريحاً بعد وهج البحر الميت، ورائعاً مثل لوحة يتذكرها المرء طويلاً بعد نسيان صور كثيرة أخرى دونها فتنة.

وليس الصعود عن طريق السرير الصخري لأرنون بالمهمة اليسيرة، لكن يمكن إنجازه بالنشاط والإقدام. ونظراً لضيق الوقت المتاح لي ليس بمقدوري المضي أبعد من هذه المسافة، وعلي الآن أن أعتمد على الروايات التي أوردها آخرون سواي عن عروعير؛ فقد نقش الملك ميشاع على الحجر المؤابي الذي عثر عليه في ديبون، على بعد بضعة أميال شمال موقع القلعة القديمة والمدينة التي كانت تقوم على حدود مؤاب: «لقد بنيت عروعير، وشققت الطريق عند أرنون»، وليس هذا تبجحاً فارغاً، ولا سيما في ما يتصل بالطريق الذي كان إنجازاً هندسياً، بالنظر للمصاعب الضخمة التي تغلب عليها. وما زالت آثار الطريق الروماني القديم قائمة ولعلها تتبع الطريق المؤابي، وقد كتب الأب آبيل في كتابه «Croisier autour de la Mer Morte» كان الدرب الروماني ييسر السفر ويتبع قليلاً الطريق الذي شق قبل ثمانية قرون». والطريق الحديث يقطع الوادي بعمق ألفين وخمسمئة قدم، مما يجعل المرء يتأنى في المسير عند التخوم الشمالية القديمة لمؤاب.

تقع الخرائب التي تسم موقع عروعير على الجانب الشمالي من أرنون حيث ينحدر الطريق الروماني من الأعلى ثم يصعد من جديد، ويرد في الكتاب المقدس: «عروعير والمدينة في وسط النهر»، فأوحى ذلك بأن المدينة تقع على مقربة من الجدول؛ بيد أن

الرأي الأرجح أنه كانت هناك قلعة فعلاً وسط النهر وساعد ذلك في حماية المدينة. أما البلدة ذاتها، بقدر ما يمكننا استعادة الماضي حالياً؛ فقد بناها المؤابيون؛ ثم بنيت مجدداً في الأرجح في الموقع ذاته، على يد قبيلة جاد، غير أنها سلمت بعد ذلك إلى رؤبين الذي كان يملك الأرض الواقعة إلى الشمال من الضفة حيث قامت عروعير. ثم انتزع الإسرائيليون المدينة من ملك العموريين سيحون الذي كان قد انتزعها من المؤابيين، وهذا ما أثار نقمة المؤابيين هذه المرة أكثر من السابق. ولم يفقد هؤلاء الأمل باستعادة هذه البلاد؛ فمضوا لقتال اليهود بعد ثلاثمئة عام لرفضهم إعادتها إلى أقاربهم.

لم يبق هناك سوى القليل مما ينبئنا عن طبيعة مدينة عروعير؛ فنحن نعلم أنها قامت إلى جانب النهر بين صخور كلسية عالية، ومحاطة بطبيعة توحي بحدوث تفجرات بركانية. وبالقرب من المكان هناك الطريق الروماني وبعض الصوى لتحديد المسافات على الطريق، وأحدها يحمل اسم سفيروس، وفي أعلى المكان بقايا جسر روماني. أما الإشارات إلى أرنون ومدينتها في الكتاب المقدس فجميعها تلميحات بالتهديد والوعيد.

وكان سكان جنوب شرقي فلسطين وثنيين جميعاً، غارقين في الآثام والموبقات من كل نوع، والقول بأنهم كانوا سيلقون مصيراً غير الذي انتهوا إليه لو أنهم سمحوا للإسرائيليين بالمرور في بلادهم أمر لم يبلغنا. ولعلهم كانوا قد جنبوا أنفسهم أسوأ المتاعب لو أنهم سمحوا لهم بالمرور، ولربما أدى احتكاكهم بمن يعبدون الإله الحق إلى انصرافهم عن بعل الذي كانوا يعبدونه؛ إلا أن الواقع يؤكد أنهم قاوموا الإسرائيليين، وإن صارت بينهم مخالطة حين استدرجوهم لعبادة إلههم القبلي، وذلك ما يحمل على الظن بأنهم كانوا قوماً ليس من السهل حملهم على التحول إلى دين جديد.

وكان واضحاً أنهم خافوا من فكرة هذا الغزو؛ فقد أرسل ملك مؤاب بالاق في طلب النبي بلعام ليسأله أن يبذل ما في وسعه في هذا الأمر، وكان اللقاء بينهما على ضفة نهر أرنون. فسأله أن ينزل لعناته على القوم الذين قدموا من مصر وانتشروا في البلاد طولاً وعرضاً، ثم اصطحبه إلى ثلاثة مواقع عالية لينجز عمله. وتسلسل العملية ما زال ماثلاً في الذاكرة فلا ضرورة لتكراره؛ إنما من المثير للاهتمام أن نسمع أنه وجد سبع صخور عند

طرف تل جنوب باموث بعل ربما كانت بيور، فقد أشار بلعام بنصب سبعة مذابح للآلهة الفلكية السبع، وهذه الصخور بالغة القِدم، والعرب لا يدرون أمراً من تاريخها، أما التل فيطل على مشهد واسع.

كان أبناء مؤاب وعمون أبناء الطبيعة، فضلاً عن براعتهم التي لا تجارى؛ فما كانوا ليخفون فرحهم حين يقع شر بإسرائيل، وكانوا يبتهجون أيما ابتهاج كلما حققوا نصراً ويتفاخرون به؛ فحين تلوث المعبد زغرد العمونيون وابتهجوا استحساناً، وكذلك حين أصاب إسرائيل الخراب ووقعت مملكة يهوذا في الأسر. ولا ريب بأنهم فرحوا أشد الفرح حين وقف الإسرائيليون عند حدود مملكة عمون «لقوتها ومنعتها».

هناك أحداث عديدة تسترعي الاهتمام تتصل بنهر أرنون؛ ومن ذلك أنه حين أرسل داود يوأب لإحصاء القبائل نزل في عروعير، على الطرف الأيمن من المدينة التي تقع وسط نهر جاد، وجاء يبثة إلى هذا المكان حيث قاتل الكفار، وأقسم أنه سوف يقتل كل مَن يخرج من بيته، عند عودته من الحرب إن منحه الله النصر. فمن تراه كان يقصد بذلك القسم العجيب؟ إنه قطعاً لم يقصد ابنته الوحيدة التي جاءت تستقبله بالدف والرقص، وكانت الذبائح التي قدمتها موضوعاً محبباً للفنانين والشعراء!

كان وادي أرنون يعد زمن الرومان موقعاً خطراً؛ ولذلك كان الجنود يحرسونه دائماً، وقد احتل الفوج الثالث الجبلي يومئذ حصناً قرب أعلى الممر.

وهناك وادٍ يفوقه شهرة هو وادي الزرقاء ماعين، ويقع بين أرنون والطرف الشمالي للبحر الميت، ويجري في واد ضيق عميق من الصخر الرملي والكلسي، وتنمو على طول مجراه من الطرفين نباتات شبه استوائية، بما فيها أشجار النخيل والقصب وأشجار التين البري ذات العقد. ومن بين الصخور تنبع المياه الحارة عند حمام الزرقاء الذي حدد على أنه موقع ينابيع كالرهو، ولهذه النظرية مؤيدوها كما لها معارضين؛ لكن الرأي الآن يقول إن ينابيع الزارة- وهي على مرحلة ثلاثة أميال جنوب الزرقاء ماعين- كانت الحمامات التي كان هيرود يقصدها.

وليس هناك من يجادل في عظمة الوادي الذي يؤدي إلى مدينة منسية أخرى مخايرس

(مقاور)، ويقدم لنا الكولونيل كوندر الذي يرى أن ينابيع الزرقاء الحارة هي تلك التي كان هيرود يرتادها وصفاً ممتازاً للمشهد. وليس يبدو واضحاً السبب في إطلاق اسم كاليرهو على الحمامات والوادي، وهو اسم بطلة مأساة تتصل بقلادة مسروقة وشال، بيد أن هذا التفسير في الحقيقة تبسيط للموضوع. ذلك أن الأساطير الإغريقية والثقافة الإغريقية وكل ما هو إغريقي قد غدت شائعة في روما في أيام عظمتها، وربما كان الاسم الإغريقي يسقط على الأشياء من دون تمحيص بمعناه.

وفيما يتصل بالوادي كتب الكولونيل كوندر يقول:

«لقد استغرقنا ساعة كاملة حتى تمكنا من بلوغ أسفل الوادي، وكان المشهد في الأسفل رائعاً يأبى عن الوصف؛ ففي الجنوب كان هناك البازلت الأسود والحجر الكلسي البني والمرل اللماع. وفي الشمال هناك الصخور الرملية الشاهقة من كل لون، بدءاً من الأصفر الباهت إلى القرمزي الضارب إلى الحمرة. وفي الوادي ذاته نجد أشجار النخيل ذات الخضرة الزاهية، مبتهجة بالقيظ والتربة الرملية. وهناك بعض الجداول وهي تتفجر من الصخور، وتصب في جداول بين ضفاف مكسوة بقشرة من الرواسب الكبريتية البرتقالية اللون. وفي الأعلى حلق طائر الحسون الأسود وصفق بجناحيه ورؤوس ريشه الذهبية اللون، وصوته نغمة واحدة ترددها الصخور الحمراء الضخمة في هدأة المكان. والجداول– وتتفرع عن عشرة ينابيع– تتفاوت درجة حرارتها ما بين 110 و 140 فهرنهايت، ثم تتساقط في شليلات وسط الخضرة المترفة، لتنضم إلى مجرى التيار الرئيس الأشد برودة وحداثة، إذ ينبع من الينابيع كثيرة الحصى في أعلى الوادي التي تشكل أحواضاً تحت الصخور الحوارية البيضاء الملأى بالسمك، والمختبئة في غيضة من أشجار الطرفاء وأعواد القصب.

لا شيء من مشاهد الطبيعة كلها في سورية– حتى بعد الوقوف على جبل الحرمون، أو بين أحراش بانياس، أو في إنجادي أو بين فجوات جبال لبنان الشرقية– يسكن ذاكرتي مثل ذلك الوادي، وادي الله، عند بيت بيور، حيث أُخفي جثمان موسى. الجدول الرقيق المتدفق الذي شق مساره هيرود تحت سجن يوحنا المعمدان في مخايرس، ذلك الخندق الرهيب حيث تقدم القرابين للأرواح التي تسكن الصحراء، وما زال الناس يغتسلون هناك

لإيمانهم الذي لا يتزعزع بقوة النبع على شفاء المرضى».

وكان الأب آبيل– من جهة أخرى– على قناعة بأن ينابيع الزارة هي التي كانت توفر لهيرود حمامات الاستشفاء؛ لكنها عجزت عن شفائه من علته، فيقول إن حمام الزارة كان في مدرج ضخم مغلق من جهة الغرب بطرف الجبل. والأرض من ناحية البحر مغطاة بطبقة سميكة من حجر التوفة المسامي الذي يتشكل من رماد البراكين، وأرض التيارات الطبيعية والاصطناعية من الماء الحار محكمة الغطاء برواسب وقشريات، تشكل امتدادات من حجر الترافرتين الكلسي تنحدر إلى الشاطئ. وهناك على طرف تل من حجر التوفة المساحي أبنية ربما كانت تقوم مقام الحمامات، وما زال هناك قناة لنقل الماء إلى الحمامات، وإذا تبع القارئ الشاطئ شمالاً بلغ بعد مسيرة خمس دقائق مرتفعاً من الأرض، متوجاً بأطلال حصن صغير، وبعد خمس دقائق أخرى تبلغ كتلة من الخرائب ذات المنشأ المائي الحار وصخرة لا شكل لها، كان قد اكتشف في داخلها غرفة ذات مدخل من ناحية البحر وقناة لنقل الماء. ويقع وادي الزارة إلى الحد الشمالي من هذا المدرج، وهنا يجد القارئ بين القصب ينابيع حارة وباردة. وفي قاع ينابيع الماء الحار فجوات ينتجع إليها المستحمون.

إن الأب آبيل مقتنع بأن هذه هي حمامات كاليرهو، ويستشهد في البرهان على ذلك بفسيفساء مأدبا. وفي هذه الخريطة الفذة من الفسيفساء يجد المرء ثلاثة ينابيع بين واديين غير مسميين في الشاطئ الشرقي للبحر الميت. وأولها ينبوع المياه الفوارة الذي ينطلق من حوض مستدير، ثم يندفع ويصب في البحيرة، والثاني وهو أكبر فموضعه عند المحراب، أما الثالث فينحدر من الجبل ثم تسير المياه في طريق أصفر طويل ليصب في البحر، وهناك على الشاطئ شجرتا نخيل. ويلاحظ فضلاً عن ذلك أن الدرب الذي مهده هيرود في وادي الزارة قد اختفى تحت كتلة من البازلت الأسود على الهضبة التي تتحكم بينابيع المياه الحارة.

ويلوح أن هيرود لم يكن ليطمئن إلى القدرات العلاجية للماء، والسند في ذلك قول يوسيفوس إنه كان قد أنزل إلى حمام من الزيت الحار، مما جعل عينيه تنقلبان إلى الأعلى، وكاد أن يموت، ثم مات فعلاً بعيد ذلك في أريحا، مخلصاً بذلك للسمعة السيئة التي حرص

عليها حتى النهاية. فهنا ليس ثمة من تقليد بالاعتراف على فراش الموت، وهكذا مات الرجل كما عاش. ففي السنة الأخيرة من حياته كان قد أمر بذبح كل الذكور من مواليد بيت لحم؛ خوفاً من أن يكون بينهم من يغدو ملكاً يتصدى له، وكان من بين آخر أفعاله قتل ابنه البكر، وسجن عدد من وجهاء اليهود الذين أمر بقتلهم حين يموت، فيكفل بذلك أن يصيب الحزن كل عائلة في القدس. ولكن علينا أن نمضي في طريقنا إلى مخايرس المدينة القائمة أعلى وادي الزرقاء ماعين، والتي نحن إليها منجذبون، ونبلغها بطرق متعرجة مثل الطريق الروماني في وادي أرنون.

كان الكسندر يانيوس قد بنى مخايرس، والقلعة القديمة والحصن وسجن هيرود، ثم دمرها القائد الروماني غابينيوس، وأعاد بناءها هيرود الكبير. وكانت قلعة رائعة تنافس القصر الآخر في الصحراء في مسادة، شأنها في ذلك شأن كل شيء يمسه هيرود. إلا أن الاهتمام يتركز على ابنه هيرود أنتيباس الذي غدا حاكم بيراية، وخلف والده في مجلس الحكام الأربعة. وكان أنتيباس قد تلقى علومه في روما، وتزوج بابنة ملك البتراء الحارث، كما سلف القول، وكان على وشك طلاقها ليتزوج بهيروديا زوجة أخيه؛ فجاءت ابنة الحارث إلى مخايرس، ومنها لجأت إلى أرض والدها. وهنا أدت سالومة رقصة الموت الشهيرة، وفي مكان ما من السجن كان مقتل [يوحنا] المعمدان، ليس في سبيل الرسالة التي نهض بها وكان مستعداً للموت في سبيلها؛ وإنما لاعتراضه على الاتحاد غير الطبيعي بين هيرود أنتيباس وزوجة أخ له ما زال على قيد الحياة.

كان الحصار الأخير الذي عرفته مخايرس أشبه بطبيعته بالمهزلة؛ فقد كان الرومان يرون في هذا الحصن مكاناً بالغ الخطورة، والأحرى أن يسقط وينتهي أمره. لذا عملوا على إحكام الحصار من حوله وإسقاطه، وكان ذلك عبثاً إذ لم يحالفهم الحظ في مسعاهم بسبب منعة موقعه؛ فقد كانت الوديان سحيقة لا يجدي معها التفكير في حصارها، كما كان يجري الأمر في حالات أخرى.

احتشد اليهود جميعهم في القلعة، وكانت والحق يقال تكاد تكون منيعة تماماً، وفي البلدة السفلية وضعوا عدداً غفيراً من الغرباء. وبعدما استمر الحصار حيناً من الزمن خرج

شاب ومعه رجل آخر مغامر من باب القلعة، ليظهر للقوة المهاجمة احتقاره وازدراءه، فلما ظهر تقدم أحد الجنود الرومان وحمله بدرعه وسلاحه. ولقد رأى جنود الحامية الذين أصابهم الهلع أولاً الشاب يتعرض للضرب، ثم صليباً ينصب ليكون الشاب الضحية الذي يصلب عليه. وكان هذا المشهد أشد من أن يطيقه أصدقاؤه؛ فاستسلمت الحامية فعلاً ليَسلم هذا الشاب. وينصح بطل هذه الكوميديا بعض الذين وجدوا أنفسهم في هكذا موقف بالاستسلام. حقاً إن قليلاً من الهزل ربما يكون أمراً ينبغي ألا نترفع عنه بعد عرض الكثير من المآسي.

الفصل الثالث عشر
الصحراء

من المستحيل الحديث عن مدن بلاد العرب من دون الالتفات ولو مدة قصيرة، لدراسة أولئك البدو الرحل، وهم عرب الصحراء فعلاً، الذين جعلوا من براريها موطناً لهم. والبلاد التي يسكنها هؤلاء العرب تفتقر في معظم أجزائها إلى الجمال الحقيقي، وكثيراً ما ينقصها ذلك المشهد الواسع الذي يمتد ليبلغ أفقاً بعيداً، أفقاً يذكر المرء بفكرة الأرض اليباب في العالم؛ فذلك الشريط الضيق من الصحراء الذي يمتد من حدود فلسطين الشرقية، ويتداخل مع أطراف بلاد العرب يتسم بالرتابة، سوى أنه في كثير من الأحيان ينكمش بدلاً من أن ينفتح على المشهد. والرمال هنا باهتة اللون وتكثر فيها الأحجار، كما تغطيها أحياناً ألواح من البازلت الأسود، وكثيراً ما تنمو هنا الحشائش والأحراش الكثيفة من دون أن يغذيها شيء من الرطوبة. أما حين تكون الأرض متموجة بالمرتفعات– كما هو الحال غالباً– يغدو المشهد مغلقاً بتلال الرمال الأقرب إلى الناظر، أما إذا انفتح كما يحصل بالطبع فإنه يتكشف عن سحر عظيم يتأتى عن منظر واسع عريض لسهل مترام تحده التلال البعيدة.

وجدير بالملاحظة أن بين الشجيرات الضامرة التي تنمو عشوائياً في الرمال العديد من الأزهار البرية؛ ومن بين أوائل تلك النباتات الماثلة في ذاكرتي الكثير من الأزهار البرية؛ مثل السحلبيات الأرجوانية وشقائق النعمان. وفي منتصف النهار حين يشتد الحر يمكن رؤية السراب، حيث المناظر من بعيد تأخذ شكل البحيرات التي تخيم على ضفافها أشجار النخيل أو شريط من شاطئ بحر ومنارة.

أما الصحراء الكبرى التي تمتد جنوباً وشرقاً فليس لي بها خبرة، وغني عن القول أن قبائل البدو كانت قد وردت من أرض أبعد من الشريط الضيق في فلسطين؛ فهذه القبائل قد ارتحلت من داخل الصحراء العربية إلى فلسطين وسورية.

ما من مشاهد تعيد المرء إلى ما كانت عليه الحياة في العالم البدائي مثل مشهد مخيم البدو

في أثناء الانتقال من مكان لآخر. ولربما يكون الفرسان قد مضوا إلى تنفيذ المهمات الموكلة إليهم من قبل، أو ربما كانوا يلحقون بسواهم؛ فهذا رجل عجوز يتقدم رتلاً طويلاً من النسوة «المحمولات على الجمال»، المتربعات على هوادجهن العالية، وهذه ترضع طفلاً، وأخريات يحملن ممتلكاتهن الثمينة، بينما أخواتهن اللواتي من دون الأخريات حظوة فيحملن متاع البيت على ما يشبه المحفة التي تقوم على أعمدة طويلة. وهذه المسيرة تضم رجالاً أيضاً، وهؤلاء يسيرون أحياناً، إلا أنهم غالباً ما يركبون جملاً أو حماراً، ثم يتقدم آخر الموكب مع مجموعة من الكلاب التي تختص باقتفاء الأثر؛ فتأخذ في تحسس الطريق بقوة حاسة الشم. ثم تمضي القافلة بطيئة متمهلة، وكأنما لا وجود للزمن، وثمة غياب تام للجدل المنهك للأعصاب الذي لا نهاية له، وغالباً ما يصاحب التنقل عندما يشارك فيه عدد كبير من الناس.

والنساء هن اللواتي ينهضن بمعظم العمل الشاق؛ فهن من ينصب الخيام ويرتب المتاع ويفك الحزم والرزم حين تبلغ القافلة وجهتها، كما أن نصب الخيام من نصيبهن، بينما الرجال منصرفون إلى تدخين النرجيلة بهدوء. ولو أنك طرقت أيها القارئ خيمة بدوي فقد تجد النسوة جالسات هناك من دون أن يأتين بعمل، إلا أن الأرجح أن الحال ليس كذلك؛ فلكل واحدة منهن مهمة خاصة تنهض بها، فهذه سوف تطحن الذرة في مطحنة قديمة تعود إلى الزمن الغابر (الرحى)، وتلك تحضر القهوة، بينما الأخريات منصرفات إلى حياكة شعر الماعز الأسود الذي جمعنه ليحكن منه خيامهن «بيوت الشعر». وفي الشعر العربي الكثير عن حب الجميلات ذوات العيون اللوزية ملهمات الشاعر، وزواج الحب ليس بالنادر، سوى أن مآل الزوجة صعب، ذلك أنها وإن لم تحتجب أو تغطي وجهها بحجاب شأن المسلمات الأخريات فإن عبء العمل المنزلي الشاق والعناية بالأسرة يقعان عليها، لأن الرجل يعامل على أنه أدى ما عليه حين رعى الماشية أو أصاب صيداً للطعام، أو ربما أغار على الفلاحين ليحظى بالعلف للجمال.

صورة [مقابل ص 144 في النص الانكليزي]
في الصحراء على طريق الحج إلى مكة

لقد وصف البدوي بالشموخ والجد والخجل والتحفظ، وهو يميل بطبيعته للشك بالغرباء، إنما متى فاز المرء منه بالثقة أصبح مخلصاً ثابتاً على الوفاء. والمثال الأعلى الذي يشخص إليه هو الشجاعة، والبدوي مخلص في حبه ثابت عند الكراهية. ويحافظ على قوانين الصحراء في الضيافة والثأر. وحسبك منه أن تجربة قصيرة حري بها أن تدع لدى المرء الانطباع بأن البدو قوم مبتسمون أبداً، وحريصون دائماً على بذل ما لديهم لك؛ سواء كان ذلك القهوة أو ما يسمونه اللبن المخيض. ويؤثر في النساء الفضول الرقيق الذي لا يتصف بالإلحاح، والرجال يكرمون الغرباء الذين يلتزمون بالمعاملة الحسنة.

وثمة نوعان من البدو؛ فمنهم البدو الرحل المألوفون الذين يربون الجمال ويوصفون بأنهم «سادة الصحراء»، ثم هناك أشباه البدو وعملهم تربية الغنم والماعز، كما يزرعون في كثير من الأحيان أرضاً صغيرة، بل يدفعون الضرائب أحياناً. ولكن لمربي الجمال الغلبة لأن حيواناتهم أسرع، وقد يمضون أياماً من دون ماء، بينما لابد للأغنام والماعز من ورود الماء كل يوم. ثم إن البدوي مربي الجمال مثل الرعب المقيم للفلاحين، لأنه يستوفي نصيباً من غلالهم، أو يعمد إلى ترك جماله ترعى في حقولهم. وهذا يضيف عاملاً آخر إلى عدم الاستقرار الذي يفسد الحياة في شرق الأردن، وما زال يعد شراً يخشونه ويحتاطون له منذ أقدم الأزمان.

وللعرب شعرهم الذي تناقلوه مشافهة عبر التاريخ عن طريق رواة له، كما كان الأدب كله قبل الإسلام، ولهذا الشعر طابعه الخاص وخصائصه، وذلك جلي وإن بلغنا من وراء حجاب الترجمة. وحري بنا أن نتذكر أنه كان للعرب نصيب وافر من الحضارة والنتاج الأدبي في أحلك أيام الجهل الأوروبي؛ فقد كانوا جغرافيين وفلاسفة، وأول من درس علوم الأولين وآدابهم وفلسفاتهم، وعملوا على ترجمتها، ولذا قد مهدوا الطريق أمام عصر النهضة في أوروبا. فهنا في بلاد العرب قامت مختلف مراكز الثقافة، ومن هذه المراكز اثنان كلاهما كان مركز إمارة معقودة لأمير قبيلة يدين بإمارته كلياً لقوة البدو.

ونطالع ما كتبه السيد آر. ايه. نيكلسون في كتابه «The Literary History of the Arabs» (التاريخ الأدبي للعرب) أن «بلاد العرب كان يحدها قرابة منتصف القرن الثالث من تقويمنا من الناحيتين الشمالية والشمالية الشرقية الإمبراطوريتين المتنافستين روما وفارس، وتمثل الصحراء السورية الممتدة في شبه الجزيرة الحدود الطبيعية لها. وقد وجدت الإمبراطوريتان كلتاهما أن الضرورة تفرض عليهما حماية أراضيهما من المغيرين البدو الذين كانوا يتدفقون على مناطقهما الحدودية، وباتت أيديهم تطال كل المغانم المتاحة، ثم يختفون فجأة كما يظهرون، وأنه يجب أن يقيموا خطاً من الحاميات على طرف البادية. وهكذا تقلصت قدرة رجال القبائل جزئياً؛ وبدا الاقتصار على القوة وحدها علاجاً مكلفاً، ولذلك تقرر اعتماد الحكمة القائلة «فرّق تسد»، وذلك بتجنيد عدد من القبائل ذات الروح الهجومية في خدمة الإمبراطورية.

وكان من أسباب الاغراء والاستدراج لخدمة مصالح التوسع والهيمنة دفع المرتبات وتوقع المغانم التي لا حدود لها؛ لأن روما وفارس كانتا في تلك الأيام في حرب لا تكاد تنقطع، وتلك حوافز ما كان لبدوي حق أن يقاوم غوايتها. إلا أن هؤلاء البدو كانوا يقاتلون بوصفهم حلفاء أحراراً بقيادة زعمائهم أو شيوخ قبائلهم. وهكذا نشأت سلالتان مالكتان من العرب؛ الغساسنة في سورية واللخميون (المناذرة) في الحيرة غرب الفرات، وشكلتا دولتين عسكريتين وظيفتهما العزل، وكانتا على استعداد أبداً للصدام حتى وإن لم تستدعهما القوتان الكامنتان وراءهما. وسرعان ما أثبت العرب مقدار قوتهم حينما

يتلقون التدريب والانضباط العسكري».

كان الغساسنة في خدمة روما والحيرة في خدمة فارس، وقد اجتذب بلاطا الغساسنة والحيرة مواهب الشعراء والأدباء في ذلك العصر، وكان أمراؤهما يتقدمون في رعاية الشعراء الذين طالما وضعوا القصائد المنمقة في مدحهم. ويلوح أن الحيرة كانت تشيع فيها الحرية الدينية؛ فقد كانت مقراً لأسقف مسيحي منذ العام 410 ق.م، وكذلك كان الناس هناك على علاقات حسنة بالزرادشتيين الفرس.

وكان الغساسنة يحكمون البلاد من تدمر ودمشق، وجدير بالذكر أن هؤلاء الغساسنة وإن لم يكن لهم مقر ثابت وظلوا بدواً فقد كان بلاطهم مترفاً، أو هكذا يبدو مما بلغنا من أحد الكتاب العرب في ذلك الزمان؛ فيخبرنا الكاتب أنه رأى الملك مضطجعاً على أريكة وحوله الريحان والياسمين، وأوان من الذهب والفضة فيها العنبر والمسك. وفي الشتاء يتدفأ بحرق خشب الألوة، ويستخدم الثلج للتبريد في الصيف، وكانت تأتيه المغنيات الإغريقيات فيغنين الأغاني اليونانية، وصبايا من الحيرة اللواتي ينطلقن بالألحان البابلية، وكذلك المغنون والمغنيات العرب من مكة. وكان الملك وسيماً وكريماً وحسن الاستقبال.

فإذا كان هذا حال أمير من العرب فما بالكم بعظمة الملك الفارسي، وهو الذي يسمى «ملك الملوك». وكان للملوك الساسانيين أعظم الأثر في الفن والعمارة عند العرب، وهم المثال الذي يحتذى في الترف والعظمة. وفي العاصمة البارثية ستيسفون [المدائن] كان أنوشروان العادل يتربع على الحكم. ويجلس والتاج على رأسه خلف ستارة فلا يكلمه إلا من يدعوهم إليه وهم راكعون أمام الملك العظيم. وأنوشروان ابن الملك مؤسس الأسرة المالكة، إلا أن أمه كانت فتاة من الفلاحين، ولكن حين ثار خلاف مع أفراد العائلة الآخرين حول أمر خلافته لوالده في الحكم عمد إلى قتل إخوته جميعاً وأولادهم الذكور، وهذا ما يجعل لقبه «العادل» الذي عرف به في غير موضعه حيناً؛ وما إن تمت مجزرة الأخوة حتى برهن أنوشروان على أنه أعدل حاكم وأكثر الملوك استنارة؛ فكان يهتم بتطور بلاده والبلدان البعيدة التي غزاها وجعلته مشهوراً. وكان أنوشروان– أو خسرو كما يعرف

عادة– إذا لم يكن مشغولاً بالقتال أو لعب البولو مع سيدات القصر أو الشطرنج ورجال القصر يستقبل عالم اللهو في فارس وسط قاعة استقبال هائلة تضم حرفياً آلاف الحضور، وهو من وراء الستار.

ويدخل خسرو القاعة الداخلية مستور الوجه، ثم يتخذ عندئذ مجلسه على عرش عظيم من الذهب وقوائمه من الياقوت، ويدخل رأسه بحرص شديد في التاج المتدلي من قوس، نظراً لوطأة ثقله على الرأس. وتحت قدميه السجادة الشهيرة التي تحمل صورة الفردوس بشكل حديقة أرضها موشاة بالذهب وممراتها من الفضة، والأنهار فيها مطرزة باللآلئ ومروجها من الزمرد، والأشجار والفاكهة والأزهار كل واحدة منها مصورة بالجواهر بالألوان المناسبة.

وعندما يستقر أنوشروان بارتياح ترفع الستائر، وتلك إشارة إلى أنه مستعد الآن لاستقبال من لهم مكانة لديه؛ فينبطح هؤلاء على الأرض، وحالهم حال من وقع نظره على مشهد خارق.

كان حفيد هذا الملك خسرو الثاني الذي بدأ حكمه بفرار وكذلك انتهى، لكن تحقق للرجل زمن من العظمة؛ إذ بلغت الفنون والآداب في عهده أعلى درجات التطور، وكان بلاطه رائعاً، وكان له فترة من النجاح في الحرب، وإن لم يستمر في ذلك حتى نهاية حياته، فقد قتله أتباعه في النهاية حين أخذ نجمه في الأفول. ولقد كان لخسرو بعض الانتصارات الكبرى على روما إبان انحدار قوتها، كما أنه نهب أنطاكية والقدس. واشترك مع اليهود في قتال المسيحيين وسرق الصليب الحقيقي الأصيل بعد استيلائه على الإسكندرية. وكان ينوي أن يحتفظ بسورية كما يستدل من الشاهد؛ أي بناؤه قصر المشتى(*) في البادية، وكانت لديه خطط رائعة، لولا أن هزمه هيراكليوس وأطاح به عن عرشه، ثم سجنه في «بيت الظلام». وقُتل أولاده أمام عينيه، ثم مات بعد عذاب طويل، فكانت نهاية مأساوية للرجل الذي كان يدعى في بلاد فارس باسم «خسرو بارفيز» الفاتح.

(*) قصر المشتى بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عام 743 م. وبناؤه يعكس فنون العمارة الإسلامية الأموية. ونسبته إلى خسرو الثاني والفرس عار عن الصحة. انظر: الأردن تاريخ وفنون وآثار ص 58.

كان قصر المشتى قد بني بأمر خسرو الثاني في مطلع القرن السابع، ولكن لم يُقدر لهذا القصر أن يكتمل بناؤه، وتتسم أعمال النقش على الحجر بروعة التنفيذ. وموقع القصر يبعد قرابة سبعة أميال شرق قلعة الزيزاء، وهي محطة على الخط الحديدي الحجازي [الذي ينقل الحجاج إلى الديار المقدسة]، واسم القصر يعني إما أم المطر أو أم الشتاء، وربما كان يقصد به منتجعاً يلجأ إليه الملك الفارسي في الشتاء.

ويبدو أن القصر كان قد صمم وفق التصميم المألوف في فارس؛ فقد كانت قنطرة المدخل من طراز رفيع جداً على ما هو معهود في العمارة الساسانية، كما أنه كان يضم قاعة استقبال ضخمة مثل القاعة التي كان أعظم الملوك يستقبل فيها ضيوفه في بلده. وهذا القصر لا يشبه أي بناء في فلسطين؛ بل إنه لا يشبه القصر الساساني في عمان. والأسوار الضخمة التي تحيط بجدران البناء المربع في الداخل، وطوله خمسمئة قدم مربع من كل جانب، وهذه الجدران والسور من الحجر الكلسي، وكان له خمسة وعشرون برجاً، وهي مستديرة عند الأطراف، وشبه دائرية عند طرفي المدخل الأيمن والأيسر. ولطالما كانت النقوش المذهلة والدقيقة التي كانت تزين الواجهة الكبرى والأبراج ذات الأضلاع الثمانية والإفريز الذي كان يمتد مع الجزء المكتمل من البناء مثار إعجاب كل من أتيحت له فرصة مشاهدته، قبل أعمال النهب والتخريب التي أصابته على أيدي اللصوص من المحليين والأجانب فسوِّي بالأرض. ولابد أن هذا البناء كان يثير الدهشة وهو ينتصب سامقاً في وسط الصحراء، صرحاً من العظمة تبين موهبة حضارة غابرة أخرى وعظمتها.

يقوم القصر ذاته داخل باحة مكشوفة، والمدخل إليه بوابة ثلاثية، وقد ذهب بعضهم إلى القول إن المقصود به أن يكون مكاناً للصيد لخسرو، أما تلك الساحة الواسعة وتحصيناتها فإضافات طارئة على مخطط البناء الأصلي. وكان القصر مبنياً من القرميد، ويضم قاعة استقبال ذات قبة تضم المُدليات، وقاعات مقببة معقودة السقوف، وساحات تؤدي إلى الخارج. ولكن ليس القصر ذاته المؤشر إلى أثر جميل وبهجة أبدية؛ بل أعمال النحت في الحجر الذي يزخرف الجدران الخارجية، فالواجهة الهائلة كانت مزينة بتصميم متعرج على شكل حلية وردية سداسية محاطة بتخريمات بالغة الدقة، تبرز منها حيوانات ضارية

وطيور وزخرفات على النسق العربي وأزهار وأوراق نباتية. وقد حمل القطعة العظيمة التي كانت في مكانها الأصلي الإمبراطور السابق فيلهلم ليضمها إلى متحف برلين، ثم أتبعها العرب باستخدام الحجر المهمل في بناء محطة القطارات في الزيزاء على الخط الحديدي الحجازي.

أما السور فلم يقيض له أن يكتمل، وجلي أنه تُرك على عجل حين أخذت الهزائم التي مُني بها خسرو تبين أن شمسه أذنت بالمغيب. ولئن كان التصميم فارسي محضاً من الطراز الساساني(*)؛ فإن المرحوم جيه فيرغسون يشير إلى أن عمال البناء كانوا عرباً جلبوا من أنطاكية أو إحدى المدن السورية، وهذا قول يثبته استخدام أشكال الكرمة في أعمال الزينة، وهذا موتيف مستخدم في سورية منذ أيام هيرود وما بعده.

وهنا أقتطف من كتاب «تاريخ العمارة في كل البلدان» History of Architecture in All Countries ما يلي: «وأبرز ما فيه يكمن في واقع أن المساجد الفارسية والهندية كافة تستمد عمارتها من هذه الطبقة. فالمساجد الإفريقية كانت توسيعات لفناء البازيليكات المسيحية، وذلكم شكل لم يقع عليه هناك أحد قط، لكنه المفتاح لكل ما أقيم بعدئذ ناحية الشرق».

كان هذا القصر الفارسي فريداً من نوعه في ذلك اليوم، وزرع هناك في الصحراء، وتعد بقايا المنحوتات خارقة الجمال. وهو من الناحية التاريخية رمز لقوة آخر الملوك الساسانيين وسقوطه، وسقوط فارس أمام جبروت الإسلام.

ولعل هذا السقوط هو الرد على صلفه وعجرفته حين مزق كتاب [النبي] محمد [صلى الله عليه وسلم] الذي دعاه فيه إلى الإسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعوة الإسلام فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين؛ أسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

(*) هذا القول يتناقض مع ما ورد في الصفحة السابقة بأنه لا يشبه القصر الساساني في عمان؛ علماً بأن القصر الساساني في عمان ليس من بناء الفرس؛ بل هو القصر الأموي الذي بناه العرب في عام 720 ميلادي، انظر المرجع السابق ص 10.

ولقد مزق الملك الكتاب أمام رسول محمد [صلى الله عليه وسلم] الذي رد على هذه الفعلة بقوله إن الله [تعالى] سوف يمزق ملكه ويبدد هذا الشمل!

ولئن كان هذا خروجاً عن موضوع الدراسة؛ إلا أنه من العسير ترك الصحراء من دون التفكير في أولئك العظام الذين خلفوا أثرهم الروحي على صفحة الرمال المتحركة التي طوت إمبراطوريات ضخمة.

وكان أيوب مثال الصبر قد عاش في مكان غير بعيد عن البتراء، وبالقرب من منطقة من الصحراء حيث القوم هناك «يعتدون على أراضي الغير، ويسرقون قطعان المواشي». وفي مكان ما في منطقة البحر الميت رقد ايليا التشبي تحت نبتة العرعر البيضاء ذات الريش التي كثيراً ما تُشاهد هناك. وهنا كان يوحنا المعمدان يلقي مواعظه، وهنا قُتل في سجن مخايرس. كذلك عبر المسيح إلى الأردن، والتقى بأناس سعوا إلى التعلم منه، وأناس أتوا بأطفالهم ليباركهم، ورجال حملوا معهم ثروات عظيمة ولكنهم انصرفوا وهم حزانى. ولقد قصد المسيح العودة إلى القدس بعدما تنبأ بموته. كما اندفع القديس بولس إلى محاربة الكنيسة في بلاد العرب، وكان يومئذ فتى في بواكر عمره، وقد أمضى بعدئذ ثلاثة أعوام في الصحراء قبل أن يعتنق المسيحية ويمضي في الدعوة. والمحقق أن الصحراء كانت مسرحاً– سواء من وجهة نظر روحية أم تاريخية– عرضت على خشبته مآسي الحياة الضخمة.

الفصل الرابع عشر
مأدبا

يمضي الطريق الروماني حتى مأدبا عبر سهل بهيج يبدو للقادم بعد سفر عبر الصحراء شديد الخضرة والخصب؛ إذ يصل طول نبتة الذرة الغضة ست بوصات أو سبعاً، وشقائق النعمان وسواها من الأزهار البرية تضفي على المشهد ألواناً وألواناً، والسماء صافية والهواء عليل في ذلك الصباح من شهر إبريل / نيسان حين تعرفت إلى المدينة الكنسية القديمة. وفيما كنت أسير ببطء على طول الطريق رأيت اثنين من مقدمي الكنيسة؛ أصغرهما سناً يحمل مظلة تخيم فوق رأس الآخر الذي يفوق الأول سناً وأهمية، وكان يتبعهما على مسافة لا بأس بها عربة يجرها حصان. وعندها ظهرت الفكرة جلية، لأن مأدبا كانت على الرغم من تاريخها القديم الذي يرجع أيام حروب اليهود قد وصلت إلينا بوصفها مدينة مسيحية، وتلك سمعة ما تزال تحافظ عليها إلى اليوم.

تقوم مأدبا على أرض مرتفعة وسط سهل دارت عليه معارك كثيرة؛ ولكن المدينة ذاتها بأسطحتها المستوية لا تظهر أي ملامح مميزة، ولا تختلف عن أي قرية شرقية. وهناك إلى الشمال من التل الذي تقوم عليه البلدة الحديثة فوق الأساسات القديمة تل آخر ما يزال يحفظ بعض الخرائب، وأبرزها عمودان يعلوهما الساكف، وهذان العمودان معروفان بين الناس هنا باسم مشنقة أبي روق؛ وهو شيخ عرف بالفصل في الدعاوي بين الناس هناك. ومع أن مأدبا لا تتمتع بأي معلم يستأثر باهتمام القادم من خارجها؛ إلا أنها تتميز مع ذلك بسحر أجماتها، وما تحويه من أشجار ونباتات أكثر مما تتميز بعمارتها، لكن المرء يغدو شديد الولع بها حالما يكتشف ما بداخلها.

وليس هذا معناه أن في هذه البلدة أي عمارة عظيمة تجتذب الانتباه، أو مجموعة من الأعمدة أو آثار معبد أو مسرح أحسن حفظه ليمتع العين؛ إنما المراد بالأحرى القول إنك حين تتجول بين البيوت الصغيرة أو الملحقات تصادف أينما اتجهت أسس الكنائس البيزنطية والفسيفساء الإغريقية التي تشتهر بها مأدبا.

تقع مأدبا– أو ميدبا كما كانت تسمى في الأزمنة القديمة– على الطريق الروماني بين ديبون وحشبون، وإلى الشمال هناك مرتفع جبل نيبو المستطيل الذي ربما كان النبي موسى قد صعده ليستطلع أرض الميعاد، وإن كان هناك من يذهب إلى أن المشهد الأجمل والأرحب الذي يطل عليه جبل أوشا كان قبلة عينيه، وجبل نيبو على كل حال موقع مقدس يضم آثار ما قبل التاريخ؛ من أضرحة تتألف من أحجار كبيرة موضوعة فوق عدد من الأحجار (الدلمن)، ونصب حجري عمودي (المنهير)، وكان ذات يوم على ما أنبأنا الحجر المؤابي مذبحاً مقدساً مكرساً ليهوة.

لقد اكتشف الحجر المؤابي في ديبون عام 1868، وهو ينبئ بانتصارات الملك ميشا ع الذي يسميه الكتاب المقدس «صاحب الماشية»، واضطر لدفع أتاوة لإسرائيل. إلا أن الأحوال انقلبت في عهده فاستطا ع استعادة الكثير من الأراضي التي أضاعها، ومن ذلك ميدبا التي ظلت في ملك الملك أومري طوال أربعين سنة. كذلك أغار ميشا ع بناء على أوامر من إلهه كموش على معبد يهوة على جبل نيبو، ومضى يجر الأقداس أمام إلهه، وهاكم روايته:

«قال لي كموش امض وانتزع نيبو رغماً عن إسرائيل؛ فمضيت في الليل وقاتلتهم من الفجر حتى الظهر فانتزعته وذبحتهم جميعاً.... سبعة آلاف رجل وامرأة وصبية لأني قدمت هذا النصر قرباناً لعشتار / كموش. ثم انتزعت عندئذ .... يهوة وبذلت ذلك أمام كموش».

إنها قصيدة تتغنى بالنصر، ويكاد المرء يسمع ميشا ع يطلق الزغاريد استحساناً وزهواً، ويظهر علامة ابتهاج فاضح للنصر الذي حققه بيديه، وهذا ما أدى إلى إنزال العقاب المباشر بشعبه. إذ ينبغي لآلهة الكفار ألا يستخفوا بالرب.

صورة [مقابل ص 156 في النص الانكليزي]
خربة السوق الصغيرة

كانت مأدبا تخص رأوبين الذي كان يملك الأراضي من عروعير الواقعة على ضفة نهر أرنون والمدينة الواقعة وسط النهر، وكل سهل ميدبا عند ديبون؛ ولكنها كانت تدعى في عهد هيرود «مدينة الأنباط». وكانت مزدهرة على الدوام وبالأخص تحت حكم ملوك الأنباط الذين يبدو أنهم أرادوا أن يقيموا مركزاً آخر لممتلكاتهم في الشمال، وليس قريباً من دمشق. وكان يحكمها استراتيجوس (حاكم ولاية) وهو منصب موروث أحياناً، وقد ورد في نقش كان قد اكتشف على بعد ستة عشر ميلاً جنوب شرقي مأدبا، وهو الآن في متحف الفاتيكان أن النصب أقامه رجل يدعى عبد عبادة وولده، «في كرسي ولايتيهما اللتين مارساهما طوال ستة وثلاثين عاماً في عهد الحارث ملك الأنباط، ومحب شعبه»، وأنجز هذا العمل المشار إليه في السنة الأربعين والسادسة من حكمه (37 ق.م).

وبعد حصار شديد استولى الكسندر ينايوس على مأدبا، وقد وعد ابنه هيركانوس بإعادتها إلى الأنباط، ويبدو أنه قد بر بوعده، بالإضافة إلى مدن أخرى لقاء دعم الملك الحارثة لقضيته. وقد استولت عليها روما مع بقية البتراء العربية؛ فغدت مدينة ذات مكانة مرموقة بين مدن الإمبراطورية الشرقية، وبلغت أعلى درجة من الفخامة والعزة في القرنين الرابع والسادس. والأطلال التي نراها اليوم إنما تعود إلى تلك الفترات، إذ إن العمارة البيزنطية صارت تقوم على الأساسات الرومانية.

لقد عانت مأدبا كثيراً بسبب المعارك التي دارت حولها وأعمال الحصار التي طوقت أسوارها، وهذا يعزى إلى وضعها المكشوف؛ نظراً لأنها تقوم على منحدر بسيط عوضاً عن أن تكون منتصبة على رأس تل منيع. ومن أخبارها أن عصابة من اللصوص اتخذوا

مقرهم هناك ذات مرة قد قتلوا ابن مثياس المكابي؛ فتعرضت المدينة للحصار والاستيلاء من ذلك الفريق رداً على تلك الجريمة. ونتيجة لهذا العدد الكبير من الاضطرابات لم يعد هناك إلا القليل من آثار المدينة القديمة، وإن كانت أسس الكنائس الاثنتي عشرة وبعض أطلالها لاتزال باقية، ومعها أعمدة قليلة في شارع الأعمدة.

والمدينة الحديثة مبنية على تل الاكروبوليس، وبين هذا التل والآخر الواقع إلى الشمال منه يمتد شارع الأعمدة. وهناك إلى الشمال الغربي آثار أحد أبواب المدينة وأجزاء من الأسوار، أما التل الشمالي فتعلوه آثار عمارات خربة. وقد كانت هناك ذات يوم بازيليكا كنيسة قديمة، وعلى موقعها بنيت الكنيسة الأرثوذوكسية الحديثة التي تضم الخريطة الفسيفسائية؛ وهناك في الطرف الآخر الكنيسة الكاثوليكية ونزل المسافرين، وكان بالقرب منها بازيليكا قديمة أيضاً. أما العمودان اللذان أطلق عليهما العرب اسم «المشنقتين» فكانا ذات يوم مدخلاً لأحد المعابد.

وهذان العمودان ليسا من النصب أو المسلات؛ وإنما يتألفان من ثلاث قطع منفصلة، وتتألف رقبة القبة من قطعتين؛ وهذه أقدم من التيجان الأصغر كثيراً، والتي لا تتوافق مع بعضها، وإحداها أيونية والثانية نسخة بيزنطية عن الكورنثية. وأبدان الأعمدة أقدم من التيجان، ويقال إنها تعود إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي، ويمكن رؤية علامات القبائل البدوية التي رسمت عليها في زمن ما.

ينصب الاهتمام الرئيس على خريطة الفسيفساء الفذة التي لم تكتشف إلا مؤخراً، وما بقي منها موجود على أرض الكنيسة الأرثوذكسية، سوى أن معظمها قد أتلفه الجهل والرعونة، وإهمال أولئك الذين كان يجدر بهم العناية بها لكونها فريدة من نوعها.

ولا يعرف إلا القليل عن تاريخ الفسيفساء والتبليط بالترصيع بالفسيفساء؛ لكن يرجح أن يكون اليونان قد أخذوا هذا الفن عن الشرق بعد فتوحات الإسكندر الكبير. وليس هناك من مصطلح يعرِّف هذا الفرع من الفن على ما يقال لنا، حتى عهد متأخر نسبياً؛ مما يبرهن على أنه لم يكن شائعاً في وقت أبكر من زماننا. وقد يكون الإغريق أخذوا فكرته عن المصريين أو سكان ما بين النهرين، أو استلهموها من القرميد المصقول بالميناء والمضبوط في

أشكال متناسقة عند الفرس، وأقدم مثال عرف عن هذا الفن في القاعة الأمامية لمعبد الاله زوس في جبل الأولمب، ويعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. ولقد استخدمت الفسيفساء في اليونان في القرن الثالث، ثم أخذت روما هذا الفن، والمؤكد أنها أفادت منه كثيراً لملاءمته للغرف الفسيحة التي بلغ فيها استخدام التبليط فوق التسخين المركزي درجة الكمال. وليس ثمة من دليل على أن سورية أخذت هذا الفن عن الشرق الأبعد أم عن اليونان؛ إنما يكاد يكون من المؤكد أن هذه الأخيرة كانت المصدر، وكل الفسيفساء في مأدبا إغريقي أو بيزنطي.

وقد عثر على الخريطة العظيمة التي نتحدث عنها مصادفة؛ وتفصيل ذلك أن الكنيسة الأرثوذوكسية الجديدة بنيت في العامين 1896 – 1897، على موقع كنيسة قديمة تنتهي بمحراب، وكانت الكنيسة الجديدة أصغر حجماً من القديمة، إنما تنتهي أيضاً بمحراب. وفيما كان يجري بناء الكنيسة وتوابعها أصيب بلاط الفسيفساء بتلف لا يمكن إصلاحه.

وكان أول من استلفتت الخريطة انتباهه قس كتب إلى بطريرك الأرثوذوكس في القدس المونسينيور نيكوديموس يفيده بأنه شاهد في مأدبا خريطة من الفسيفساء عجيبة، وطلب توجيهات البطريرك، إلا أنه لم يتلق رداً من البطريرك. وكان السبب في ذلك نقل البطريرك إلى القسطنطينية ليحل محله المونسينيور جراسيموس. وقد وجد البطريرك المعين كتاب القس في العام 1896، ورأى أنه حقق اكتشافاً مهماً فأرسل كبير البنائين ليعاين المكان، وضم الفسيفساء إلى الكنيسة الجاري بناؤها.

ومن المؤكد أن هذا الرجل لم يكن مهندساً معمارياً كما يروي السيد كليرمون جانو في كتابه Recueil d’Archeologic Orientale؛ لأنه ذكر في تقريره أن الخريطة ليست على درجة عالية من الأهمية كما قيل، ولقد سمح بقطع أجزاء منها في أثناء عمليات البناء على نحو لا يمكن أن يغفر له. فقد كانت الخريطة الكبيرة بشهادة أربعة قساوسة كاملة تقريباً قبل بناء الكنيسة الجديدة، وبعد قيام الكنيسة صار بعضها خارج الكنيسة، كما قطع ذلك الجزء المحفوظ في الداخل للسماح بإقامة شبه عمود.

لم يزر المونسينيور جيراسيموس مأدبا؛ إلا أنه لم يفقد الاهتمام بالخريطة فأقنع الأب

كليوباس قيم مكتبة البطريركية الأرثوذوكسية بزيارة الكنيسة بهدف تحديد القيمة الحقيقية للخريطة. فوضع الأب كليوباس رسوماً وقال إن هذا الاكتشاف أحد أعظم المكتشفات الأثرية والتاريخية أهمية، وبعد زيارته تولى فحص الخريطة خبراء أكدوا تفردها.

إنك حين تدخل الكنيسة الأرثوذوكسية تجد قسماً من أرضيتها مغطى بالألواح التي يمكن نزعها إن شئت تفقد تلك القطعة الغالية. ولسوف تجد أمامك جزءاً من خريطة فلسطين، وأدعى ما فيها للاهتمام خريطة القدس التي باتت الآن معروفة أفضل معرفة. وتظهر الخريطة المدينة المقدسة كما كان حالها في أيام جوستينيان في أوائل القرن السادس، فهي تسمى هنا ايليا كابيتولينا بأسوارها وأبوابها وشارع الأعمدة المستقيم الذي يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب. وتظهر الأبنية الرئيسة هنا– وأدعاها للاهتمام كنيسة الضريح المقدس– جلية واضحة بأبوابها الثلاثة وقبتها.

وألوان الحجارة ليست اصطناعية؛ بل من الجلي أنها مأخوذة من الجبال المجاورة، وأسوارها ومبانيها ساطعة اللون، أما الخط الكثيف فأسود اللون أو بنفسجي، والأسماء مدونة بالإغريقية.

يمتد شارع الأعمدة في مأدبا من الباب الشمالي في السور الشرقي حيث ما يزال هناك برج من أبراج المراقبة، وفي الخارج ثمة صهريج ذو سلم يؤدي إلى ما كان مدة طويلة حفرة خالية؛ نظراً لأن البدو كانوا يوردون قطعانهم هنا. وداخل البوابة على الطرف الجنوبي كنيسة القديس إلياس التي تعود إلى القرن السابع، إذ اكتمل بناؤها في العام 607–608 في عهد الأسقف ليونتيوس. وجل ما بقي من هذه الكنيسة جزء من الجدار وأرضية فسيفسائية، وهناك درج قديم يفضي إلى السرداب خرِّب بعضه، وهو ينتهي بدوره إلى محراب الكنيسة، وله أرضية من الفسيفساء وأربعة نقوش تفيد بأن السرداب بني في العام 595–596 ميلادية في زمن الأسقف سرجيوس. وإلى الشرق قليلاً من هذه الكنيسة موقع كنيسة أخرى ذات أروقة ثلاثة. وتمثل أرضية الفسيفساء معينات داخلها غزلان وطيور ونباتات وفواكه، ونجد وصفاً مثيراً لهذه الكنائس مثيراً للاهتمام– فضلاً عن خمس كنائس أخرى– في كتاب البروفسور موزيل (البتراء العربية) (Arabia Petraea).

ما يثير الاهتمام في هذه الأرضيات الفسيفسائية أنها تبدو جميعها في مكانها الخاص المناسب؛ لكن شيدت فوقها بيوت ريفية، أو تُركت على أرض المنافع الخارجية إذ إنها مغطاة بالتبن والقش والغبار. ويتولى المالك من جانبه توفير الماء وفرشاة وتنظيف مساحة من هذه الأرضيات ليغدو بالإمكان فحصها، ولعل الرجل يقف هناك محاطاً بالنساء من أهله، وبيد كل منهن فرشاة أو سطل ماء، مستغرباً أشد الاستغراب فضول امرأة أجنبية تقف وراء أبواب داره. وكان ثمة بلاطة معينة أثارت لدي أقوى انطباع، وكانت هذه على أرض مخزن للمحاصيل، وعلى هذه البلاطة رسمت الزهور والفاكهة والحيوانات على أجمل ما يكون الرسم والتزيين، وعند كل زاوية هناك رأس إنسان.

إن مأدبا لجديرة بأكثر من زيارة سريعة؛ وقد يجد من لديهم الوقت والإدراك في الزرائب والخرائب كل الطرائف المثيرة للاهتمام، من أقبية مهدمة وأسطح أسطوانية مستديرة، وشظايا من حجارة الساكف والأعمدة والتيجان المنحوتة، وصهاريج لحفظ الماء، وآثار زينة لقوم بادوا. والجولة في المنطقة ممتعة كل الإمتاع، وهناك العديد من المناطق المثيرة للاهتمام بالقرب من الموقع. وما ديبون وحشبون وأريكة الأمير على سبيل المثال لا الحصر، إلا بعض المواقع الجديرة بالزيارة. وأريكة الأمير هي بالتأكيد من أشد الأطلال مدعاة للاهتمام في البلاد، وأحد المواقع القليلة التي تظهر التأثير اليوناني في العمارة والزينة.

وكانت أريكة الأمير – صخرة الأمير – قد بنيت في العام 176 ق.م على يد كاهن يدعى هيركانوس، من أسرة الكاهن الأكبر الذي كان حاكماً للقدس. وقد نشبت بين هيركانوس وأشقائه خصومة؛ لأن الناس كانوا يتباركون بهذا الاسم دائماً، فهرب هيركانوس منهم وعبر نهر الأردن، وشيد قلعة بيضاء رائعة بالقرب من صخرة، وعلى الصخرة ذاتها أنشأ قصراً آخر؛ فغدا الموقع محمياً أشد الحماية بأسوار قوية. وقد سمى هذا القصر صوراً، وأقام فيه سبع سنين، وكان ينتجع إلى صخرته كلما لاح خطر في الأفق. وللمرء أن يرى بين طرائف هذا القصر منحدراً حاداً محفوراً في الصخرة ويمضي من طابق إلى آخر، وكانت الدواب تصعد وتنزل عبر هذا الممر إلى اصطبلها، حيث لا يزال ما يزيد على مئة معلف يفصل بينها فاصل من الحجر ولكل منها حلقة من حجر لربط الحيوان.

ولقد زيَّن هيركانوس القصر بتماثيل هائلة تصور أسوداً، وأجزاء منها ما زالت باقية، وكان له فناء تصب فيه ينابيع، ويحيط بقصره خندق ماء عميق. وهذا الرجل الذي يبدو بالمناسبة على قدر عظيم من القسوة وأساء معاملة العرب قد انتهى إلى مصير قاس؛ فقد كان آمناً طالما ظل سلوقوس ملكاً على سورية، ولكن حين مات وحل انطيوخوس محله خشي أن يلحقه انتقام من إخوته، فعمد إلى الانتحار في قصر ملذاته الجميل. فاستولى انطيوخوس على القلعة وجمع ثروات هذا المنغمس في اللذات الذي يبدو أنه لم يأسف عليه أحد.

وهناك موقع آخر لمدينة منسية أخرى، وإن بقي منها القليل، وتقع بين مأدبا وعمان، ويضم هذا الموقع ضريحاً وبعض الأعمدة الأيونية المنتصبة في أحد الحقول، الذي هو شعلة متأججة من الأزهار البرية، فتستلفت نظرك فيما أنت تمضي على الدرب؛ تلكم هي خربية السوق – الخرابة الصغيرة كما يستدل من الاسم.

ولقد أمكن لي أن أختص بغرفة بفضل حسن ضيافة الأب زكريا كومالي في المضافة في مأدبا، فمن الممكن للمرء أن يحظى بغرفة في هذه المضافة إن عرضت أمرك على القوم هناك.

لطالما كانت مأدبا مركزاً عظيماً للمسيحية ومقراً لأسقفية، وكما كان حال جميع المدن الأخرى سقطت مأدبا بعد سقوط روما، ولم تعد مأهولة حتى العام 1881، حين سمح لألفين من المسيحيين من أهالي الكرك بالاستقرار هنا. ويرجح أن يكون ثمة عدد معين من السكان غير النظاميين، نظراً إلى أن السكان ليسوا جميعهم من المسيحيين، وإن كانوا كذلك بصورة أساسية. ولقد استقر الوافدون الجدد أولاً في الكهوف التي تكثر في المنطقة، إلا أن بلدة جديدة بدأت تنشأ وجمعت التبرعات لبناء الكنائس.

كان المسيحيون يحظون في عهد من العهود بمعاملة حسنة في الكرك، ويبدو أنه ليس ثمة سبب لمغادرتهم البلدة. وفي العام 1845 صدرت تعليمات للمسيحيين بارتداء قفطان مميز أزرق اللون، باستثناء أهالي الكرك والشوبك، حيث سمح لهم أن يرتدوا ما يريدون، وكان سكان الكرك في وقت ما على صلة بالوهابيين، وإن لم يكونوا ليدفعوا لهم الجزية،

ولست أدري إن كانت هذه الواقعة قد أسهمت في جعل وضع المسيحيين صعباً. ولكن اللاجئين من الكرك تحولوا عن الكنيسة الأرثوذوكسية إلى الكاثوليكية، وصاروا من ثم يخضعون لبعض القساوسة الجزويت، وهناك عدد كبير من الأرثوذوكس، ومن أجلهم قامت الكنيسة الارثوذوكسية على الأرضية التي تحمل خريطة الفسيفساء.

الفصل الخامس عشر
ربة عمـون

تقوم عمان– القرية الشركسية التي غدت عاصمة دولة شرقي الأردن الحديثة– على أرض عاصمة أبناء عمون القديمة، وإحدى المدن العشر اليونانية والرومانية (الديكابوليس). وهذا موقع متلو غريب، يتبع مسافة من الدرب نهر عمان، وهو الامتداد العلوي لنهر الزرقاء، المسمى في الإنجيل يبوق. وكان ممتلئاً بالماء حين رأيته في أوائل الربيع، وضفتاه خضراوان عامرتان بأشجار الصفصاف، ومزينتان بأزهار التفاح الحمراء الوردية ما يجعل هذا البلد في أحيان كثيرة على تناقض حاد مع التلال السامقة التي تحيط بالوادي المتلوي.

يغطي الجوانب السفلية من التلال الكثير من النباتات لكن الكهوف تجعلها كالغربال، والجزء الأعلى منها مجرد صخر. وجوانب التلال الشاهقة إلى أبعد حد والوديان الضيقة بينها تجعل أول انطباع عن عمان يوحي بالقوة والعزلة أكثر من كونه يوحي بالجمال. والآثار الرومانية الرائعة منسجمة أشد الانسجام، والوضع الذي يوحي بالصرامة؛ لكن الشارع الحديث بما يحفل من ضجة وألوان نابضة بالحياة يقدم لنا إشارة مختلفة.

تتألف ربة عمون– معقل العمونيين– من البلدة السفلية ويشار إليها باسم «مدينة المياه»، والبلدة العلوية والقلعة على هضبة الأكروبولس. وحيثما اتجه المرء يجد آثار أقوام العصر الحجري الذين كانوا أول من سكن هذه المنطقة، أو القوم الذين ليس لدينا عنهم أي قدر من المعلومات. وهناك في البلاد العديد من المدافن والكهوف المأهولة.

ونجد في كتاب الكولونيل كوندر: مسح شرق فلسطين (Survey of Eastern Palestine)– الذي نشرته لجنة صندوق استكشاف فلسطين– خمسة عشر أنموذجاً لنصب بدائية من الحجارة في الجوار. عشرة دلمانات، وستة منهيرات. كذلك هناك في الجوار نواويس وقبور صخرية وقبور الكوكيم اليهودية أيضاً.

ولقد جاء العماليق بعد سلالات ما قبل التاريخ، وكان بعضهم موجوداً حين بدأ الإسرائيليون يقاتلون، وهم يشقون طريقهم إلى أرض الميعاد. فتتصل الإشارة الأولى في

الكتاب المقدس إلى ربة عمون بالسرير الحديدي الضخم الخاص بـ «عوج» ملك الباشان [حوران]، الذي لا يمكن أن يكون «الوحيد الذي بقي من العماليق» كما ذكر بعضهم، ولقد أصيب أبناء إسرائيل بالذعر الشديد من ضخامة هؤلاء وصفاتهم القتالية. كما ورد أن هذا السرير إنما كان في الواقع عرشاً، وشاعت فكرة تقول إن أحد الدلمانات الضخمة ربما كان يدعى «عرش عوج». وأُقر بأني عازفة عن الابتعاد عن القول الأول، والصورة التي يقدمها هي سرير حديدي هائل قياسه أربعة أمتار ونصف طولاً ومتران عرضاً!

إن المأساة التي ترتبط أساساً بربة عمون هي مأساة طالما تكررت رواياتها، ومن الإسراف أن يحاول المرء وضعها في البيئة التي جرت فيها، لولا أن هذه القصص القديمة كل ما لدينا ليعيننا على استعادة رؤى الماضي. إنها لمأساة كريهة أيضاً، ومقيتة مثلما هي مقيتة كل مأساة يمكن أن نتبجح بها في هذه الأيام.

لطالما كانت الأرض الواقعة وراء نهر الأردن ملجأ يفزع إليه الراغبون بملجأ؛ فعندما حذر يوناتان داود من أن شاول عازم على قتله عبر الأردن، ولجأ إلى ملك مؤاب الذي أحسن استقباله. وكانت جدته راعوث مؤابية، ولعل هذا ما حفزه على نشدان المساعدة من قوم هم قرابته، ولقد سأل الملك أن يستقبل والديه حتى تنقضي العاصفة، وكان له هذا. وبعد أن خلف داود شاول بلغه خبر موت ملك العمونيين ناحاش، وكان قد شد من أزره يوم محنته؛ ولذلك أرسل إلى ولده حنون الوفود لتعزيته بمصابه. ولئن كان من اليسير كل اليسر لوم العمونيين لإهانتهم موفدي داود؛ فإن علينا أن نتذكر أن هذا كان الحال دوماً بين البلدين. فقد دأب ناحاش على سيرته بأن ينتزع من الأسرى اليهود العين اليمنى ليضمن ألا يعودوا إلى صفوف رماة السهام ضده، أو لعل داود أراد الانتقام، وقد يكون المراد استخدام رسالة العزاء وسيلة لاستطلاع أسرار القلعة. ولا تفصح الرواية إن كان الوفد قد ذهب إلى حيث أرسل من دون مرافقين، لكن ما كان بوسعهم أن يصطحبوا معهم الكثير من الرجال؛ بل يبدو أنهم مضوا في مهمتهم عزلاً من السلاح، إذ لم يكن في نيتهم سوى أداء مهمتهم السلمية.

صورة [مقابل ص168 في النص الإنكليزي]
الملك حسين، ملك الحجاز

فكيف بلغوا مقصدهم؟ أفتراهم سلكوا طريقهم إلى الوادي بين التلال العالية، يستطلعون ما كان هناك من تحصينات وخنادق على التلال الشمالية؟ أم لعل الخشية خالجتهم، أو ربما الأرجح أن يكون قد تملكهم التيه لكونهم رسل ملك عظيم إلى رجل دونه كثيراً. ومهما اختلفت مشاعرهم فقد أسرعوا مبتعدين، وهم يشعرون بالامتنان لنجاتهم بحياتهم، وكذلك بالغضب الشديد لما لحق بهم من مهانة.

ولقد كان العمونيون يعلمون تبعة ما فعلوه، وأخذوا يعدون العدة للقتال؛ فمضوا واستأجروا مرتزقة من سورية، ووضعوهم قريباً من مأدبا، بينما اهتموا هم بحماية قلعتهم والبلدة السفلية. فلما قدم قائد قوات، داود صار بين الجيشين، ولكنه تمكن من هزيمة السوريين بنصف ما لديه من قوات بينما أخذ في قتال العمونيين بالنصف الآخر. فانكفأ هؤلاء إلى داخل قلعتهم، ومضى يؤاب عائداً إلى القدس.

وفي الربيع التالي عاد يؤاب إلى عمون وأحكم حصارها، بينما مكث داود في القدس حيث وقع في هوى بتشابع، وكان زوجها أوريا الحثي يشارك في الحصار. والقصة طبعاً قصة إحدى «الوثائق الإنسانية» التي تروى في الكتاب المقدس بواقعية باردة. ويلوح لنا أن الجندي استدعي من حصار الربة؛ وقابله الملك وأخذ يسأله عن أخبار ساحة القتال، وأرسل إليه قطعة من اللحم من مائدته وأشركه معه في الشراب، وأسكره قبل أن يبعث به من جديد إلى ساحة الحرب، حاملاً رسالة إلى يؤاب كان سيدرك خطورتها لو دفعه

الفضول لقراءتها. فقد ورد في هذه الرسالة ما يلي: «وجهوا أوريا إلى حيث يكون القتال شديداً، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». [سفر الملوك الثاني: ف11: 15]

وهذا قول صريح لا يحتاج للمزيد؛ فنفذ الأمر بالحرف في مكان ما عند أسفل القلعة، وسقط يومئذ أحد شجعان العالم، وكان تعليق داود: «السيف يأكل هذا وذاك». ثم أرسل في طلب بتشابع واتخذها زوجة قبل أن تلد طفلها.

ولقد تمكن يوءاب من أن يستولي على البلدة السفلية مدينة المياه؛ وكان يظن يومئذٍ أن القلعة لا بد ساقطة قريباً؛ فأرسل إلى داود رسالة يطلب رفده بتعزيزات إضافية، وأن يحضر الملك ليشهد بشخصه مجد الاستيلاء على معقل العمونيين. فحضر داود، وسقطت المدينة. ثم التقى الملك المغلوب الذي كان قد استقبل سفراءه لتقديم العزاء بالاحتقار، فنزع عن رأسه تاجه الكبير الذي بلغت زنته مقدار تالن ذهباً، ووضعه على رأسه، والتفت بعدئذٍ إلى حامية القلعة فأنزل بها أشد العقاب. واستولى على كميات كبيرة من الغنائم من الذهب والفضة، قدمها فيما بعد للمعبد في القدس، وعاد عبر نهر الأردن وهو يتذوق بلا ريب حلاوة الانتقام.

واستمر العمونيون في دفع الجزية لداود، وكانوا يقدمون إليه كل أنواع المؤن حين قطع الأردن مرة أخرى لقتال ابنه الحبيب أبشالوم. فقدموا فرشاً وأوعية خزف وحنطة وشعيراً ودقيقاً وفريكاً وفولاً وعدساً وحمصاً مشوياً وسمناً وضأناً وجبن بقر لداود وللشعب الذين معه، لأنهم قالوا إن الشعب جياع وقد تعبوا وعطشوا في القفر [سفر الملوك الثاني: ف 17: 28—29]

ولقد قُتل أبشالوم الجميل في غابة في جلعاد، وذلك على ما يبدو حين علق شعره وهو يمتطي حصانه بغصن إحدى الأشجار، وقد راح داود يندبه؛ فكان رثاؤه لأبشالوم أشد أقواله وقعاً في النفس: «يا بني أبشالوم يا بني، يا بني أبشالوم يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابني! يا بني!». [سفر الملوك الثاني: ف 18: 32]

صورة [مقابل ص 170 في النص الانكليزي]
الخرائب الرومانية في عمان

والعمونيون– الذين كانوا كثيراً ما يتلقون الضربات– يستعيدون دائماً قواهم وينهضون، وهم مقيمون أبداً على عدائهم لليهود؛ فلقد قهرهم يوتام وفرض عليهم الاتاوات، وكانوا ذات يوم يدفعونها لبابل. وكانوا يسعون دائماً إلى عرقلة كل تطور على الضفة الأخرى من الأردن، وكانوا دائماً مندفعين لمساعدة أعداء إسرائيل أو يهوذا، ويقول يوسيفوس في هذا: لقد استنكرت سورية المجوفة بشدة أن يبنى المعبد في القدس بسرعة. وقد انضم العمونيون إلى السوريين في الحرب على المكابيين ودُحروا على أيديهم.

وهنا دارت واحدة من أشد المعارك وطأة على الأنباط الذين كانوا قد أنزلوا بهيرود الكبير ضربة قوية، وساعدهم على أمرهم قائد قوات كليوبترا، في مكان ما قرب القنوات. والتف هيرود للهجوم على عمان أو فيلادلفيا، كما كانت تدعى، وحقق نصراً حاسماً مكنه من أن يغدو حاكماً على سورية المجوفة. ويبدو أن الأعراب– كما يدعوهم يوسيفوس هنا– قد لجؤوا إلى القلعة، واضطروا إلى الخروج منها حين اشتد بهم الإرهاق وألم الجوع. وعندما لم يجدوا لأنفسهم مجالاً للانتشار أنزلت بهم مقتلة مأساوية على أشنع شكل، فعرضوا أنفسهم للموت بدلاً من محاولة الهرب، بالإضافة إلى أنه فات الأوان على ذلك.

وقد مات العمونيون الشجعان بعد قتال شديد، واستعادوا ممتلكاتهم حين صارت القبائل [اليهودية] إلى الأسر، ونجد تعبير ذلك حين يوجه إرميا عباراته ضدهم كالرعد بعد ما أعلن نبوأته في مؤاب:

«على بني عمون؛ هكذا قال الرب: أفليس لإسرائيل بنون أو لا وارث له؛ فما بال ملكوم قد ورث جادا وسكن شعبه في مدنه؟» [نبوءة إرميا؛ ف 49:1]

لا يعرف متى انتهى أمرهم بوصفهم شعباً، وتشتت شمل بقاياهم، وأصبحوا جزءاً من خليط سكان فلسطين الشرقية. أما ربة عمون فكانت إحدى المحطات على طريق قوافل البتراء، ويبدو أنها كانت تتمتع بقدر من الرخاء، ولا بد أن البلدة السفلية كانت تضم في الأرجح بعض المباني الفخمة؛ نظراً لما كان يقال عن وجود «قصور»، ونحن نعلم أن داود حقق لنفسه قدراً واسعاً من المغانم من القوم الذين نالوا بطريقتهم الوحشية الرفاه وبلغوا العظمة.

«ما بالك تفتخرين بالأودية؛ لقد ذبل واديك أيتها البنت العاصية المتوكلة على كنوزها القائلة من يقدم علي». [نبوءة إرميا، ف 49: 4]

ولربما وضعت حروب الإسكندر الكبير اللمسة الأخيرة على خراب ربة عمون، والأيام العظيمة الخوالي انقضت، ولكن «الوادي المتدفق بالمياه» ما زال يجتذب البناء الذي ينشد موقعاً؛ فاختار هذا الموقع أولئك الذين وجههم بطليموس فيلادلفوس حاكم مصر للبحث عن مكان لبناء مدينة. وكان لهذا الموقع مزايا كبرى عديدة؛ فكان النهر الذي يجري في الوادي المتلوي كنزاً حقيقياً في بلد يندر فيه الماء، ثم لا ريب بأن الصخور البارزة حيث كانت بقايا القلعة العمونية تعرض موقعاً مثالياً لقمة جبل مأهول. وعلى أنقاض ما بقي في البلدة السفلية قامت المدينة اليونانية – الرومانية، بيضاء ناصعة تخطف الأبصار، مثالاً للجمال والتناسق، ابتناها معمروها لتوفر لهم الراحة والروعة والترف أيضاً، شأنها شأن تلك المدن الكلاسيكية جميعها. وفي الأعلى كان ثمة أشغال هندسية رفيعة ضخمة تجري على قدم وساق منذ فترة طويلة من الزمن، قبل أن يطرأ التحول على المكان ويحدث حسب معايير ذلك الوقت. وقد سميت مدينة المياه الجديدة نسبة إلى مؤسسها، وصارت

تعرف «فيلادلفيا هيراكليس سورية المجوفة». وصار راعي هذه المدينة الإله الإغريقي، رب الحظ عند أهالي فيلادلفيا، مع الإلهة بالاس أثينا رفيقته، بدلاً من الإله القاسي بعل القديم. ولا ريب بأن التغيير كان تاماً؛ وإن ظل بقية من العمونيين يشكلون سكان مدينة أضيفت إلى المدن العشر المعروفة باسم «ديكابوليس».

الفصل السادس عشر
فيلادلفيا

فيما كان الإسكندر الأكبر يحتضر في بابل أهدى خاتمه للقائد الأثير لديه برديكوس، وقد حفر عليه العبارة التالية «إلى الأجدر». وعلى ذلك أصبح برديكوس الوصي على العرش، ومن ثم كان من الضروري عقد اجتماع للقادة ليقرروا كيف سيكون توزيع الإمبراطورية بين أقواهم، وقد تقرر فيما بينهم أن يسمى شقيق الإسكندر فيليب ملكاً، لكنه لم يكن حاضراً بين هذا الجمع. كما تداول كبار القادة في مسألة تقسيم الإمبراطورية فيما كان جثمان الفاتح العظيم مسجى لم يوار التراب بعد، ومنسياً من المؤتمرين. ولم يكن قد مضى آنئذٍ سوى تسع سنوات على عبوره مضيق الدردنيل، وقد جعل السنوات التسع هذه حافلة بالأمجاد والضجيج والرنين والمآثر التي خلدت اسمه على مدى العصور.

وكان قرارهم أن تقسم الإمبراطورية إلى ولايات يحكمها هؤلاء القادة؛ فصارت مصر لبطليموس الذي عزم على الإمساك بمقاليد الحكم فيها بصفته ملكاً، وكان ذلك مطمحاً أفلح في بلوغه، لكنه أثار غضب برديكوس، فسار بجيشه ودخل مصر لمعاقبة بطليموس، لولا أنه اغتيل هناك. وكان الرجل الذي وجه الضربة الأولى من كان المغدور يحيطه دائماً برعايته، وهو الأثير إلى قلبه؛ أي سلوقس مؤسس السلالة السلوقية. ومن عجائب الأمور أن الرجلين بطليموس وسلوقس وأبناءهما وأحفادهما قد أفادوا من موت الطاغية برديكوس، وقدر لهما مع ذلك أن يكونا السبب في حرب لم تنقطع على مدى أجيال عديدة. وكان من شأن حروب الورثة أن تعصف بسورية كما عصفت كذلك بعدة بلدان أخرى، حروب مجنونة لا تنقطع، مبعثها الغيرة والرغبة في اختطاف منطقة من جار خشية أن يزداد هذا قوة فيطغى عليك.

كان سلوقس ابن أحد قادة جيش فيليب المقدوني، وكان هذا ذاته من الجنود المحظوظين، وفي مثل سن الإسكندر. وفي حفل الزواج المشهور في سوسة– حين قدم الإسكندر لقادة جيشه زوجات من بنات السلالة المهزومة– كان من نصيب سلوقس أباما، وعلى

خلاف معظمهم الذي عدوا المسألة من عوارض الحرب اتخذ سلوقس أباما زوجة له، ثم أصبحت أم خلفه. وكان سلوقس رجلاً ممتازاً، وحسن الطلعة، وجندياً يعتد به، وإنساناً حصيفاً. ولو أن ذريته اقتدت به لكان للسلالة السلوقية شان آخر، ولما كانت نهايتها كارثة فاجعة. بل إن الرجل العظيم الوحيد- أي أنطيوخس الثالث الكبير- خسر تقريباً كل ما كسبه بحد السيف.

وكان البطالسة في مصر طبعاً ينافسون السلوقيين، وأسس السلوقيون أنطاكية، وجعلوا منها مدينة رائعة الجمال، ذات عمارة فذة ومترفة وفق الأفكار السائدة في ذلك العصر. بينما كان البطالسة يعيشون في حال من العظمة بين أمجاد مصر الخالدة، وفي المدينة الجديدة الإسكندرية التي أسسها القائد الذي افتقدوه وهو في عز شبابه.

ولقد استولى بطليموس سوتير (المخلص) الأول على فلسطين ثم فقدها، وصارع سلوقس على سورية المجوفة، كما حرم ابنه الأكبر من إرثه، وأشرك معه ولده الثاني في حكم المملكة وخلفها له حين توفي. وكان ابنه هذا بطليموس الثاني- وعرف باسم «فيلادلفوس» (الحكيم)- هو المؤسس لفيلادلفيا ومدن أخرى، مثل بيرنيسه وأرسينوه وبطلمايس، في بامفيليا، وأرسينوة في ليسيا.

وكان من أخبار بطليموس أنه طلق زوجته الأولى ليتزوج بأخته أرسينوة، وكانت من النساء اللواتي يخلفن حشداً وراءهن. كذلك كانت حياتها فريدة فذة حتى في تلك الأزمنة؛ فقد كانت زوجة ليسماخوس، واضطرت للهرب إثر موته، ثم صارت زوجة أحد الإخوة، وزوجة لآخر من بعده، وبات آخر أزواجها فيلادلفوس متيماً بها، ورفعها إلى مصاف الآلهة بعد موتها؛ فعرفت بفيلادلفيا المقدسة.

صورة [مقابل ص 176 في النص الانكليزي]
المسرح الكبير، عمان

زار بطليموس فيلادلفوس مدينته مرات في أثناء زياراته الخاطفة إلى سورية المجوفة، ولسنا ندري إن كانت أرسينوة الثانية قد رافقته، ولا بد أنه كان يعتزم أن يسكن هذه المدينة في وقت ما، والشاهد على ذلك أن هذه المدينة بنيت على مستوى يليق تماماً بأن تكون مقراً ملكياً. ولكن الهدف الأول من ذلك كان واضحاً؛ وهو تأمين حماية خطوط الاتصال مع مصر واتخاذ حصن لصد هجمات العدو.

كانت القلعة تقوم على التل الشمالي المعزول تماماً عن التلال الأخرى التي تحيط به إلا من نقطة واحدة. وقد أقيم في تلك النقطة الضعيفة خندق على أيدي المدافعين الأقدم عن الموقع أو أقامه الغزاة المقدونيون. وكانت المنطقة عامرة كلها بالمباني التي تحيط بها الأسوار الضخمة وتطوقها الأبراج؛ ومن بين تلك المباني قلعة ذات شكل كحرف (L)، ومعبد ضخم بين العديد من المباني الأخرى الأقل شأناً. وقد انتصبت هذه البنى المعمارية إلى جانب ثلاث مصاطب متراتبة هائلة، وكل منها في مستوى أدنى من سابقتها. وكانت أعمدة المعابد والقصر تضفي على المشهد كله جمالاً كلاسيكياً.

كانت البلدة السفلية – وهناك بلدتان كما كان عليه الحال أيام العمونيين – قد شيِّدت على طرفي الجدول، وإن كان يبدو أن معظم الأبنية المهمة قد توضعت على الضفة الغربية. وكانت المعالم هناك كلها المألوفة في بلدة إغريقية رومانية الطابع، كما يقع شارع الأعمدة إلى جانب النهر الذي كانت القناطر تغطيه إلى مسافة لا بأس بها. وأما المعابد والأبنية المدنية والحمامات ودور السكن فكانت جميعها منفذة وفق المخطط المتراصف المألوف. وقد كشف عن المسرح، وهو مسرح جيد لمدينة مستوطنة، عند طرف التل على النمط الذي قامت عليه أوائل المسارح الإغريقية الأولى جميعها؛ فقد أطلت الثقافة الإغريقية مع الحروب التي لم تكن شديدة الوطأة على أولئك القوم.

ويقال إن مدن الحلف العشر ديكابوليس والتي شكلت فيلادلفيا في النهاية إحداها كانت مأهولة بجنود جيوش الإسكندر الذين خلفتهم الحرب. ولكن لا يمكن القول على وجه الإطلاق إن السكان جميعهم كانوا يتألفون من الغرباء؛ بل يرجح أن يكون الجنود قد تزوجوا فتيات من السكان الأصليين، وقد تكون المدينة العظيمة الجديدة التي انبثقت

في مكان مهجور خرب– بعدما ضربتها وأطاحت بها حروب متصلة– قد صارت الآن تجتذب الكثيرين. وكان أولئك الذين ينشدون بيع جمالهم أو أغنامهم، أو الذرة يجدون في المدينة الجديدة سوقاً جاهزة لتسويق نتاجهم.

وإنه لبوسع المرء أن يتخيل نظرات الاستغراب التي كانت تبرز على وجوه هؤلاء حين يرون مقدار روعة فيلادلفيا، ولعل التجار ما زالوا يرحلون حتى اليوم مع قوافلهم غرباً وشمالاً، ويعقدون المقارنات بينها وبين البتراء في الصحراء، أو جراسا (جرش) الحديثة العهد، أو حتى أنطاكية على نهر العاصي. أو ربما حضروا عرضاً في ذلك المسرح في صالة الغرباء، وحملوا بعدئذٍ معهم من الذكريات والأفكار ما يقطعون به الأمسيات، وهم متحلقون حول نار مخيمهم قبل أن يهجعوا للنوم ليلاً.

إن تلك البلدان على اختلافها تشبه قطعة من المطاط في تلك الأوقات أكثر منها في أي وقت آخر. وكان سلوقس قد أضاف في وقت من الأوقات إلى ولاية بابل التي بدأ في حكمها أولاً سورية كلها من خليج ايسوس حتى حدود مصر، وكان حاكم مصر المقدوني قد انتزع منه في وقت من الأوقات سورية. ولكن ذلك لم يكن أكثر من حكم جزئي قط، أياً كان ميله، إذ ثمة مدن معينة قد برزت وتمتعت بميزات خاصة بها.

ولقد اغتيل مؤسس السلالة سلوقس الأول وهو في الخامسة والسبعين، على يد بطليموس كرونوس الأخ الأكبر لفيلادلفوس؛ وتفصيل ذلك أن الملك العجوز أهمل الأخذ بالإشارات التي كانت تنبئ بشر مستطير يصيب حملته على مقدونيا، سوى أنه كان متلهفاً لمشاهدة موطنه ثانية، ويظن أنه كان ينشد أن يختتم أيامه ملكاً على مقدونيا، تاركاً لابنه البكر أنطيوخس العناية بإمبراطوريته المشرقية. وأما بطليموس كرونوس فكان قاتلاً مبتذلاً يؤثر أن يقوم يوجه الطعنة بنفسه، وقد سبق له أن قتل عدة أناس وعدداً من الأطفال أولاد أخته أرسينوة. فلما تمكن من قتل سلوقس استولى على مملكة مقدونيا وصادق فيلادلفوس وترك له مصر لينعم بها ثم اغتيل كرونوس على يد الغاليين قبل أن يمسك بمقاليد السلطة المطلقة التي سعى إليها كل السعي.

كتب إم. إيه. بوشيه لكليرك في كتابه المثير للاهتمام عن السلوقيين Histoir des

Seleucides: «لم يكن حل الوضع في آسيا أمراً سهلاً حين وصل أنطيوخس إلى العرش؛ ولكن على المرء أولاً أن ينحي جانباً تلك البلدان التي أهملها الإسكندر، وهددها برديكس وأومينوس وأنتيغونس بدلاً من أن يقهروها، وهي لا ترتبط بإمبراطورية السلوقيين إلا بضرب من التبعية الإقطاعية. ومن هذه الاقطاعات (الولايات) أو ممالك المستقبل اتروبتينيا في ميديا، وبونتوس وكبدوكيا وبيثينية. وكانت الأسر الحاكمة التي زُرعت هناك قد نصبت لنفسها مؤرخين للبلاطات وعلماء أنساب خاصين بها، وكان هؤلاء ينسبون إلى أجداد أولئك الملوك والأمراء استقلالاً صار أحفادهم يحصلون عليه شيئاً فشيئاً. وكانت تلك البلدان– بما فيها المدن الهيلينية الواقعة على شواطئ بحر أوشينة وبحر مرمرة– تحت نير الفرس، ولكنهم بعد فترة من الاضطراب الذي تخلل حروب الميديين اغتنموا كل فرصة فأخذوا قدر ما استطاعوا يرخون الوثاق الذي يربطهم بالفرس، فضلاً عن مقاومة استيعابهم في الإمبراطورية المقدونية.

اعتلى أنطيوخس الأول سوتير (المخلص) العرش في العام 281 ق.م، وظل يحكم طوال عشرين سنة. وكان واجبه الأول الانتقام لموت والده، وكان ذلك أمراً يستحيل تحقيقه في مقدونيا؛ لأن أنطيوخس غدا الآن ملكاً بعد أن كان مطالباً بالعرش، وقد اتبع خطى والده الذي استولى على ذلك اللقب. ومع أن المعتدي الأول قد مات فقد بقي البطالسة وهكذا بدأت أول حرب كبرى بين السلوقيين والبطالسة، في العام 279 ق.م، واستمرت ثلاث سنوات.

ولابد أن فيلادلفوس قد وجد فيلادلفيا آنذاك شديدة النفع؛ فقد كان سيداً من أسياد البحر بفضل امتلاكه أسطولاً، بينما لم يكن لأنطيوخس عملياً مثله تقريباً، كما وفرت هذه القلعة حماية لبقعة واسعة من الأرض، فضلاً عن الطرق التي أرسل إليها قوات الدعم والمؤن من مصر. وكان بطليموس فائق النشاط في هذه الحرب. فما كان يكتفي بأن يكون في ساحات الحرب وحيثما كان يشتد أوارها؛ بل كان يجد الوقت ليرسل السفارات إلى روما، كما كان يحرص أبداً على ألا يتيح لأنطيوخس الوقت ليركز قواه على مصر. ويقول بوزانيوس إن بطليموس أرسل لصوصاً إلى جميع المناطق التي تعوزها الحماية من أملاك

أنطيوخس وجنوداً إلى كل تلك الأراضي المعززة بالحماية أصلاً. وكان بطليموس منتصراً حيثما أمكن لأسطوله أن يعمل على طول سواحل سورية وآسيا الصغرى؛ أما على الأرض فكان لأنطيوخس بعض الميزة. ولقد انتهت الحرب الطويلة بتسوية، ومات أنطيوخس، ربما بصورة طبيعية، وكان في الرابعة الستين، فخلفه ابنه الأصغر أنطيوخس الثاني بعد أن تدبر أمر قتل أخيه الأكبر الذي اتهم بالتآمر ضده.

ولقد شهد عهد أنطيوخس الثاني ثيوس الحرب السورية الثانية، وعرفت بحرب لوديسيا، وكان سببها إحدى تلك المآسي العائلية التي لطخت تاريخ الحوليات هذه المرة.

كان أنطيوخس الذي يبدو أنه نال لقب الرب وفاز بالكهانة بسبب تحرير المدن الميلزية من أحد الطغاة قد عقد صلحاً مع بطليموس، وانطوى ذلك على فائدة عظيمة في صالحه. إلا أن المعاهدة نصت على فقرة قُدِّر لها أن تفسد أي فائدة تحققت بالمعركة أو الدهاء السياسي؛ وكان ذلك الاتحاد بين السلالات المتحاربة والذي تحقق بزواج أنطيوخس وبيرينتشة بنة فيلادلفوس. وكان الملك السوري قد تزوج أخته لوديسيا ولديه أطفال منها، ولكنه وافق على هذا الإجراء الذي فرضته السياسة؛ بل إنه طلق أخته زوجته أو جعلها في أحسن الأحوال الملكة الكبيرة، كما أضفى عليها صفات الكهانة وخصها بعبادة استثنائية. ولكن هذه البوادر الصغيرة لم تهدئ من ثورة لوديسيا التي مضت للعيش في افسوس مع ولديها سلوقس وأنطيوخس. ولقد أخذت تمضي الوقت وتنتظر، ويبدو أن أنطيوخس استعاد ولاءه، وصار يتردد عليها في افسوس، ولا سيما بعد موت فيلادلفوس

صورة [مقابل ص 180 في النص الانكليزي]
الربيع في وادي الزرقاء الأعلى

الذي ظل يرعى ابنته وولدها الصغير. ولقد تحركت لوسيديا ووجهت ضربتها بعد موته، وهي وإن صبرت وانتظرت سنوات ثلاثاً قبل أن تقدم على أي أمر إلا أنها كانت سريعة بالتحرك حين أتيحت لها الفرصة؛ فقد حملت أنطيوخس على توقيع ورقة أضفت الشرعية عليها وولديها، ثم عمدت إلى تسميمه، وانتقلت بعدئذ إلى تسميم طفل بيرينتشة ثم تسميمها هي ذاتها.

ومضى بطليموس الثالث إفيرجيتوس (المحسن) يعد العدة للانتقام لمقتل أخته وولدها، وهكذا بدأت الحرب السورية الثالثة، وكان النصر للسلوقيين، ولكن لم يحدث أي أمر ذي أهمية، وعندئذٍ أنهت الهدنة المعتادة سنوات القتال الذي لا طائل من ورائه. وكان الملك السلوقي قد انشغل في الفترة الفاصلة بين حربين في حرب أهلية مع أخيه.

وبعد عهد سلوقس الثالث– وكان عهداً قصيراً تعساً– حل عهد أخيه الأصغر أنطيوخس الثالث الكبير، وكان عهداً طويلاً مجيداً؛ فقد حكم هذا من العام 223 حتى 187 ق. م. وفي العام 221 في مصر خلف بطليموس الرابع فيلوبتر بطليموس الثالث. وكان هذا مخلوقاً طريفاً نصف فنان ونصف منحل؛ إلا أنه خاض الحرب ضد أنطيوخس بهمة.

وكان أنطيوخس منشغلاً بحملاته في سورية وآسيا الصغرى فيما بين 221 و 218 ق. م، وفي ربيع ذلك العام عبر الأردن بعد تلقيه استسلام سكيثوبوليس (بيت شان أو بيسان)، وهي المدينة الوحيدة بين حلف المدن العشر التي تقع غرب النهر. وأخذت المدن تستسلم واحدة بعد أخرى، وشرع العرب ينضوون في صفوف جيشه بعد ما توّجت جهوده كافة بالنجاح. ولحماية هؤلاء الحلفاء الجدد ضد الحامية الكائنة في فيلادلفيا، وليكسب قلعة مهمة قرر أنطيوخس محاصرة البلدة والقلعة.

ونجد في تاريخ بوليبيوس أكثر الروايات المتوافرة لدينا تفصيلاً في عرض هذه الواقعة. ونعلم أن العرب أخبروا أنطيوخس عن جمع عظيم من الرجال في ربة بني عمون، (وهناك آخرون يسمونها ربة أمانا)، وأنا أنقل هذا عن الترجمة اللاتينية للنص الإغريقي وهو

الأصل، ويبين أن الاسم الحديث لم يتمكن من إخماد الاسم الأقدم، ولقد درس أنطيوخس الموقع بعناية، ولما عاين التلال أدرك أنه ليس هناك إلا مدخلان إلى القلعة، أو بالأحرى طريقتان يمكن أن تفيدا في هجومه. وعليه عمد إلى توزيع قوة الهجوم المتوفرة إلى قوتين؛ فأوكل قيادة واحدة إلى نيكارخوس والأخرى إلى ثيودوتس، وهما القائدان اللذان يحظيا بأعظم الثقة لديه، وكلف كل منهما بأحد هذين الموقعين، ولقد أمكن له أن يبث في كل قائد روح التنافس مع الآخر؛ مما جعلهما ينفذان عملية الحصار بهمة عظيمة.

ولقد دأبت آلات الحصار التي وضعها القائدان فيما بدا لهما أنه أشد النقاط ضعفاً في بناء القلعة تعمل ليلاً نهاراً من دون انقطاع، من دون أن تكلف الحامية أكثر من مجرد الضيق والأسوار بعض الضرر. ولعل الحصار كان سيطول كثيراً لولا أن أحدهم وقع أسيراً في قبضة المحاصرين، وكشف عن ممر سري على امتداد مجرى كان يمد القلعة الحصينة بالماء، وما هو إلا وقت قليل حتى سقطت القلعة، فعمل أنطيوخس على سد الممر بالأحجار والتراب وما شابه، فاضطرت الحامية عندئذ للاستسلام، وبذلك انتهى آخر حصار عظيم عرفته ربة عمون.

أقام أنطيوخس حامية قوية لحراسة حيازته الجديدة، ووضعها بقيادة نيكارخوس، ثم دخل مقره الشتوي في بطليمس.

ويرجح أن تكون فيلادلفيا قد عادت إلى المصريين بعد الهزيمة النكراء التي نزلت بأنطيوخس في رافيا، وتبعد مرحلة عن غزة على الخط الفاصل الحديث بين سورية ومصر، ووقعت في السنة التالية، وكانت تلك معركة هائلة.

وقد مضى أنطيوخس يجند الجند من الأمم كافة، ومنهم عشرة آلاف من العرب؛ فاجتمعت لديه قوة عظيمة من جنود المشاة والفرسان ومئة واثنان من الفيلة، كما اجتمعت لدى بطليموس قوة أعظم من تلك التي حشدها خصمه، فضلاً عن خمسة وسبعين فيلاً، إلا أنها كانت أصغر حجماً من تلك التي توافرت لأنطيوخس.

استمرت تلك القوات الضخمة واقفة في مواجهة بعضها بعضاً خمسة أيام، ثم بدأ بطليموس المعركة؛ لأن الصحراء كانت خلفه مما جعل تموين قواته أمراً صعباً. وكانت

الصدمة هائلة كما يخبرنا بوليبيوس، فقد دارت المعركة وأحوالها تتقلب. وكان الملكان يقفان وجهاً لوجه أمام بعضهما؛ أحدهما على الجناح الأيمن والآخر على الأيسر، وكان بطليموس يصطحب معه أخته زوجته أرسينوة الثالثة. ولقد كانت الغلبة لأنطيوخس في بداية الأمر؛ لكن حقق بطليموس بعدئذ نصراً كاسحاً واستعاد سورية المجوفة. وبعد أن بذل بطليموس هذا الجهد العظيم قفل عائداً إلى الإسكندرية، ربما خشية أن يكون تاجه في خطر، ثم استأنف انغماسه في الشهوات والملذات.

وأعلن عن موت بطليموس وأرسينوة في 204—203 ق.م في ظروف غامضة، ولكن التاريخ غير معروف حقاً؛ فقد أخرج سوسيبيوس واجوثوكليس– اللذان كانا يحكمان البلاد باسم الملك– جرتين فضيتين فجأة، وقالا إنهما تحتويان بقايا رفات بطليموس وأرسينوة، كما أبرزا وصية تنيط بهما سلطة الحكم، وتعلن الطفل ذا السنين الخمس ملكاً. وكانت تلك إشارة لأنطيوخس وآخرين سواه للتفكير باقتسام الغنيمة؛ ولكن أنطيوخس الفاتح كان قد أفرغ ما عنده، وبات يواجه مع الوقت الكارثة تلو الكارثة، حتى فقد تقريباً كل إمبراطوريته الغنية التي ورثها. وعبر هذه الأحداث كلها كانت ظلال روما تبرز في المقدمة، ولقد تحدى روما، وقاتل روما، وأخفق، وبذلك هيأ المكان الذي سوف تحتله في سورية. ثم مات ميتة شنيعة حين أمسك به متلبساً بسرقة معبد ليملأ حقائب المال الخاوية لديه.

الفصل السابع عشر
مدن الحلف العشر (الديكابوليس)

تشكل حلف المدن العشر بعد الحملات التي شنها بومبي في 64 و63 ق.م، وهذه هي على الأقل الفرضية الأقرب إلى القبول؛ نظراً لافتقارنا لتاريخ دقيق لهذا الحدث. فقيام كونفدرالية بين المدن الإغريقية المزروعة في بلدان أجنبية أمر معروف مشهود قبل هذا التاريخ، ثم نجد المدن اليونانية في غرب فلسطين تنتفض منادية بحقوقها إبان الحروب في تلك الأزمان. فلطالما تعهد السلوقيون والبطالسة بمنح تلك المدن الحرية جزاء مناصرتها في الصراع الدائر؛ لكن ليس ثمة دليل على أن وعود هاتين الأسرتين قد تحققت.

كان الإغريق يعيشون في مجموعتهم من الجزر، وكانوا بطبيعة الأمر شعباً محباً للسفر في البحر، ولقد اجتاحوا شواطئ فلسطين، واستولوا على المدن الفينيقية والفلسطينية الواقعة على البحر. فلما عبر هؤلاء نهر الأردن في أثناء فتوحات الإسكندر وجدوا سكان الريف في حالة أشد بداوة وخطراً مما هي عليه في الغرب، ولا ريب أنهم رأوا أن من الضرورة فرض بعض القوانين الصارمة، وإتباع طرائق أشد وضوحاً في الدفاع عن تجارتهم بل ووجودهم ذاته في وجه إغارات البدو.

ولقد استقر اليونانيون في غرب فلسطين، والمهاجرون الأحدث عهداً في المنطقة الشرقية، وعملوا على استقبال حشد من المستوطنين الذين وفدوا للانضمام إليهم، ولعل هؤلاء قد تزاوجوا مع سكان البلاد الأصليين، ولا بد أن بعضهم سبق له أن عاش في المدن الإغريقية، ولكن القوم كانوا يحرصون مع ذلك على الشخصية العامة؛ فكان الدين وأساليب العيش والعادات يونانية كلها، ودستورهم ديمقراطي، ويهدفون إلى الاستقلال الذي ما كان بوسعهم أن يبلغوه تماماً، فكانت لهم حياة مدنية راسخة؛ فشجعوا الأدب والثقافة الإغريقيين على العموم، ولهم ألعاب رياضية كذلك، وأساليب في الترويح عن النفس في المسرح، وكانوا يعبدون آلهة الإغريق في معابدهم. كما تمتعت مجموعة المدن العشر بحرية التجارة وكان لها مجالسها، والحق بسك العملة والملتجأ الآمن، وأن يكون

لها ممتلكات في الجوار وإحقاق العدل هناك؛ كما سمح لهم بعقد التحالفات فيما بينهم في القتال والدفاع. وقد وضعهم الرومان من جهة أخرى تحت حكم ولاية سورية، وكان للحاكم سلطة تعديل قوانينهم، وعليهم واجب الخدمة العسكرية، ودفع الضرائب لأغراض حكومية. ولم يوفر الرومان لهم حامية؛ إنما كان لهم الحق بلواء يعسكر في مدنهم. ومع أنهم كانوا يتمتعون بالسلطة المدنية ويحق لهم سك عملة عليها رموز، لكن عليهم وضع صورة قيصر على عملتهم كذلك.

تعود هذه الحياة المدنية إلى العصر الروماني، وكان الرومان يحرصون دوماً على الأخذ بالعقلية والروح الهلينستية؛ بل لقد حافظوا على الطابع اليوناني في هذه المدن، حتى بعد ما غدت سورية مقاطعة رومانية، كما أن الرومان عاشوا في تلك المدن، وفرضوا بعض تقاليدهم الخاصة ولكن من دون الإخلال بالديانة الهيلينية.

ولقد ضم هذا الحلف عشر مدن في البداية، ولكن مدناً أخرى انضمت إليه مع مرور الوقت. ويذكر في هذا الصدد إحدى عشرة مدينة هي: سكيتوبوليس (بيسان)، وبيلاَّ (طبقة فحل)، وجدارا (أم قيس)، وآبيلا، وهيبوس، وفيلادلفيا (عمان)، وجراسا (جرش)، وديون (إربد) وكناتا (القنوات)، ودمشق، ورافانا، ولكن دمشق كانت عضو شرف في هذه المجموعة بحسب ما تؤكد الشواهد، مما يجعل عدد الأعضاء الفاعلين عشر دول. وكانت بيلا وديون الأقدم بين الأعضاء، تليهما فيلادلفيا، ثم جدارا وآبيلا.

وكان سهل اسدرالون ووادي يزرعيل [مرج ابن عامر] يمتدان منحدرين إلى وادي الأردن حتى يكادا أن يلامسا سكيثوبوليس، بيسان في عصرنا، وهي المدينة الوحيدة في الديكابوليس التي تقع غرب نهر الأردن. وكان هذا الموقع موافقاً أشد التوافق؛ إن من ناحية البقاء على اتصال مع المدن اليونانية على الساحل عبر سهل اسدرالون، ثم لوصل هذه المدن بالمدن الأخرى المنتظمة في هذه المجموعة عبر الأردن. وفي بيلا على الجانب

صورة [مقابل ص188 في النص الإنكليزي]
قناطر رومانية على النهر، عمان

الشرقي– وهي اليوم طبقة فحل– تم ثلاثة طرق امتدت حتى دمشق وفيلادلفيا، وطريق محوري يتجاوز جدارا، والموقع غير المعروف لرافانا ليصل إلى القنوات أو كناث– كما كانت تدعى– عند سفح جبل حوران. وكان جلياً أن المدن العشر (الديكابوليس) وإن لم يكن لها ناحية تخصها؛ إلا أنه كان لديها مساحة يعتد بها من الأرض في شرقي فلسطين، بل إن بعض الممتلكات تتصل ببعضها وترتبط جميعها بهذه الطرق العسكرية.

إن بعض المدن التي تؤلف الحلف معروفة جيداً لدينا؛ لكن بعضها مثل رافانا لا يعني لنا شيئاً. ولكن دمشق الأعظم بين هذه المدن وأقدمها على الإطلاق، غير أنه لا تعرف صلتها بهذا الحلف. وأما آبيلا فكانت تبعد اثني عشر ميلاً عن جدارا على فرع من نهر اليرموك، وكانت هيبوس التي ضربت نقودها وعليها صورة فرس مجنح تقوده امرأة قد أضفت على الريف المحيط بها اسم هيبينة، كما أصبحت المنطقة حول جدارا جدارينة، وسميت المنطقة حول فيلادلفيا فيلادلفينة. وتظل أرقى الآثار الباقية– إذا تركنا جراسا وفيلادلفيا خارج الموضوع– هي آثار القنوات وأم قيس.

يرد اسم القنوات في الكتاب المقدس ويرسم كناث، وما زالت الآثار اليونانية الرومانية المبنية على أسس أقدم مشهداً بهيجاً آسراً. والشوارع هناك ممهدة وآثار المعابد والبيوت، ومعها مسرحان في حالة ممتازة، ومحاطان بأسوار عظيمة تعود إلى عهد أقدم. وأم قيس التي كانت تسمى جدارا ولعلها عاصمة بيرايا، وإن كان يقال إن عجلون كانت العاصمة أيضاً، وقد استولى عليها الكسندر يانيوس وعمل فيها تدميراً، ثم أعاد بناءها بومبي لإرضاء أحد عتقائه الذي ولد هناك. وقد أصبحت أم قيس مركزاً لأسقفية في الفترة المسيحية، ثم

غدت شأنها شأن المدن الأخرى خراباً بسبب الدمار الذي أنزله المغول بالبلدة.

كانت قنوات أو كنات إحدى المدن التي استولى عليها نوبح من قبيلة منسى: «ومضى نوبح وفتح قنوات وتوابعها وسماها نوبح على اسمه. والأرض من حولها آسرة ذات غابات من السنديان الدائم الخضرة».

كان الإغريق يفضلون الموقع الذي يمر به ومن حوله نهر وتتخله تلال لطيفة؛ لكن وقع اختيارهم على مواضع أشد وحشية في أرض عليك أن تكون متأهباً أبداً، وحيث تندر المياه، وكانت هناك مدن قامت من قبل. وهذه المدن غالباً ما كانت تقوم– مثل قلعة ربة عمون– على تل شديد الانحدار، إنما يبدو من المؤكد أن المثال الذي تشخص إليه أبصارهم على شاكلة البلدة السفلى عند النهر أو جرش التي كانت تقوم وسط بلد رعوي. وكانت سكيثوبوليس تقع على مقدار أربعمئة وثلاثين قدماً تحت سطح البحر الأبيض المتوسط، وبيلا في موقع يرتفع ألف قدم فوق وادي الأردن.

لا يختلف تاريخ هذه المدن إلا قليلاً؛ فبيلا سميت كذلك اقتداء بعاصمة مكدونيا، وتأسست قطعاً على أيدي بعض كبار قادة جيش الإسكندر وسكنها جنوده، واستولى عليها أنطيوخس الكبير قبل أن يستولي على فيلادلفيا في العام 218 ق.م، وقد دمرها اليهود في زمن الإسكندر يانيوس لرفض اليونان الأخذ بالطقوس اليهودية، فجدد بناءها بومبي الذي بذل جهوداً كبيرة لإحياء أمجاد سورية القديمة، ثم أصبحت مقراً أسقفياً ووفرت ملجأً للمسيحيين خلال حصار الرومان للقدس.

في هذه المدن التي جمع بينها الكثير من الروابط مثل الانتماء القومي والثقافة والمصلحة المشتركة نشأ طراز خاص من الحضارة، ووصف بأنه «حضارة فريدة غريبة تنطق بالإغريقية وتحاكي روما، وهي في صميمها سامية».

أما مدى انحياز سكان تلك المدن في عاطفتهم إلى السامية فأمر يبدو عرضة للشك؛ لقد كان تحالف المدن العشر مناهضاً للسامية، فالساميون سواء كانوا من الطبقة الحاكمة التي انتزعت منهم امتيازاتهم أم من طبقة عرب الصحراء الذين كان عليهم حماية أنفسهم من أسباب الطرد والعزل والحرمان مناهضين لهم. والمستوطنون اليونان كانوا غرباء

وافدين في أرض غريبة مهما توافر لهم من حماية.

يرد ذكر حلف المدن العشر في عدة مواضع من العهد الجديد؛ فيذكر الإنجيل [متى] أن المسيح «تبعته جموع كثيرة من الجليل ومن المدن العشر وأورشليم واليهودية وعبْر الأردن».

ولعل هذه إشارة إلى سكيثوبوليس التي تقع على حدود الأردن الغربية، أو جدارا والمدن الأخرى غرب بحيرة الجليل [بحيرة طبرية]، وفي ناحية الجدارينيين شفا المسيح الرجل الذي تملكته الشياطين، وقال له أن يعود إلى أصدقائه، ويخبرهم بالعظائم التي أتى إليه الله بها، «ومضى وبدأ يذيع في مدن الديكابوليس الأعاجيب التي عالجه بها يسوع، وعجب الجميع لذلك». كذلك مضى يسوع وسط سواحل المدن العشر، وبعد أن قطع بحر الجليل الذي هو جزء من أرض جدارا شفى رجلاً أصم.

ولا بد أن الناس كانوا يتحدثون في جميع الأراضي التي تنتمي إلى المدن العشر عن المسيح والمعجزات التي أتى بها؛ لأنهم شاهدوا أمام أعينهم الذين حررهم المسيح من شرور البدن والعقل، وربما سمعوا أيضاً عن ابنة قومهم التي أخرج منها الشر على شاطئ البحر.

لما هزم الرومان أنطيوخس الكبير في النهاية أخذت المدن العشر تطالب بحقوقها والامتيازات التي على الطرف الغالب أن يكفلها لهم، وكان أن منح الرومان حرية المدينة لأولئك الذين انتصروا لقضيتهم، وجعلوا الآخرين تابعين لملك برجاموس. ولسنا نعلم ما كان وقع هذا الأمر على فيلادلفيا التي وقفت ضد أنطيوخس؛ لأنه ليس ثمة ذكر للمدن الشرقية، ولكن لا بد أن هذه المدن قد تمتعت على كل حال بحقوقها بعد ما ضم بومبي سورية وأعلنها مقاطعة رومانية.

تقع مدينة فيلادلفيا السفلية على ضفاف غدير؛ لأنه لم يكن أكثر من ذلك، وجزء منه مقنطر على التقليد الذي درج عليه الرومان. ولم يبق من ذلك الآن سوى قوس، وبالقرب منه آثار مبنى ربما كان حمامات في الأصل. وهناك قناة تتصل به وتبدو كأنها تؤيد هذا القول، إنما يبدو أن البناء استخدم حصناً في أزمنة لاحقة. فهذا البناء يضم سوراً فيه ثلاثة

أماكن لينتجع إليها من يقيم هناك، وهي مزخرفة بشكل حسن، وبه فجوات توحي بأن التزيينات المعدنية ربما تكون قد أضيفت إليه. وما زال هناك ثلاثة أعمدة من دون تيجان قائمة. وهناك إلى طرف النهر بقايا أحجار بناء رومانية، إلى جانب مختلف الأسوار المهدمة في القرية الشركسية الحديثة. وهناك جسر روماني قائم عند الطرف الجنوبي من البلدة الحالية.

وإذا مر المرء بعمان الحديثة عاصمة شرق الأردن كان الانطباع لدى المرء بأن البلدة حافلة بالحركة والضجيج، وقبل كل شيء بالألوان. والألوان العديدة التي تكسو العربي المعاصر وكوفية الرأس المتطايرة والمظهر الوقور، وذلك كله لكفيل بأن يجعله مهيأ لإعطاء إيحاء بالمهابة في كل عمر؛ فهندامه والحق يقال سرمدي صالح لكل زمان. فقد يرتدي هذا الزي وهو على ظهر الجمل أو صهوة الحصان، أو عندما يكون سائراً يلاحق قطيعه من الغنم والماعز أو مساوماً ربما بالآرامية، وهي اللغة التي كان يجري بها التدوين عند أهل الصحراء، أكثر مما يتبادلون الحديث بها، كما أنها لغة النقوش والمتعلمين الذين يستخدمونها في أعمالهم.

وإذا خلفنا طريق الأعمدة والنهر ومياهه المتدفقة التي تجري فوق الحجارة نجد أنفسنا نعبر جسراً حديثاً ونبلغ المسرح وهو درة عمان. وقد كشف عنه عند طرف أحد التلال وكان محفوظاً جيداً. ويقدر أنه يستطيع استيعاب نحو أربعة آلاف إنسان، وليس هذا بالحجم الكبير إن تذكرتم أن بعض المسارح الإغريقية كانت تستوعب خمسة وعشرين ألف متفرج، إلا أنه مع ذلك حجم كبير نسبياً لجمهور في بلدة ريفية. وهناك في القمة مقعد الإمبراطور الواسع، وهو مزخرف ومزين بأشكال المحار المروحي، وتتوافر هناك صفوف متراتبة من المقاعد، وسلالم تتقاطع مع الصفوف التي تبلغ الممرات العريضة التي تحيط بالمسرح. وهناك بين المسرح والنهر بعض الأعمدة الجميلة، وهي بداية شارع الأعمدة التي تبلغ البلدة في وسط النهر.

وإنه لمن المؤسف جداً ألا يبقى إلا القليل من شارع الأعمدة الذي لا ريب بأنه كان يميز ذلك القسم من البلدة بجانب النهر. والحق أنه لم يعد إلا القليل من الآثار الدالة التي

يمكن أن يصادفها الزائر الآن، ومن ذلك عمود تصادفه هنا أو هناك مطموراً في بناء ما، وبدن عمود بات موطئاً لدخول كوخ، وأجزاء من جدار قديم وبناء قديم، وهي جميعها تذكر العابر بمجد غابر لإحدى المدن العشر. وحين ينظر المرء في امتداد البلدة التي يزورها، ويرى جمال المعابد والأبنية العامة والبيوت الخاصة التي كانت تنتصب هناك ذات يوم؛ لا يملك إلا أن يأسف مرة أخرى لتخريب الآثار التي عرفتها العصور الماضية.

هناك بناء معين يسترعي الانتباه، وربما كان جدار جزء من الساحة العامة [الرومانية]. أما خرائب أحد الجوامع والبازيليك الإغريقية التي يرد وصفها مفصلة في بعض الكتب فإني لم أصادفهما، وأخشى أن يكون قسم من الآثار قد اختفى تحت المسجد الأبيض الجديد الذي يشيد الآن. وهناك قناتان وأسوار قديمة كثيرة، وبعض القبور السليمة بشكل ملحوظ خارج البلدة. والخرائب مثيرة للاهتمام نظراً لأنها تحدرت من فترات مختلفة؛ إذ تبدأ بأساسات أسوار القلعة العمونية، وتضم الكهوف والدلمانات التي تعود إلى ما قبل التاريخ التي لوحظت إلى جانب الآثار البيزنطية والإغريقية – الرومانية واليهودية والإسلامية.

وحين توافر هذا القدر العظيم مما يسترعي الاهتمام فإنه من قبيل الفظاظة أن ينكر المرء هذا الإرث، ولو أنه لا يمكن إلا أن يأسف لاختفاء الكثير منه حتى مؤخراً. وإذا ما أخذنا في الحسبان صور المسرح الذي كانت تعرض في نطاقه المسرحيات وتعزف ضروب الموسيقى مثلاً وجدنا أن ما بلغنا منه الآن ليس سوى نصفه، بالمقارنة مع ما كان قبل مدة من الزمن. فحتى وقت متأخر كان هناك عمودان فوق تل القلعة، إلا أنهما وقعا على الأرض، وكادا يضيعان بين ركام عظيم من الأحجار المتناثرة التي تكاد تغطي الأرض هناك.

ويبدو أن المسرح وحده قاوم عاديات الزمن ويد الإنسان الأشد تدميراً، وهذا المعلم شديد المهابة، ويزيد من وقعه في النفس تلك المجموعة من الأعمدة. وهذا التأثير يبلغ أقصى حد من الجمال والإيحاء بوجود حضارة برمتها قد اختفت، وسواء كان المرء يشهده في الظهيرة حين يتألق الحجر العتيق تحت زرقة السماء، أو عند الغروب حين تشع الألوان، أو المساء حين يلقي بظلاله على المقاعد التي كانت ذات يوم غابر مليئة بالحضور المتلهفين.

ولعله من الأفضل لفيلادلفيا لو أن المدينة هجرها أهلها فجأة وتُركت لتتحلل، كما كان حال جراسا [جرش اليوم]؛ فلربما بقي الكثير من العمائر صامداً إلى اليوم. ولكن البلدة كانت تعرف في الأزمنة المسيحية بأنها بلدة ذات شأن، وفيها كاتدرائية بيزنطية وكنائس أخرى؛ كذلك بنى المسلمون الجوامع، والمؤكد أنهم هدموا الكاتدرائية التي كانت بأروقتها الخمسة معالم معمارية. وبقايا الجامع والكاتدرائية يستدعيان اهتمام علماء الآثار أكثر مما يهتم بهما الناس العاديون، وثمة جامع جديد قيد البناء على جزء مما بقي من الجامع القديم.

واضح أن فيلادلفيا صادفت أياماً عصيبة بعدما رحل الرومان في القرن السابع، ولكنها لم تدمَّر كلياً كما حصل للعديد من مدن الحلف العشري على أيدي المغول، إنما لا بد أنها بدت مختلفة اختلافاً شديداً بوصفها أول مدينة حسنة المظهر ذات شوراع مرصوفة ومبان مدنية من الأيام الخوالي. ويصفها الجغرافي العربي المقدسي بأنها تقع على أطراف الصحراء ويكتب قائلاً: «في المدينة قرب السوق جامع حسن وأرضه مزينة بالفسيفساء. وسمعنا أنه شبيه بالمسجد في مكة. وقلعة جوليات قائمة على تل يشرف على المدينة، وفيها قبر أوريا وعليه بُني مسجد. كذلك هناك مستديرة سليمان (المسرح). وتكاليف الحياة هنا رخيصة وتكثر في أرضها الفاكهة. ولكن أهل البلد من الناحية الأخرى أميون، والطرق سيئة إلا أن المدينة مرفأ الصحراء وملجأ البدو العربان»(*).

دوّن ذلك في نهاية القرن العاشر على يد رجل طاف في أرجاء البلاد ليضع كتابه في الجغرافية، وإنه لكتاب ممتع حقاً! ولكن لماذا يطلق على القلعة اسم قلعة جوليات أو يسمى المسرح مستديرة سليمان، وأكثر من ذلك إن قوله في قبر أوريا يزيد عما يستطيع أحد من أبناء زمانه أن يذهب به التقدير. وليس مرجحاً أن يشيد أحد صرحاً لجندي عاثر الحظ وغير ذي أهمية تذكر؛ إلا إذا كان داود قد أمر ببنائه في لحظة ندم حين تلقى استسلام العمونيين فوق ذلك المكان «حيث ترك خادمه أوريا الحثي» ليواجه مصيره التعيس.

(*) ترجمة Guy Le Strange.

وأن يكون البناء المقام فوق القبر ذات يوم مسجداً مسألة يعتورها كثير من الشك؛ ولكنه مع ذلك خرائب تستدعي أشد الاهتمام ومتروكة فوق جبل القلعة.

الفصل الثامن عشر
القلعـــة

يتسم تل [جبل] القلعة بكونه مطرزاً بكتلة من الأحجار الواقعة على الأرض. والحق أن جزءاً لا بأس به من أسوار القلعة ما زال متماسكاً، لكن المعابد والقلعة ومباني البلدة العلوية ليست كذلك، سوى البناية الإسلامية التي يحيط بها قدر من الجدل.

يقع التل شمال المسرح والنهر، وإلى الغرب منه هناك تل آخر عليه أسوار قديمة عديدة، وبعض الأحجار الضخمة التي تحيط بأضرحة تعود إلى ما قبل التاريخ، وهناك واد يشق طريقه متلوياً بين التلال ويلتقي بواد آخر في منتصف البلدة. وهناك طريق يصل إلى السلط، وآخر يتجه شرقاً ماراً إلى طرف الخط الحديدي الحجازي، على بعد ثلاثة أميال، ويستمر إما باتجاه طريق الحج القديم إلى الشمال، أو مباشرة عبر الصحراء إلى البصرة. وهناك خط آخر وهو الطريق الروماني القديم، ويؤدي جنوباً إلى حشبون.

تكشف الإطلالة من أعلى التل عن مشهد واسع عريض بعيد، وهناك تحته مباشرة الأطلال، والنهر يمضي سريعاً بين ضفافه الخضراء، والبلدة تتسع وتنتشر فوق الوادي المنفتح ثم تصعد أسفل منحدر التل المقابل. والمشهد الذي يطل من بعيد يوحي بفراغ فسيح، ويثير انطباعاً بأن ما يراه المرء صحراء متموجة الرمال على قمة هضبة عالية.

ليس من اليسير أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء نحواً من ألف وخمسمئة سنة ونعود بالبلدة والقلعة إلى زمن مضى، ونعيد تأسيس البلدة والقلعة على شكل مشابه لما كانتا عليه حينذاك. ومما يثير الأشجان في النفس أن يطوف المرء بين ركام الأحجار المتداعية، ويرى أين كان ينتصب معبد هيراكليس (هرقل) الكبير؛ لأن أعمدة القسم الأمامي من المعبد الروماني ما تزال في مواضعها. وهناك بالقرب من ذلك الموقع قسم من البناء، وهو جزء من السور بوسعك أن ترتقيه، فترى مشهداً ينبئك بأمجاد ذلك المعبد؛ جذوع أعمدة ضخمة، وقطعة كبيرة من واجهة مثلثة، وتاج كورنثي نصفه مطمور، ومثل هذا يراه المرء حيثما اتجه. دمار كريه ربما سببه الزلازل التي تعد شائعة في هذه البقعة من العالم، والإهمال

والانحلال الطبيعي، فاجتمعت هذه العناصر كلها كي تجعل ما كان يوماً عاصمة زاهية خراباً.

إلى الشمال من الحد الشمالي لهذه الهضبة ذات الشكل الغريب التي بنيت فوقها القلعة يقوم مبنى يوحي للمرء بجمال قديم [القصر الأموي]. والوصول إلى هذا الموقع يمر بقوس عظيم مهدم، وفيما تمضي في طريقك فوق ركام من الحجارة ترى أمامك قاعة ضخمة، ما يزال يقيها سقف مقبب من أحوال الطقس. وهناك في هذه القاعة أربع قبب تضفي عليها شكلاً متصالباً في المظهر وحسب؛ لأن الحجرات الأربع تشكل عند الزوايا مربعاً. إنك لترى حين يتاح لك الوقت أن تستوعب هذه المقدمات أن الجدران الداخلية لتلك القبب نحتت على أجمل ما يكون، والتشكيل التزييني يتألف من لوحات فنية خشبية دائرية مؤطرة مركبة على شريط زخرفي أفقي بارز، يستند إلى أقواس صغيرة تبرز من عمودين مزدوجين صغيرين، والتصميمات المستخدمة في نقوش التماثيل الحجرية بالغة الجمال، وكثيراً ما تكون دقيقة. ولما كانت الآراء تختلف في أمر هذا القصر فالأجدر بنا أن نتناولها بالدرس نظراً لأهمية الموضوع.

قال الكولونيل كوندر– بعد وصف المبنى بالتفصيل– في كتابه مسح شرق فلسطين «إن ترتيب اللوحات في تنسيقات مختلفة تحيط بأقواس ضخمة ذات فجوات لشبيه بتكوين جدران طاق كسرى في ستيسيفون، الذي ينسبه السيد فيرغسون إلى الحقبة الساسانية زهاء العام 550 ميلادية. فتبدو أقواس طاق كسرى كأنها حدوات الحصان، بينما للوحات شكل أقواس مقطعة مع أعمدة مزدوجة كما في عمان».

إن المرحوم جيمس فيرغسون الذي لا يتردد في نسبة قصر المشتى إلى كسرى الثاني يحدثنا عن وجود بناء مشابه له في عمان، يعود إلى الفترة الساسانية؛ يقول:

صورة [مقابل ص 200 في النص الانكليزي]

بناء ساساني، عمان

«يتألف قصر ربة عمون– وهو في مؤاب أيضاً– من فسحة مركزية مكشوفة وأربعة مداخل أو أجنحة عرضية، واحد على كل وجه؛ واثنان من هذه الأجنحة تغطيهما قبب إهليليجية، واثنان تغطيهما شبه قبة محمولة على مثلثات ركنية. وأعمال التزيين في هذا القصر شبيهة بما نجده في [قصر] المشتى؛ إنما ليس بذات القدر من غنى التصميم أو من حيث التنفيذ».

وهذا الوصف يجعل من الصعب على المرء أن يفترض بأن الكاتب ذاته قد زار الموقع الذي يتحدث عنه بأقل من حرصه المعتاد.

ويقدم لنا م. ح صلاح الدين في دراسته الساحرة Manuel d'art Musulman وصفاً أغنى من حيث التفصيل، ولكن يجمل بنا قبل الاقتطاف من الصفحة التي يكرسها لهذا المعلم الإسلامي أن نذكر أنفسنا بالنهج الذي سار عليه الانتقال من الفن الكلاسيكي إلى الإسلامي في سورية.

فلئن اصطبغت سورية بالهيلينية. منذ الأيام الأولى إلا أنه ورد إليها تأثير فني آخر من فارس من أزمنة أقدم، وعلينا أن نتذكر– كما يشير السيد صلاح الدين– أن الحضارة الإسلامية ليست كلها عربية؛ ذلك أن هذه الحضارة تأثرت بالأقوام التي نمت بينها من الإغريق والفرس، والسوريين، والمصريين والإسبان، والهنود؛ فقد تلقت من كل بلد أثراً مختلفاً، وفي كل بلد على المرء أن يدرس التطور الذي تحقق له في الفن عند تقويم مدرسة العمارة العظيمة التي نشأت بعد صعود الإسلام.

إننا لا نحيط بشيء عن الحضارات العربية الأسبق باستثناء النبطية، كما رأينا في آثار عملهم في حوران، التي لا أظن أن السيد صلاح الدين قد جاء على ذكرها؛ فعمارة الحضر في اليمن أو في مملكتي غسان والحيرة قد تلاشت تماماً، ولكن موضع الحيرة على كل حال كان بين النهرين، ومن هنا كان استلهام الفن الساساني، وكانت تلك طبعاً مجرد مدرسة من الفن الساساني الذي تطور في ظل ملوك فارس الساسانيين. وقد قيل إنه ربما كانت أعداد الحجاج إلى مكة سنوياً سبباً قوياً في طرح أفكار جديدة على الناس من بقاع عديدة كثيرة من العالم، جامعهم معاً المعتقد الذي وحدهم. وكان كثيرون من هؤلاء الحجاج حرفيين فقراء، وتحتم عليهم كسب بعض المال ليكملوا رحلة الحج، ولعلهم عرضوا أساليب أو تصميمات جديدة على أولئك الذين كانوا يلتقونهم، أو في المحطات المعدة لهم للتوقف عندها في نقاط مختلفة من الطريق الطويل.

ويبدو أن أقدم أعمال التزيينات ربما استلهم من أعمال المزخرفين والصاغة ومعلمي فن الفسيفساء، وكانت تصميماتهم الدقيقة المشغولة بالقرميد وربما القاشاني الذي اشتهرت به فارس. وكانت تنفذ هذه التصميمات الزخرفية في سورية في الحجر؛ لأن الحجر – وليس القاشاني – المادة التي ألفوا التعامل معها. كذلك فإن أعمال نقش الملاط وصبه التي أخذت عن الفرس نُقلت عن المطرزات، وصارت الفسيفساء نسخة عن أقطان أصفهان الملونة، وهكذا صار أحد الفنون يفيد الآخر.

ولقد تجاوز أسلوب العمارة الإسلامية العمارة البيزنطية من دون أن يتخلى عنها كلياً، شأنه في ذلك شأن الأسلوب البيزنطي حين تجاوز الأسلوب الكلاسيكي الإغريقي الروماني، ومن الشائع أن البيزنطي انحطاط للإغريقي؛ ولكنه التطوير السوري للأسلوب الأشد صرامة بسماته الخاصة، مما جعله في النتيجة شائعاً في البلدان التي ازدهر فيها أساساً، وكان في حد ذاته بديعاً جميلاً فائق الجمال.

ويظهر الأثر الاشوري والكلداني واضحاً في بلاد ما بين النهرين، التي ظلت قروناً عديدة تحت حكم هذه الإمبراطورية أو تلك اللتين كانتا تحيطان بها. ولقد جاءت القبب الصغيرة من هذا المصدر، ثم انتقلت إلى بلاد فارس لتظهر في الفن الساساني من جديد؛ فمن

بلاد الكلدان وآشور لدينا طريقة إكساء الجدار بالخزف المطلي بالميناء أو المعدن [القاشاني] التي كثيراً ما تُشاهد في فارس وبلاد ما بين النهرين. وأفضل معلم خلفه الساسانيون قصر ستيسفون تخت كسرى، الذي يشابهه بناء عمان في بعض الوجوه.

لقد قدم الساسانيون للعرب نماذج لأعمالهم المائية الهيدروليكية، التي نفذت بمساعدة السجناء الرومان الذين أدوا وظيفة العمال. كما امتد أثر الفن الساساني الذي تلا فن بلاد ما بين النهرين، وشمل الشرق كله قبل الإسلام. وكان سمة هذا الفن السقف المقبب والقوس العريض وأشغال الملاط التزييني إن مقطوعاً أو مصبوباً، والجدران من قطع القاشاني المطلي والكسوة الخارجية بالمعدن.

ومما يلفت النظر أن نجد في عمان عدة مبان إسلامية ممتازة، وإحدى هذه المباني الجامع الذي ذكره المقدسي ووصف الكولونيل كوندر أطلاله بشيء من التفصيل.

وهاكم ما قاله السيد صلاح الدين عن قصر عمان:

«ربما يكون القصر في عمان أكثر من القصر الذي في المشتى أحد النماذج الأدعى للاهتمام بين نماذج الفن الإسلامي، ولعل الأدعى بالمرء أن ينسب هذا النموذج إلى بداية الهجرة؛ لأن للأقواس انحناءة تذكر بمسجد ابن طنون [ابن طولون؛ ولعله تصحيف] في القاهرة. ولكن إذا كان منطلق الأقواس الأعمدة المندمجة التي تدعمها وعقود القاعدة تذكر المرء بأي حال بايوان كسرى؛ فإن تخطيط القوس شبه الدائري على الطرف الأيسر للمقطع هو بالتأكيد طراز إغريقي - سوري».

«لقد صنف هذا البناء على أنه من القرن الثاني عشر؛ إنما ليس هناك في أعمال التزيين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ما يشبه هذا، ولا المحراب الصغير في القبة الخشبية في قبة الصخرة، وتلك التي في محراب المسجد الأقصى، أو محراب مسجد ابن قلاون (1279–1290) بمعتزلاته الثلاثة، حيث نصادف أعمدة مزدوجة صغيرة. وتبدو الأعمدة في عمان التي من دون تيجان وكأنما هي مستلهمة من الأعمدة في ستسيفون. ولكن أعمال التزيين لا تشبه المنحوتات التي على شكل شمعدانات في تختي بستان؛ فالحق أنه يغلب على معالجتها الأسلوب العربي. وإذا وضعنا في الحسبان الحلية الشبيهة بالأسنان في

تنفيذ قوس العقد والأعمدة بلا تيجان والمظهر المتهاوي في الحجر؛ فإني أظن أنه يضاهي جامع [ابن] طولون، وأن مصممه مهندس من بلاد ما بين النهرين.»

وإذا كان عروج محمد [صلى الله عليه وسلم] في يوليو/تموز 662 م فإن هذا البناء الملفت للانتباه يجب أن يعود حتماً إلى القرن السابع. والتشابه مع الجدران الخارجية لقبة الصخرة الذي ذكره الكولونيل كوندر لا يستحق التنويه؛ لأن هاتيك الجدران بنيت أصلاً في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان في العام 691 م، لكنها انهارت في زلزال وقع عام 1016، ثم كان تجديدها في العام 1022 على يد الخليفة الحاكم [بأمر الله]. ويبدو أن الجدران القائمة الآن من عمل [السلطان] سليمان [القانوني] الذي تولى تجديد قبة الصخرة في القرن السادس عشر، وإذا خلفنا هذه الأثر من الفن الإسلامي صار بوسعنا أن نبذل جهداً آخر لرسم صورة قلعة بطليموس فيلادلفوس.

لقد شيدت هذه القلعة على ثلاث مصاطب مترامية الأطراف تمتد– إن كثيراً وإن قليلاً– شرقاً وغرباً، والمصطبة الأعلى والأكثر توجهاً ناحية الغرب. يبلغ طولها ألف ومئتي قدم وعرضها ستمئة قدم. وتنخفض الثانية عن الأولى نحواً من ثلاثين قدماً، ويبلغ طولها ألف قدم وعرضها ثلاثمئة قدم. وهناك بوابة ثلاثية تقود من إحدى هذه المصاطب إلى الأخرى، ويبدو أنها على مستوى المصطبة الأولى، والتي تنحدر إلى المصطبة الثالثة التي يبلغ طولها ألف قدم وما بين مئتي قدم وثلاثمئة عرضاً. وهناك خندق عند سطح المصطبة السفلية.

تبلغ المساحة المسيجة الكلية قرابة تسعة وعشرين فداناً، وقد أُقيم عليها معبدان والقلعة ذاتها، ثم أبنية البلدة العليا والتحصينات، وكانت الأبنية الرئيسة تقوم على المصاطب. أما سور القلعة الجنوبي فما زال قائماً، ويتألف من كتل ضخمة من الحجر غير المنحوت. وهناك بوابة ذات لوح مجنح ونتوء العتبة بسيط، ولعلها بيزنطية، وتعود إلى ما بين القرنين الرابع والخامس.

وأفضل الصروح المحفوظة من الفترة اليونانية – الرومانية أو البيزنطية بعد المسرح هي الأضرحة التي يمكن مصادفتها في المنطقة المحيطة، ومن ذلك قبر السلطان عند

صورة [مقابل ص 204 في النص الانكليزي]
داخل البناء الساساني، عمان

الصخرة في مدخل الوادي. وقد وصف الموضع بأنه مكان لسبعة أضرحة لم يكتشف منها سوى ضريحين. وهناك جدار مزين بصف بسيط من الطوب، يبرز منه نفق مقوس مقنطر. وفوق هذا المعلم فجوة في الجدار لتضم تمثالاً و«سقفاً مستديراً أو شبه مقبب». وثمة قبر آخر ذو أهمية، وذلكم هو القبر الغربي، وهو بناء مربع من الحجر ذو جدران بسماكة خمس أقدام، وهذا القبر موصوف بالتفصيل في كتاب مسح شرق فلسطين. وقد اقتطفت بضعة سطور لأنها تساعد على تفسير أحد هذين القبرين اللذين أتيحت لي فرصة تفحصهما: «تشبه أعمال البناء كل أعمال البناء الأخرى التي ترجع إلى هذا التاريخ في عمان، حيث الحجارة أحسن وضعها، وتتألف من أحجار مربعة متوازنة غير منحوتة وبطن القوس في الجدار الجنوبي يحتوي على نافذة زهرية وخزنة، مثل التي في سقف بعض البازيليكات الرومانية».

«بيد أن أكثر معالم البناء التي تدعو إلى العجب تصميم القبة؛ ذلك أن ثلاثة أرباع الحلقة ظاهرة للعيان والمدماكين الأدنى مهملان. وهذه لا تبرز عن مثلثات ركنية، وإنما عن زوايا عقد كبيرة بارزة الداخل، ووجوهها مقطوعة حسب القوس المطلوب».

كان قصر النويجس– قصر الأمراء الذي زرناه، عرضاً من دون تدبير، حين قيل لنا إن

ثمة مبنى يسميه الأهالي «معبد بعل الصغير»- مكاناً جديراً بالزيارة، لكونه مدفناً آخر من المدافن اليونانية ويرجع عهده إلى القرن الثاني الميلادي.

فعلى بعد نحو ستة أميال من عمان وفي وسط حقل للذرة ثمة بناء مربع يجتذب النظر، وهذا البناء ينفرد بموقعه الذي لا يشاركه فيه بناء آخر، ولا شيء آخر سوى نباتات الذرة تتمايل مع الريح في كل مكان، على مسافة قصيرة من الطريق الذي كان يدعى الطريق الروماني. والبناء المربع غني بلون الحجر وله سقف مقبب، وثمة عمود فوقه يحمل بقايا مزهرية. وهذا الإناء المكسور الذي يستند إلى قاعدة مربعة [لعمود أو تمثال] ما أكسب المقبرة اسم «معبد بعل الصغير». والقبة ذاتها تنبثق عن مثلثات ركنية إهليليجية، ويضم المكان حجرات للأضرحة. وللجدار الخارجي عضادات تسند الزوايا وذات تيجان أيونية، ولواجهة البناء إفريز مقنطر، وفي أحد المواضع ثمة إفريز يحمل منحوتات تصور حيوانات ونباتات. ويذهب السيد أرنست ريتشموند إلى أنه ربما كان قصر النويجس غرفة للحرس الرومان ولم يكن قبراً؛ ولكن هذا المكان على كل حال مشهد شديد الوقع في النفس في مكان مقفر.

الفصل التاسع عشر
بطليموس فيلادلفوس الثاني والمسرح اليوناني

كان مؤسس فيلادلفيا بطليموس الثاني– في بعض الأوجه– رجلاً فذاً، كما كان بالغ الثراء، ولا يضن بتقديم أي شيء يحقق رغباته، وكانت هوايته الرئيسة جمع المخطوطات، ومطمحه حسبما أخبرنا يوسيفوس أن يجمع لديه «الكتب التي على الأرض المسكونة كلها». وكان يساعده في هذا الجهد الحميد أحسن المساعدة قيم المكتبة ديمتريوس الذي أشار عليه ذات مرة بترجمة كتب الشرائع اليهودية كلها عن اللغة الموضوعة بها. وكان الملك قد سأله يومئذ كم من عشرات آلاف الكتب لديه في المكتبة؛ فأجاب القيم إن المكتبة تضم على الرفوف يومئذ عشرين ضعف العشرة آلاف، واستدرك أنه سيكون لديه عما قريب خمسين ضعف العشرة آلاف. ولقد كانت هذه الإجابة مدعاة لسرور الملك الذي ينشد الكم والكيف معاً، فوافق على ترجمة كتب الشرائع اليهودية ليزيد من عدد الكتب التي لديه.

وقد قيل لبطليموس يومذاك إنه ليس من المناسب دراسة الشرائع التي علم محدثوه الإغريق «بوسائلهم الخاصة» أن الإله ذاته أنزلها، الرب الذي كانوا هم أيضاً يعبدونه، وإن كانوا يدعونه زيوس؛ لأن هناك أعداداً غفيرة من اليهود ما زالوا في الأسر في مصر. فسأل الملك بوجه مشرق بهيج كم هو عدد الذين في الأسر، فلما سمع أن عددهم «يزيد قليلاً عن عشرة أضعاف العشرة آلاف» أصدر مرسوماً بإطلاقهم، ودفع فديتهم لآسريهم من ماله الخاص. وهكذا تحرر مئة وعشرون ألفاً من اليهود وأعيدوا إلى مرابعهم، وكانوا قد أسروا على يد بطليموس الأول وسواه. وقد يبدو هذا الرقم ضرباً من المبالغة؛ غير أنه يتفق والأرقام التي ترد في غير هذا المصدر.

ولقد شرع ديمتريوس عندئذ بوضع مذكرة طويلة يورد فيها الفوائد المترتبة على هذه الواقعة، وعرض ما ينبغي أن يكون عليه الكتاب الذي سوف يوجهه الملك إلى الكاهن الأعظم لليهود، فمهره بطليموس بتوقيعه وأرسل إلى الكاهن الأعظم مرفقاً بأروع الهدايا،

ومنها كميات من المجوهرات ومذبح من الذهب. وقد سر الكاهن الأعظم أيما سرور إذ علم أنه سوف يطلق سراح هذا العدد الغفير من اليهود، كما سر بمثل هذه الهدايا على هذا النحو غير المتوقع، وبعث الكاهن الأعظم لليهود بالمقابل برد مناسب، ووجه من كان عليهم النهوض بأعمال الترجمة – وكانوا ستة من الحكماء من كل قبيلة، وجميعهم من الضليعين في الشريعة – حسب طلب بطليموس.

ولما وصل رجال العلم هؤلاء وحطوا رحالهم في الإسكندرية استقبلهم الملك وأقام لهم وليمة حضرها بنفسه؛ بل إن بطليموس أبعد المنادي المقدس ومنع تقديم القرابين المعتادة، واقتصر على الطلب إلى اليعازر أن يتلو كلمات الشكر. ولقد امتثل اليعازر لما طلبه الملك مباركاً الملك الكريم، وترقرقت عينا بطليموس بالدموع وسط تصفيق ضيوفه والحاشية. ولقد أنجز اليهود الترجمة، وأعيدوا من حيث أتوا محملين بالهدايا، خُص منها اليعازر بعشرة أسِّرة ذات قوائم ذهبية وديباج مناسب، سوى الحلل والثياب الفاخرة، وتاج وأقمشة وصحون، وكيسين من الذهب لخدمة الإله.

ولم يقتصر بطليموس في عمله هذا على إغناء مكتبته من الكتب فحسب؛ بل لقد أمضى بعدئذ اثنتي عشرة ليلة متتالية في مناقشة الكتب اليهودية مع ضيوفه، ولعل عقله الواسع وأفقه الحر كانا يتناقضان مع التعصب الذي تجلى عند اليهود حين استولوا على المدن الإغريقية. وما ذلك إلا شاهد آخر على روح المسالمة التي حملته على قبول زواج ابنته من عدوه اللدود أنطيوخس الثاني، وما تمخض عن هذا الزواج من نتائج تعيسة.

صورة [مقابل ص210 في النص الانكليزي]
مقصورة الإمبراطور، مسرح عمان

هناك قصة تروى عن بطليموس الثالث لا أنقطع عن التفكير بأن بطلها والده المغامر، وتفصيل ذلك أن بطليموس الثاني أو ربما بطليموس الثالث استعار من أثينا نسخاً من مسرحيات اسخيلوس وسفوكليس ويوريبيدس بأمر من الحكومة، وكانت نسخاً موثوقة عدت ضرورية بسبب النهج الذي سلكه المسرحيون تجاه المخطوطة الأصلية؛ إذ كانوا ينتزعون منها المقاطع، ثم يضعون بدلاً منها مقاطع أخرى حسبما يلائم ذوقهم. وكان على بطليموس أن يترك مبلغ خمسة عشر تالن على سبيل الضمان، وقد تخلى عن هذا المبلغ لأنه لم يعد النسخة التي أرسلت له؛ بل أرسل نسخة طبق الأصل عن النص الذي أرسل له. ولا ريب بأن تلك كانت فعلة فيلادلفوس، ولابد أنه سُرَّ كذلك بأن أضافها إلى عشرات آلاف الكتب التي في مكتبته بالإسكندرية.

ولئن كان المسرح في عمان قد بني اقتداء بالطراز الروماني؛ فالواضح أن المسرح اليوناني قد تم حفر في الصخر بأمر من ملك مصر المقدوني المتأثر أشد التأثر بالثقافة الهيلينية.

بادئ ذي بدء كانت المسارح اليونانية الأولى قد اكتشفت في تجويف أحد التلال، وكانت قد بنيت أصلاً بمساحة مستديرة في الوسط لرقص الراقصين. وفيها كانت تجري الطقوس الخاصة بعبادة الإله ديونيسوس في مواسم أعياده، إذ كان المنشدون (الكورس) يرقصون حول المذبح الذي ثابر القوم على وضعه في وسط هذا الفراغ، ويسمى الأوركسترا [ساحة دائرية أمام منصة العرض كانت خاصة بجوقة المنشدين (الكورس) في المسرح الإغريقي]، حتى بعد عهد طويل من اتخاذ الاحتفال طابعاً أكثر درامية بالضرورة، ومع تطور الفكرة الدرامية صار أحد الممثلين يلقي النص من المذبح، وأحياناً فوق طاولة للذبيحة إلى جانبه، ويتبادل حديثاً مع المنشدين. وكان هذا الممثل يرتدي رداء طويلاً مميزاً، وينتعل حذاء عالي الكعبين، ويضع الأقنعة التقليدية التي كان يبدلها بحسب طبيعة الشخصية التي يتقمصها.

ولقد تلاشت الأوركسترا ليحل المنشدون محلها، ثم مع مرور الوقت تخلى اليونانيون عن قسم من الأوركسترا، ووضعوا مكانها منصة عالية وضيقة للممثلين. ومع مرور الزمن كذلك أصبح الركن أو الخيمة التي يلجأ إليها الممثلون عند تغيير ألبستهم أو أقنعتهم

مبنى كالذي نراه في عمان اليوم، على بضع خطوات عن المسرح، ويتصل به بصف من الأعمدة.

ولقد استخدمت كلمة (skene)، التي اشتقت من الخيمة بمعنى القماش الخلفي، ومشهد الحركة بين معان أخرى، وهي كلمة ما زلنا نحفظها حتى الآن، ونستخدمها في اشتقاقات أخرى. ولكن اليونانيين على الرغم من التطور ظلوا ملتزمين بالبساطة في عمارتهم والتفاصيل، وظلت مسارحهم تحافظ حتى النهاية على خطوط تلك الواجهة الخشبية التي حلت في البداية محل أرباض معبد الإله.

ويلوح لنا أنه من الضروري– وإن كان في ذلك إثقالاً– أن نستعيد في ذاكرتنا تلك المسرحيات الإغريقية الأولى لنسلط على مسرح عمان الضوء المناسب.

كان ثمة احتفالات مختلفة تقام احتفاء بديونيسوس إله الخمر والخصوبة، ويجري أهمها في الربيع حين تزدحم أثينا بالغرباء الوافدين كما بأبنائها على حد سواء، ويتوافد إليها سفراء القوى الأجنبية والدول الهيلينية، وأولئك الذين ينشدون عقد الصفقات التجارية، فيجدون أنفسهم مجتمعين في المدينة. وفي تلك الفترة تقام المباريات الكبرى في ما كان يسمى مدينة ديونيسيا. وكانت تلك مباريات التراجيديين، كما كان للكوميديين مبارياتهم التي تجري في الشتاء في مهرجان لينايا الذي يتسم بأنه أكثر هدوءاً.

وجدير بالذكر أن المسرحيات الكوميدية لم تكن تعد من الفئة ذاتها التي تنتمي إليها التراجيديات (المآسي)، ولم يكن المجد الذي تحاط به في لينايا ليقارن بتاج الغار الذي يقدم في مدينة ديونيسيا. وكانت السنوات ما بين 449 ق.م حين ورد أول ذكر لمأساة من وضع اسخيلوس حتى موت سفوكليس في العام 405 تعد العصر الذهبي للمسرح الإغريقي، حين قدم شعراء خالدون ثلاث مآسي ومسرحية ساخرة في المباراة التي كانت تقام كل عام. ولطالما كانت الصورة تتكرر في تلك المناسبات؛ إذ يمتلئ المسرح العظيم بالمشاهدين المتلهفين حتى ليبلغ عددهم يومئذ ما بين ثمانية عشر ألف متفرج وعشرين ألفاً، وهم جالسون هناك من الشروق حتى الغروب على امتداد ستة أيام متصلة، ولابد أنه كان مشهداً رائعاً.

وكان جمهور الأثينيين يوصف بأنه الأكثر حساسية وتذوقاً في العالم، ولا ريب بأن الأثينيين كانوا يولون مسرحهم أعظم اهتمام، ويفيدون من فرصة سماع المسرحيات الجديدة في المباريات أشد إفادة، فمنذ اللحظة الأولى من بدء المهرجان في الصباح الباكر حتى آخر إثارة عظيمة برؤية الجرار تفتح وأسماء الشعراء – كتاب المسرحيات الفائزين – تتلى أمام الجمهور الكبير الشغوف، الذي يستمر متابعاً الحدث باهتمام عميق. والحق أنه ما كان لهم أن يستريحوا في جلوسهم على مقاعد الحجر من دون مسند يستندون إليه، ولذلك كان بعضهم يأتي بوسائد ليجلسوا فوقها وهذا ما يذكر بالجمهور الإسباني في حلقة مصارعة الثيران، وإن كانت معاناتهم أقصر كثيراً من حضور المهرجان.

كان المهرجان الثالث الذي تُسمع فيه المسرحيات مهرجان ديونيسيا الريف، ويعقد في بعض أطراف الريف؛ فكانت تقرأ في تلك التجمعات المسرحيات القديمة، وبالتأكيد تخلو هذه المناسبة من المسابقات. وأحسب أن مهرجان ديونيسيا الريفي من الطبيعة والعروض المسرحية ذاتها التي في مسرح فيلادلفيا؛ إذ تؤدى بعض المآسي الإغريقية الشهيرة التي سمعها الجمهور أول مرة في مدينة ديونيسيا في أثينا.

كان المسرح في بلاد الإغريق ضرورة، ويشكل جزءاً من الحياة الدينية والعامة؛ لكن الرومان لم يكنوا للفن الدرامي الخالص هذا الحب ذاته، ولا خاطبهم المسرح على ذلك النحو ذاته قط. وما كان يطيب لهم حقاً ذلك المسرح المكشوف الواسع حيث يستطيعون التحديق في مباريات المصارعة الدامية بين بشر ووحوش ضارية أو تلك التي تدور بين الرجال. أما في التمثيل فكانوا يؤثرون المسرح الإيمائي والرقصات الحربية التي تناسب المآسي القديمة، وتعرض العواقب الوخيمة لخطيئة أصيلة ما. إلا أنهم رغم ما لديهم من ذكاء عملي لم يجنحوا طبعاً إلى إحداث ثورة في آلية المسرح، كما أن بلاد الإغريق حملت الأفكار الجديدة إلى حد معين ولم تمض بها أبعد من ذلك.

يحتوي كتاب «Atic Theatre» لـ A.E.Haigh على قدر كبير من المعلومات المثيرة للاهتمام حول التحسينات التي جاء بها الرومان، ولكن لا يمكن عرضها هنا نظراً لطبيعتها الفنية المغرقة، وقد صار المسرح يتعدى شيئاً فشيئاً على الأوركسترا وصار أقل

ارتفاعاً، وانحدرت أهمية الكورس وصار الممثلون أكثر بروزاً. وجدير بالإشارة أن لدى فتروفيوس كثيراً من التفاصيل المثيرة للاهتمام التي تبين لنا الأثر الكبير للتوسع في إعادة تنظيم بنية منصة المسرح أيام نيرون الذي كان يهوى المسرح. وكان لمنصة العرض يومئذ واجهة متقنة العمارة، فكانت لها أعمدة منتصبة خلف منصة العرض والمحمول (القسم العلوي المحمول على الأعمدة، ومؤلف من الجبهة والطنف والإفريز والساكف)؛ وقد طورت الحيل الميكانيكية وحدثت.

والواقع أن تاريخ تأسيس فيلادلفيا وبناء المسرح يعودان كما هو مرجح إلى الأيام التي أشعل فيها نيرون النار بروما (إن صح هذا الزعم)، لمجرد نيل متعة إعادة بنائها من جديد، وهذا أمر يزيد على ثلاثمئة عام. ولابد أن المسرح كان هيليني الطابع تماماً في أيامه الأولى؛ بل ليس ثمة إلا احتمال ضئيل أن ترد التجديدات من روما حتى عهد بومبي عام 63 ق.م. ومن المستبعد جداً أن تكون هذه البدع قد وردت في تلك الأيام؛ فلطالما كان يقال إن المسارح في آسيا الصغرى لا تُظهر من التأثير الروماني إلا القليل، والكثير منها ظل محافظاً على طابعه الإغريقي البدائي.

ومن الواضح أن ثمة مسرحاً أقيم في عمان مقابل الأوركسترا، وكان الأوديون (المسرح الإغريقي المعد للموسيقى) وهو الآن حافل بالخراب ويصعب تصور إعادة بنائه ذهنياً، بأن يكون مسرحاً صغيراً حديث الطراز تماماً يتسع لأربعمئة مشاهد. وفي هذه المسارح الصغيرة عادة هناك ما ينبغي أن نسميه «تدريبات»، ولكن ما هو في الواقع أكثر من ذلك؛ حيث يجتمع فيها الشعراء الذين قدموا للتنافس فيها وممثلوهم ومصممو الرقصات، والمواطن الغني الذي كان عليه أن يدفع المال لقاء أداء مسرحياته. وكان ذلك عرضاً عظيم البهاء بكامل الملابس، ولا ريب بأن رواد المسارح كانوا جميعهم متلهفين لمد يد العون في هذا الأمر، وكانت تعقد يومئذ مسابقات عزف مقطوعات الموسيقيين وعروض عزف القيثارات.

وواضح تماماً أن اليونانيين كانوا حتى عهد نيرون المتأخر جداً متفوقين في المسرح؛ فقد ذهب ذلك الفاني الخارق، أي الإمبراطور نيرون– الذي كان يظن بأنه كان متفوقاً بوصفه

مغنياً وقائداً لعربة حربية– إلى المدن الإغريقية في العام 67 م، وخاض كل المباريات، وفاز بالتاج فيها جميعاً، لأسباب لا تخفى على القارئ. وجلي أنه كان يتطلع إلى أثينا لكونها قبلة المسرح، وقد عاد يومئذ منتشياً أشد النشوة. وحري بالمرء أن يتذكر آخر أقواله حين أقدم على الانتحار، في العام التالي: «أي فنان فيَّ ضاع!»

أما بطليموس فيلادلفوس فلم يكن مأفوناً من هذا القبيل، ولعله كان من دون نيرون شهرة بشغفه بالمسرحيات على خشبة المسرح وسواها، ولكن يبدو أنه ليس من قبيل المبالغة الشديدة القول إن محب الكتب هذا الذي سطا على مسرحيات الشعراء الدراميين قد اعتنى بمسرحه في فيلادلفيا؛ بل لعله حضر بعض المناسبات العظيمة هناك. وسواء كانت مقصورة الإمبراطور قد أضيفت في تاريخ متأخر وهو يبدو مرجحاً، أم أنها جزء من البناء الأصلي؛ فالأمر متروك للأثريين. ولكنها رومانية الطابع قطعاً.

ويود المرء لو يعلم أي مسرحيات كانت تؤدى هناك، وما آل إليه المسرح بعد سقوط السلطة اليونانية– الرومانية. ومن الأسئلة التي تراود الذهن على سبيل المثال هل كان المسلمون الذين يبدو أنهم أقاموا في تلك الربوع ردحاً طويلاً من الزمن قد استخدموه في أغراضهم وشؤونهم. أم أهملوا أمره؛ ولكن ربما كان الحجاج المتعبون يلجؤون إلى ذلك المكان طلباً للراحة وهم في طريقهم إلى مكة، نظراً لأنه شديد القرب من طريق الحج، فلربما كانوا يطلبون الراحة عنده؛ بل يهجعون إليه للنوم في مقصوراته الواسعة البعيدة عن ممراته الرئيسة، التي صارت الأحصنة العربية تسير فيها الآن جيئة وذهاباً. والحق أن إحدى الأسر الشركسية قد اتخذت من مقصورة الملك مسكناً لها حين وردت إلى عمان، بيد أن المقصورة تحولت الآن إلى إصطبلات للخيول العربية.

وها نحن مرة أخرى في موقع مدينة منسية ليس فيها من معالم تدل عليها سوى هذا المسرح وبضعة أعمدة، فلقد صعدت إمبراطوريات وانهارت، ودارت معارك كان فيها المنتصر طرف واحد ثم أصبح النصر لطرف آخر. ولقد سقطت الإمبراطورية اليونانية ثم الرومانية والفارسية، وانحدرت الحضارة العربية العظيمة التي أضاءت العصور المظلمة، وإن كنا نأمل أن تكون في طريق الإحياء الآن على أسس أمتن وأصلب. وقامت عمان

العاصمة الجديدة لدولة جديدة من رماد ربة عمون وفيلادلفيا. وجاء نصف سكان هذه العاصمة من بلاد الشركس القصية، لاجئين من بلدهم، وأقاموا هنا، أما النصف الآخر فأحفاد شعب أقدم لا نعلم مدى اختلاطهم بالحضارات التي اندثرت، ووراء هؤلاء وأولئك عرب الصحراء الذين ما زالوا على حالهم من البداوة.

وعمان الوحيدة من بين المدن المنسية التي تتمتع حقاً بنبض الحياة في ذلك الرماد القديم؛ فمأدبا ذات حياة هادئة، وللكرك حياة يبدو أنها لم تغادر زمن الحملات الصليبية، أما البتراء فلا حياة فيها. ومع أنه ليس لدرب القرية شيء من مهابة المدينة الكبيرة؛ فحياتها تغلي بضجيج الحياة التي تفصح عن حاضر أكثر مما تنبئ بالمستقبل. ولا تنقطع السيارات تقعقع على الحجارة وتطلق الأصوات كالنعيب، لعل حشود الناس في الطرقات يفسحون لها المجال للسير. والرجال يجلسون على طرف الدرب يدخنون النرجيلة والفتيان يسوقون الأغنام والماعز ذوات الشعر الأسود إلى حيث الماء عند التقاء دربين. والنساء اللواتي يرتدين الحجاب منشغلات بالتسوق، والسافرات من العرب الوافدات من البادية يجررن أثوابهن الطويلة من خلفهن على التراب.

واللون الرائع الذي يصطبغ به المشهد بهجة للعين، والحياة التي تطغى ههنا مبهجة للنفس. زنوج ذوو طول فارع، وأعراب ذوو قامات سامقة وأجسام نحيلة، يبدون أطول حين يتحركون في أزيائهم، ورجال من الطبقة الوسطى يعتمرون الطربوش الشائع، ومتسولون قد تضاعف عددهم منذ ذلك الزمن القديم، وهم هنا من كل ضرب وصنف. وأطفال صغار ذوو عيون سوداء اللون تطغى عليهم الجرأة يتدحرجون وهم يلهون في التراب، لا ينقذهم من وقع قوائم الحمير والبغال العربية الصغيرة إلا عناية الله. وهناك بعض رجال الفيلق العربي أو الشرطة الذين لابد أن يمروا بهذا المشهد ليطمئنوا إلى استتباب الأمن والسكينة.

لم تنهض عمان منذ ذلك العهد القديم إلا منذ بضع سنوات بعد زمن طويل من الإهمال؛ فلقد ظلت المدينة تستخدم سنوات عديدة طوالاً أرضاً يرمي بها البدو الرُحَّل مخلفاتهم، وقد وصفها أحد الرحالة في القرن الماضي بالقذارة والإهمال حتى باتت الإقامة فيها مكروهة

إن لم تكن خطرة. وكانت الحكومة التركية الأخيرة قد سمحت للشركس بالإقامة

صورة [مقابل ص 216 في النص الانكليزي]
قصر النويجس

في مناطق مختلفة من شرق الأردن، وقد واجه اللاجئون في بداية الأمر وقتاً عصيباً جداً. وكان من طبيعة الأمور أن يمقت العرب هذا التطفل، ولكن الوافدين الجدد كانوا دؤوبين على العمل الشاق وعلى قدر عظيم من ضبط النفس، وليس لديهم من أمر يبعدهم عن المدينة التي لجؤوا إليها، ثم أمكن لهم شيئاً فشيئاً أن يتخذوا لأنفسهم مكاناً بين العرب الذين استقروا بأعداد غفيرة في عمان حين كان ثمة منافسة. والشركس قوم ينزعون نزوعاً شديداً إلى النظافة والاقتصاد، وما زالوا بعد سنوات عديدة يحافظون على سماتهم القومية وزيهم الوطني، ولا يمكن الالتباس في التمييز بينهم وبين القوم الذين صاروا يعيشون بين ظهرانيهم. ويبدو أنهم يماثلون العرب في ناحيتين فحسب؛ في الدين وكرم الضيافة. ففي الناحية الأولى يعود ذلك إلى التزامهم الشديد بالإسلام مما جعل الأتراك يشجعونهم على الاستقرار في كان ما يومئذ من أراضي سلطنتهم، ولعل الضيافة فضيلة متأصلة في المنطقة.

وأحسب وأنا أغادر عمان أن ثمة الكثير مما فاتني قوله؛ ولكن من المستحيل أن نفي كل ما ينبغي مشاهدته في هذه البلدات المثيرة للاهتمام حقه، بما لها من تاريخ يعود إلى العصور القديم، من دون أن نتجاوز حقوق دليل المسافر. ولكني أستطيع لحسن الحظ أن أعتمد على الرسوم التي وضعها الميجور فلتشر الذي يعطي صورة أمينة لبعض النقاط

المثيرة للاهتمام التي بذلت جهدي لتناولها بالعرض.

الفصل العشرون
الأنباط من جديد

كان القوم الذين سكنوا حوران قبل ميلاد المسيح بعشرين قرناً على قدر من الثراء لفت انتباه كدرلاعومر [ملك عيلام]، وكان أميراً من رأس الخليج العربي، كما نطالع في سفر التكوين [14: 1] وإذا قفزنا إلى عصور حديثة نسبياً صادفنا نصاً باللغة المسمارية يعود إلى زمن شلما نصر الثاني (859 – 824 ق.م) ويقول: «إلى جبال حوران مضيت، وهدمت مدناً لا حصر لها، وأبدتها، وأحرقتها بالنار، وحملت منها الأسلاب بلا عد أو حصر».

ويبدو من أسباب العجب أن يكون لأجيال جديدة بعد ذلك من الشجاعة ما يجعلها تعود إلى بناء تلك المدن التي هُدمت وخُربت، ولكن تلك قصة قديمة ما تنفك تتكرر؛ قصة الدمار العظيم الذي يعقبه إعادة البناء الشاق حتى يحل الوقت الذي تتوقف فيه المحاولة، إما بدافع من اليأس أو لخلو المنطقة من الرجال.

ولقد احتل الأنباط الذين بدؤوا ملكهم في الجنوب، ثم صعد نجمهم في البتراء، وامتلكوا الكثير من الأراضي في حوران ودمشق أيضاً، وكانت موهبتهم التي تتجلى في قطع الأحجار والبناء قد اكتسبت تطوراً غريباً في أرض البازلت الأسود. وقد قيل في حوران إنها مهد العمارة البيزنطية، وهنا جاء الأنباط بطراز يمزج العمارة الشرقية بالعمارة الكلاسيكية التي ما زالت سائدة في سورية، وقال ذلك المرجع العظيم إم. دو. فوغو: «سوف تقدم لنا حوران المفتاح وتزودنا بتاريخ هذه المحاولات اللافتة للنظر».

ويصف دو فوغو بقايا معبد سي والسويداء، وقد كان بناء سي في عهدي أجريبا الاثنين، وكان طراز البناء غريباً؛ إذ جمع الإغريقي والشرقي معاً، فنطالعه يكتب «أدت ضرورة وضع القبة الصغيرة على تصميم مربع بالمعماريين إلى اكتشاف شكل «الحلية الجدارية الكروية»، وتلكم سمة خاصة بالأسلوب المسمى بيزنطي؛ ولكنهم حين عجزوا عن تحقيق ذلك فوراً مضوا إلى معالجة المسألة بسلسلة من الطرائق المعتمدة مؤقتاً والجديرة بالدراسة.....

«إنه في ظل بواكير الإمبراطورية الرومانية وحاجات مجتمع وثني كانت ولادة هذه الحركة الأصيلة والمثمرة. واستمرت الحركة وتطورت حين أصبح ذلك المجتمع وتلك الإمبراطورية ذاتهما مسيحيين، وآية ذلك أن المعابد الوثنية المقدسة لم تتحول إلى معابد مسيحية وحسب؛ وإنما شيدت كنائس جديدة لتناسب طرائق العبادة في الدين الجديد. وصارت هناك بيوت تبنى وقصور تشيد وقبور تقام؛ بل أسست مدن بكاملها».

ويذكرنا دو فوغو عندئذ بأن المدرسة الكلاسيكية تشدد على صيغة لا تختلف إلا قليلاً مهما يكن حجم الصرح أو طبيعة المادة المستخدمة. ومخطط معبد صغير مثلاً يفيد في وضع مخطط معبد كبير بمجرد زيادة مقياس الرسم، إلا أن المعماريين اليونانيين السوريين كانوا يمضون في عملهم على نحو مختلف. وفي الوقت الذي استخدموا فيه عناصر الأنظمة الإغريقية – الرومانية كانوا يعدلون فيها ويكيفونها وفق منطق رفيع مسقطين العناصر غير المجدية، وما عادوا يخضعون أبعادها لقانون نسبة موحدة؛ وإنما لأبعاد المادة الموضوعة تحت تصرفهم وطبيعتها والتصميم الذي ينشدون تنفيذه. ولما كانوا لا يبغون سوى العمود المؤلف من كتلة واحدة وحسب فإنهم لم يتجاوزوا في حساباتهم ارتفاعاً معيناً، وأحكموا للفتحات أبعاداً موحدة لا تكاد تختلف عن بعضها مهما اختلف حجم المبنى.

كانت المادة الوحيدة المتوفرة فعلاً لأولئك المعماريين الأوائل الذين يأتون بأسلوب جديد البازلت الأسود الصلد؛ فلقد تعلم هؤلاء كيفية بناء قبة صغيرة من بلاد ما بين النهرين عبر بلاد فارس، وربما من عرب الحيرة الذين كانوا تحت تأثير الفرس ومقرهم في العراق. وقد استخدموا عبقريتهم في صنع الأبواب المرصعة بالمسامير والنوافذ التي تشبه شكل الدولاب، أو النوافذ المربعة والاسكفات المحفورة في البازلت، أما مفصلات الأبواب– ودقاقات الأبواب كذلك– مصنوعة جميعها من المادة ذاتها. وأما البيوت فيبدو أن بناءها كان على الطراز الإغريقي، إنما عدلت وفق التطورات الجديدة ومقتضيات المادة. وكان لديهم سلسلة من الأعمدة في غرفهم لتدعم الأقواس التي كانت توضع فوقها بلاطات البازلت للسقف. وكانوا يضعون قبة حيثما كانت المساحة أوسع من أن تحتمل التغطية على هذا النحو.

صورة [مقابل ص 222 في النص الانكليزي]
مشهد التلال بالقرب من عمان

يقوم معبد سيا حيث نجد الكثير من الأطلال المهمة عند أبواب القنوات، وهي إحدى مدن التحالف العشر، وهذه واقعة تبين بجلاء كيف اختلطت الخصائص المرتبطة بذلك الحلف والمناطق الواقعة تحت سيطرة العرب.

وكانت حوران التي توافق– إن كثيراً أو قليلاً– ما كان يعرف عند العبرانيين باسم أرض باشان قد قسمت على أيدي الرومان؛ فجعلوا منها خمسة أقاليم: ايتوريا وجولانيتس وبتانيا وتراخونيتس واورانيتس. وقد ضمت هذه المنطقة أرض البراكين الخامدة الغنية، وهي هضبة اللجاة الغربية، وكانت كتلة من الحمم البركانية المتمجرة وسلسلة جبال حوران المسماة الآن جبل الدروز نسبة إلى الدروز المهاجرين إليها من ناحية لبنان. وفي حوران عدة مدن بارزة؛ مثل درعا وقنوات وبصرى المدينة الرئيسة التي غدت ذات أهمية خاصة في الأيام الأولى للمسيحية.

وكان الأنباط ذوو الهمة والنشاط قد استوطنوا جزءاً من هذه المنطقة، وهناك عدة

نقوش بلغتهم فضلاً عن تلك النقوش الإغريقية الركيكة التي تكثر في المنطقة كلها. ونعلم من هذه النقوش الكثير عن آلهتهم، وأنهم عرفوا الله، وكانوا يتزلفون إلى اللات أمِّ الآلهة التي اصطبغت بالهيلينية وبات اسمها بالاس أثينا. وقد نشر السيد رينيه دوسو في دراسة «العرب في سورية قبل الإسلام» صورة باب لهيكل اللات – أثينا اكتشف في منطقة اللجاة، وهي فتحة مربعة ذات اسكفة وأعمدة باب منقوش بتصميم بارز يصور عناقيد العنب وأوراق الكرمة، ولكن رأس الإلهة التي رسمت فوق الباب إما منزوع عنه أو زال عن بقية النقش، غير أن النقش الذي يحمل التكريس ما زال ظاهراً في موضعه.

ويقال إن معبد سيا كان مصمماً وفق مخطط المعبد في القدس؛ إذ يتكون من رواق ذي أعمدة يحيط به برجان. وكان المعبد يحتوي على تمثال هيرود الكبير في الداخل مما يذكرنا بأن هذا البلد قدمه ذات يوم لهيرود أصدقاؤه الرومان، وقد ضمت الهدية كذلك اثنتين من مدن الحلف العشر. ولئن كان هذا التصرف يبدو متعسفاً، وهو لا ريب كذلك؛ فإن الحق أيضاً أن المنطقة والمدن قد أفادت من سيادته عليها، وآية ذلك أنه استطاع أن يفرض شيئاً من القانون والنظام في منطقة تراخونيتس (الطراخونية أو اللجاة) التي كان يسكنها اللصوص ويهاجمون القوافل المتجهة إلى دمشق، كما كان هيرود يعطف على الثقافة اليونانية، كما هو جدير بالمواطن الروماني الصالح. وكان دائماً في حرب مع الأنباط، وينبغي أن نسلم أنهم أساؤوا معاملته في أمر قطاع الطريق الذين قدم لهم [سلي] وزير عبادة الثاني الطموح الملجأ في المناطق النبطية.

ولا ريب بأن الأنباط كانوا يرغبون بسبب من وضع المستوطنات في حوران في أن يجعلوا مأدبا عاصمة ثانية؛ أي منزلاً في منتصف الطريق بين البتراء ودمشق، فقد كانت أراضي حوران ذات نفع بالغ لهم؛ فإلى جانب خصوبة تلك الأراضي ومردود غلتها من الزراعة كانت تجعل من حماية قوافلهم أمراً يسيراً نسبياً. وكانوا فوق ذلك قوماً يناسبون جداً استيطان تلك الأرض الجافة، ذلك أنهم كانوا فلاحين وبنائين وعباقرة في قطع الأحجار، كما يشهد على ذلك ما بقي من آثارهم. وهناك رواية أخرى عن هذه المرحلة من الزراعة نطالعها في التقرير الذي وضعه هـ. سي. بتلر عن بعثة برينستاون، ولما كان

هذا التقرير يتفق جذرياً مع ما ورد آنفاً فيجمل بنا أن نطالعه بعدما نظرنا في ما سبق:

«هناك آثار عمارة سابقة للفترة الرومانية؛ وإن لم تكن سابقة للفترة الهيلينستية في سورية تفسح للطالب مجالاً جديد نسبياً من الدراسة، فهناك طراز فذ يدعى النبطي اكتشفه فوغو في معبدي سي والسويداء والأجزاء الجنوبية من حوران حافلة بآثار هذه الحضارة. شذرات وآثار، ونقوش وتفاصيل معمارية، ومعابد كانت عمارتها بأسلوب خاص لم يأخذ إلا القليل من الفن الكلاسيكي ويمثل حياة عرق مميز، إن لم نقل حياة قومية خاصة. وهذا الطراز شرقي من ناحيتي النزوع العاطفي والتعبير، كما أنه جديد وأصيل. ذلك أن البنائين الأنباط كانوا قوماً لا يضاهيهم أحد في فن قطع الحجارة وتزيينها، كما كانوا معماريين يبدون مقدرة فذة في رسم المخططات الواسعة وترتيب الكتل وملاءمة الأبنية أو مجمعات البنى مع بعضها بما يناسب موقعاً معيناً. والتزيين ثري ولكنه متحفظ، ويلائم البازلت الأسود وهو خال من تأثير الجوار. ثم إن للعمارة عندهم طرازاً متميزاً، طرازاً كان له التأثير القوي في أساليب الحقبتين الرومانية والمسيحية في سورية، ولم يكن يقتصر على مبادئ التصميم وإنما كان له أثره الملحوظ في التزيين.

ولست أجد حرجاً في الاستناد إلى هذين الرأيين وعرضهما لأنهما يعطيان فكرة واضحة كل الوضوح عن هذا التطور الغريب والمثير للاهتمام في العمارة؛ فلا ريب أن المعماريين الرومان أو السوريين كانوا يتمتعون تحت السلطة الرومانية بقدر أعظم من الحرية في معالجة الأساليب الرومانية، وغالباً ما كانت هذه الحرية ترقي من جمال التصميم ولا ينال منها خطأ أو انحراف. وقد كان ابولودوروس معماري الإمبراطور تراجان قد قدم من دمشق، كما أخذ الرومان معارفهم عن المعماريين السوريين الذين كانوا تحت تأثير الإغريق فنياً طوال قرون، قبل أن يصبحوا تحت نفوذ روما. فبعد أن رسخت جذورهم عميقاً في المدرسة الكلاسيكية توصل المعماريون السوريون بما لديهم من تدريب شرقي إلى معرفة التأثيرات الضخمة للكتلة، والنور والظل، فضلاً عن العناية بالتفاصيل. وكان هؤلاء المعماريون يتمتعون بعبقرية الابتكار، ولهم مدرسة من أفضل طراز ليبعدوا أنفسهم عن المبالغة والإفراط.

كان البازلت مادة البناء الرئيسة في حوران كما سبق أن رأينا؛ ويمكن أن يقع المرء على قرى شيدت بكاملها من هذه الألواح المسطحة السوداء في تلك المنطقة جميعها. كذلك فإن أولئك المعماريين قد استخدموا أحياناً قوالب الآجر المجففة تحت أشعة الشمس، ويقال إنهم لطالما أدمنوا القبب المخروطية الصغيرة مثل تلك التي ما زلنا نراها في القرى. إلا أن السلوقيين والبطالسة كانوا– مهما أخطؤوا بتدمير المدن ونهب الأرياف– معماريين أفذاذاً واستخدموا المعماريين العظام. لقد كان ذلك عصر توسع وتطور، وإن كان عصر دمار وخراب أيضاً.

من المهم أن ندرك أنه كان في حوران حضارتان – اليونانية الرومانية والعربية. وكانت الأرض المجوفة سهلاً عظيماً يمتد من [جبل] الحرمون حتى [نهر] اليرموك، ويرتفع ألفي قدم فوق سطح البحر. وقد ارتفع هذا السهل عند منطقتي الجولان واللجاة في سلسلة من التلال تنتهي بأرض الرواسب البركانية الجافة. وهناك في السهل ذاته حقول شديدة الخصوبة حيث تنمو الذرة بمقادير كبيرة، وتنقل الحبوب على ظهور الجمال، أو تتراكم فوق بعضها في «قوارب الحبوب» حين تبلغ ساحل عكا أو إحدى المدن الساحلية.

والواقع أن الرومان لم يحتلوا حوران فعلاً، وفي عام 25 ق. م كانت تراخونيتس وحوران اسمياً تحت حكم زيندوروس الذي أجر المنطقة الايتورية الواقعة عند سفوح جبل الحرمون [الشيخ]. ونظراً لأنه لم يلتفت لكبح جماح عصابات قطاع الطرق المنتشرين في المنطقة فقد كان يظن أن زيندوروس نفسه كان يمارس هذه الخطيئة كذلك؛ فأمر أوغسطس بأن يحل هيرود محله، وكان يومئذ صاحب جدارا وهيبوس.

ولقد شيد هيرود الحصون في برية تراخونيتس، وأقام على حراستها جنوداً مرتزقة من الأدوميين، ومهما كانت مثالبه– وهي كثيرة– فإنه كان رائد الحضارة في تلك المنطقة.

ولما توفي أخذها عنه أفضل أولاده، التراخ (حاكم الربع) فيليب، الذي ظل على حكمها حتى توفي، ثم ضمت إلى ولاية سورية، ولكن في عام 37 ميلادي منحها كاليغولا لهيرود أجريبا حفيد هيرود الكبير، وهكذا صار لحوران صلات عديدة بتاريخ السلالة الهيرودية.

وكان الأنباط قد ارتدوا في غضون ذلك على أعقابهم على أيدي الرومان جنوب حوران، وإن ظلوا ممسكين بمدينتي بصرى وصلخد حتى العام 106، حين أفلح حاكم ولاية سورية كورنيليوس بالما في النهاية بضم المملكة النبطية كلها إلى الولاية الرومانية. ولكن أنباط حوران صمدوا حتى بعد سقوط البتراء، إلا أنه لم يكن أمامهم في النهاية سوى الاستسلام.

شرع الرومان بعد هذا التاريخ بتنفيذ تلك السلسلة الممتازة من الأشغال العامة التي دأبوا على القيام بها في البلدان التي كانوا يضمونها إلى الإمبراطورية، وتشهد الأقنية والقصور والحصون والقلاع- كما الحمامات والطرق والجسور- على قدرات أولئك القوم الأفذاذ وإقدامهم. وكانت الطرقات التي تشق لهذا الغرض تقام عادة على أسس طرق القوافل القديمة أو التي تسلكها الجمال، ولم يكن هناك سوى طريق واحد في البلدان، إذ غالباً ما تشق الوديان طريقها بين رؤوس التلال، أما في البادية فكان الرومان يحرصون على أن تكون طرقهم مستقيمة كالسكة حسب خطتهم المعتادة.

ولقد أزعج هيرود أجريبا أشد الإزعاج قوم مثل سكان ايدراي (درعا في يومنا هذا) الذين يعيشون تحت سطح الأرض. وقد تم اكتشف هذا العالم السفلي الرائع بأسواقه وساحاته العامة وبيوته وحوانيته، بانتزاعه من الصخر حرصاً على سلامة الآثار؛ لأن تلك كانت أياماً تنتهب فيها مدن وتُسرق في نهار أو ليلة فيفقدها المكان إلى الأبد. ثم رأى هيرود أجريبا أن الوقت قد حان لتشديد حماية الأملاك العامة فأصدر قانوناً في العام 41 ميلادية ينص على أنه يجب على سكان حوران أن يتخلوا عن عاداتهم البربرية في العيش في الكهوف، وأن يبنوا البيوت ليقيموا فيها.

فانصاع هؤلاء القوم وأخذوا بنصيحته، وشاهدنا أن دروز اليوم ما زالوا يسكنون بيوتاً تعود إلى ما قبل الإسلام. وهناك بيت وصفه دو فوغو ما زالت بقاياه قائمة، ولاشك أنه كان يضم فناء مربع الشكل ويحيط به البيت من ثلاثة أطراف. فكان هناك على اليمين برج، وهذا من سمات القرى قي حوران، ويتألف من ثلاث طبقات ومكان الحارس في الطابق الأرضي. وهناك قاعة ضخمة بارتفاع الطابقين اللذين يتألف منهما البيت، كما

أن البيت يضم غرفتي نوم وفجوة في الجدار للفراش، وحجرات للثياب ذات فجوات تستوعب الملابس. وهناك سلالم خارجية ومكاتب واصطبل يتسع لأحد عشر حصاناً وإدارياً. وكان هذا بيت شيخ حسن الحال، إلا أنه كانت هناك بيوت أشد تواضعاً وكانت مريحة وراسخة جداً.

وكان الأنباط قد نقلوا معهم من البتراء عبادة كل من ذي الشرى واللات؛ أم الآلهة، وكان معبد سي مكرساً للإله بعل شامين، كما يرد في النقش «لذكرى مالك بن عيسو بن معيرو الذي بنى داخل وخارج هذا المعبد والأبراج تكريماً لبعل شامين من العام 280 حتى العام 311... بسلام».

وهذا النقش قد ضم إلى بعضه، وثمة كلمات منه – مثل الأبراج – تفتقر قطعاً للدقة؛ بيد أن الغاية من وضعه قد تحققت؛ فهو يخبر عن أولئك الذين أقاموا المعبد. أما الداخلي والخارجي فيبدو أنهما يشيران إلى الناوس المزدوج، قدس الأقداس حيث تمثال الإله والمذبح، أما العام الذي يشير إليه تقويم السلوقيين فهو العام 32 ق.م

وأما تمثال هيرود بالحجم الطبيعي فقد أدخل إلى المعبد بغض النظر عن السبب في إدخاله إلى معبد نبطي، ولا نملك أن نجزم إن كان مرد ذلك النعم التي قدمت أو مداهنة عدو بلادهم، وعلى أي حال فقد حطمه المسيحيون حتى صار فتاتاً، ولم يبق منه سوى قدم واحدة ما زالت معلقة إلى قاعدة التمثال، وكذلك بعض أجزائه غير المميزة.

فماذا جرى للأنباط بعد طردهم من بيوتهم القائمة على البازلت الأسود؟ يرجح لدينا أن بعضهم صار من البدو الرحل واتجه شرقاً نحو الصحراء، ولعلهم أجداد إحدى عشائر البدو اليوم. ولكن لابد أن كثيرين منهم مكثوا في تلك الأرض ليعملوا في فلاحتها وزراعتها في ظل أسياد جدد؛ بل إن المرء ليكاد أن يتخيلهم قد حلوا في مدن الحلف العشر، حيث يمكن لهم متابعة تجارتهم التي لطالما كانت خاصيتهم القومية. فإذا انتزعت منهم قوافلهم فلا ريب بأنهم ربما عملوا في دكان أو محطه ترد إليها البضائع، وقد كانوا أشد نفعاً للعاملين في الميدان من أن يتجاهلوا أمرهم، ولذلك غدت كلمة «نبطي» تستخدم بمعنى عامل الحقل.

كانت المدينتان الرئيستان عند هؤلاء القوم الذين اختفوا من المشهد: بصرى العاصمة وصلخد، وتبين أهمية هاتين المدينتين بجلاء مقدار ثراء أصحابهما ومكانتهم؛ ولقد ظلت بصرى العاصمة حتى بعد استيلاء الرومان على حوران، ثم أصبحت حاضرة مسيحية بالغة الأهمية في إطار الإمبراطورية البيزنطية. وما زالت بصرى إحدى أشد المدن إثارة للاهتمام في شرقي فلسطين، وهي تضم كثيراً من الخرائب التي تعود إلى الفترتين الرومانية والبيزنطية.

الفصل الحادي والعشرون
جــرش

تستلقي جرش– جراسا القديمة في تحالف المدن العشر– تحت أشعة الشمس، والوقت الآن أوائل الربيع؛ ولكن الجو مع ذلك حار على نحو ملحوظ في الصباح الباكر، فأشعة الشمس تحمل معها قدراً ملحوظاً من الحرارة، وتعد كذلك بالمزيد. والسماء زرقاء، ويخيم فوق التلال القريبة التي هي بلون خضرة الربيع ضباب أزرق، أما التلال الأبعد فلها لون بنفسجي خفيف، وبالقرب من بوابة النصر [باب عمان] تنتصب الذرة بارتفاع قدم، واللون الأخضر اللطيف في تضاد مع الأزهار البرية التي تتناثر على الأرض، وضربات من الخردل البري وشقائق النعمان، ونباتات الأشواك البرية (الأكانثة أو الكنكر) التي تنمو عند أسفل أعمدة تحمل تيجانها شكل النبتة الجميل.

إنه لمشهد شديد السكون، والخرائب هناك قائمة في أرض هادئة بعيدة عن ضوضاء المدن، والقرية الشركسية على الضفة اليسرى للنهر أشد بعداً عن وسط المدينة القديمة من أن تفسد عليها صمتها النبيل. وليس هناك شيء من ضجيج عمان، والجلبة حول خرائب فيلادلفيا؛ ذلك أن جرش مدينة ميتة، أو ربما هي مدينة راقدة تحلم بالماضي، إنها مستغرقة في الماضي لا يشغلها شيء من أحوال الحاضر؛ لأنها ظلت مدينة رومانية متحجرة، وليس لها من أمور أي عصر لاحق ما يفسد تناسق الكل.

ذلكم هو سحر جرش؛ إنها تكاد أن تكون أنموذجاً فريداً لبلدة رومانية، نقول ذلك لأنها بلا ريب رومانية، وإن ظل مواطنوها يحتفظون من حيث الروح بالكثير من سماتهم اليونانية، أعني شيئاً معيناً من الثقافة ووجهات النظر التي صمدت عبر القرون، وترسبت متجاوزة الوقت القصير من الهيمنة اليونانية.

تقع جرش في حوض تحيط به التلال، وعبر هذا الحوض من الأرض المزروعة يمر واد قليل العمق، يجري فيه جدول النهر الذهبي عند الرومان، ويندفع فوق الحصى حتى يصب على بعد ألفي قدم في الزرقاء، وهذا الجدول قوي حافل أبداً بالماء، ويجعل موقع جرش

مثالياً. وضفتاه غنيتان بأشكال النباتات التي تزين الطبيعة هناك، من أشجار الصفصاف والدفلى والحور وهي الغالبة، وإن كان ثمة أشجار مثمرة، وغير بعيد عن ذلك أشجار التين والزيتون أيضاً.

إن من أولى الانطباعات التي تتولد لديك حين تقف في طرف باب عمان ضخامة الميدان الذي تنتشر فيه الخرائب؛ فما زال الباب الكبير قائماً بقوسه الثلاثي، وكتلة الأعمدة التي ما تزال قائمة داخل أسوار المدينة، وكثير منها ما زال هناك؛ الساحة العامة التي على شكل إهليلجي، وأعمدة معبد أرتميس الكبير، وغير ذلك من معالم المدينة البارزة، وهي تكفي في حد ذاتها لإثارة اهتمام أشد علماء الآثار طمعاً، وهناك على مدى النظر تقريباً مجموعات صغيرة من الأعمدة تنتصب على طرف التل، وتلكم شواهد وحيدة على الاستيطان في الماضي. والانطباع الثاني هو بالتأكيد الجمال الهادئ الذي يتمتع به المكان. فإذا كنت قادماً من البتراء فإن التناقض في اللون وسمات المكان الرئيسة الأخرى سوف لن تعجز عن التأثير في أعماقك؛ فالبتراء شعلة وردية في صحراء من الصخر، أما جرش فحجارة ذهبية وسط حقول خضراء.

وإنه لرأي سديد أن يحيط المرء بصورة عامة لجغرافية جرش قبل التمعن في تفاصيلها.

يقع باب عمان على الطريق الروماني المتجه جنوباً إلى عمان، على مسافة قصيرة من أسوار المدينة؛ ويرى المرء إلى اليسار مساحة مشغولة، وكانت ذات يوم لوحة تصور معارك بحرية وهمية، ومناظر مائية ومن خلفها مدرج. ويبدو أن الباب الجنوبي في سور المدينة كان شبيهاً بالبوابة الخارجية، لكن لم يبق منه سوى القليل الضئيل. وهناك في داخل الأبواب– إلى اليسار قليلاً من البوابة– أعمدة معبد تستوي على مصطبة اصطناعية فوق رابية غير متوقعة، وما زال هناك الجدار الجنوبي لحجرة التمثال المقدس [في المعبد اليوناني]، وبعض الأعمدة من الطراز الكورنثي، ويطلق عليها العرب اسم «بيت الطي Beit et» وبالقرب من هذا المعبد يقع المسرح الجنوبي. وإلى اليمين هناك الساحة العامة البيضوية ذات الشكل الانسيابي، والأعمدة الأيونية الطراز، وواجهة المعبد الحجرية في موضعها المناسب، وهو لا يكاد يترك مجالاً للأسف لأن الشكل البيضوي لم يكن تاماً.

صورة [مقابل ص 234 في النص الانكليزي]
باب النصر، جرش

يبدأ شارع الأعمدة الكبير من شمال شرقي الساحة ويستمر مسافة نصف ميل، ويتقاطع الشارع الرئيسي هذا مع طريقين تصطف على جوانبهما الأعمدة، وفي كل منهما نصب رباعي الأعمدة (تترابيل) عند التقاطع، وبين هذه وبالقرب من الدرب الأبعد ينتصب مدخل معبد أرتميس على مصطبة فوق أرض عالية تطل على المدينة. ومن المشاهد البارزة بقايا حجرة التمثال المقدس، ومجموعة من الأعمدة ذات الطراز الكورنثي، وهي في حالة جيدة، وكانت تزين الرواق المُعمد، كما أنها تبرز للناظر في المشهد العام. وبالقرب من المعبد هناك عدة كنائس مختلفة بنيت من مواد البناء القديمة؛ ومن بينها بازيليكا كنيسة من العهد البيزنطي.

كان الدرب الأبعد من الشارع ذي الأعمدة شارع المسرح، وإلى اليسار منه يقع المسرح الشمالي الذي يبدو أنه أريد منه أن يكون خاصاً بعروض المصارعين وغير ذلك من الاستعراضات المحببة إلى قلب الجندي الروماني. وإلى يمين الطريق يجري النهر الذي كان يعلوه ذات يوم جسر للعبور، وكان هذا الطريق يضم بعض الحمامات الرائعة؛ إلا أن الدرب المؤدي إلى المعبد كان قصيراً جداً، ويستمر هذا الطريق حتى النهر، متجاوزاً موقع كنيسة بيزنطية من عهد متأخر، وكان أول تقاطع طرق– وهو الأطول– يمتد من أحد الأبواب الشرقية حتى يبلغ سلماً يؤدي إلى جسر آخر فوق النهر. وكان الشمال والجنوب

خارج الأبواب مستقراً لنواويس توابيت حجرية. وهناك ضريح حجري كبير وهو ضريح السموري، وله بوابة ممتازة وبعض الأعمدة ذات الطراز الكورنثي، وثمة خرائب بازيليكا تقع خارج البوابة الشمالية، وقد نفذت في موقع معبد نيميسيس الوثني ومن مواد هذا المعبد.

ذلكم هو باقتضاب هيكل البلدة، ومن حسن الحظ أنه ليس ثمة ضرورة لتقديم صورة عن جمالها؛ إذ إن الرسوم المعروضة ههنا توفر مثل هذا العرض على نحو مبدع. وإن لشارع الأعمدة وقعاً مؤثراً في النفس؛ لأن ثمة خمساً وسبعين عموداً ما تزال قائمة، من بين العدد الكبير من الأعمدة التي كانت أصلاً، وتذهب التقديرات في تحديدها مذاهب شتى.

وهناك بعض بقايا خط الأعمدة الداخلي، وقد ذهب الرأي إلى أن شارع الأعمدة مطابق لما هو في المدن الإغريقية – الرومانية، ويعلوه رواق مقنطر مفتوح على مستوى الطابق الأول في البيوت. وقد أخبرنا ليبانيوس مقدار أهمية هذه الشوارع ذات الأعمدة، وهذا الطراز من الهندسة انتشر في سورية لما انتقل إليها بعد بناء أنطاكية، وكما ذكر ذاك الكاتب الطريف في روايته للعدد الكبير من المشاهد الفاتنة التي تتمتع بها المدينة الساحلية، فأنت لست مضطراً للبقاء تحت سقف الدار إذا ما ساءت أحوال الطقس؛ لأن لديك رواقاً مقنطراً تلجأ إليه يقيك المطر والهواء العاصف، وسرعان ما صار هذا من الضروريات للعدد المتزايد من السوريين الإغريقيين ذوي النزوع إلى الترفيه، وللرومان أيضاً.

في نظرة طائر محلق إلى جراسا ليس ثمة مجال كبير يمكن أن يستوعب فرقة من الجيش الروماني، كذلك ما من متسع هناك تستطيع فيه القلعة أن تصمد في أيام شديدة الوطأة خلال الحروب الصليبية؛ فهل كانت هذه الفرقة في معسكر خارج الأسوار؟ أما القلعة فلدينا شهادة الجغرافي العربي ياقوت [الحموي]، وهو ثقة وإن لم يزر جرش في زياراته وجولاته، وأخبرنا ياقوت أن ملك دمشق في القرن الثاني عشر بنى حصناً قوياً، ثم استولى عليه بلدوين الثاني في العام 1122م. وعمل فيه تدميراً ولم يبق فيه حجراً على آخر. ولما كان ياقوت ولد عام 1179 فلنا أن نستنتج هنا أن مصدره يومذاك رجال طاعنون في السن، ولربما

اعتمد على شهادتهم، ويبدو أن من أخبروه قد أخطؤوا في تعيين المكان. وكان ياقوت قد أمضى بضع سنين رثقاً في حماة قبل أن يُعتق، وعلمنا من أخباره أنه أقام ببغداد ورسخ، ثم مات في حلب سنة 1229. والمؤكد أن الصليبيين لم يحاولوا المحافظة على المكان، والبرهان على ذلك أنه يخلو من الآثار التي تعود إلى ذلك الوقت وياقوت يتحدث عن جرش– وهو آنذاك في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي– فيصفها بأنها مهجورة تماماً.

وبعد أن نملي النظر إعجاباً بمشهد البوابة الثلاثية يسحرنا الحجر الكلسي الذهبي المشبع بالشمس الذي وفر مادة لكل الأبنية هنا، ونجد أن البوابة تستأثر بانتباهنا.

تبدو البوابة وكأنها لا صلة لها بالسور الخارجي؛ فقد كانت بوابة النصر التي على الناس أن يمروا عبرها في طريقهم إلى جراسا. ويشير تاريخها إلى قوس تراجان في روما ولها شبه به، لكن هناك بعض التفاصيل التي تناقض هذه النظرية.

إن البوابة مبنية بالحجر الكلسي المستخرج من الجبال المجاورة، وتتألف البوابة من قوس مركزي في الوسط، وفتحات صغرى على الجانبين، وتعلو كل منهما نافذة مربعة الشكل، وواضح أن الغرض منها أن تضم نقوشاً تزيينيه أو لتحتوي تماثيل لرجال. والقوس الأساسي تسنده أعمدة مدمجة ذات تيجان كورنثية الطراز، إنما أدعى مظهر للاهتمام في هذا البناء أشكال كأس الزهرة في أوراق الأكانثة (نبات الكنكر) الزخرفية البارزة بقوة التي يرتفع منها بدن الأعمدة على كل جانب منه. والعمود الوحيد الذي يتمتع بقاعدة مزخرفة على هذا النحو وأتذكره الآن هو الذي تحدث عنه أندرسون وسبير في كتابهما «فن العمارة لدى الإغريق وروما» «Architecture of Greece and Rome»؛ فقد قالا في كتابهما هذا «إن العمود الأكانثي الذي عُثر عليه في دلفي ويعود إلى الفترة ذاتها، أي الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد؛ فيه يرتفع القسم الأسفل من البدن من الزهرة الكأسية في ثلاث أوراق أكانثية، ومن القسم الأعلى من البدن تنبثق ثلاث أوراق أكانثية تدعم تماثيل على شكل نساء يحملن مسنداً ذا ثلاث قوائم. ويشهد البروز الكبير للأوراق الأكانثية والحيوية الظاهرة في الحفر أن الخاصة التزيينية التي تتسم بها هذه الورقة يجب أن تكون قد تحدرت من وقت مبكر جداً.

إنني لا أتذكر الآن ولا أجد إشارة في الكتب التي تختص بجرش إن كان قد عثر على التيجان الخاصة بهذه الأعمدة. ويحتمل أن هذه الأعمدة كانت تسند أشكالاً تمثل أناساً وهذا من شأنه أن يزيد من أهمية المدخل المهيب إلى المدينة. إلا أن هذه الأعمدة مثيرة للاهتمام على كل حال بسبب تلك القواعد غير المألوفة.

إن أقواس المداخل الجانبية التي وقعت في الخارج– حين تُشاهد من الجانب الآخر– تبين أن المدخل إلى اليمين ذو قوس مزدوج، إنما الداخل كله متراكم مختلط بالأحجار وقطع الحجارة المتساقطة مما يفسد مشهد البوابة على الإجمال.

وحين فحصت البوابة واستوعب المشهد على العموم كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، وبدأت بصب حرارتها على الحجارة، حتى صارت تذكر بشمس الصيف، وهي حرارة جافة طيبة لكنها ليست بالتي تقعد الإنسان عن الحركة؛ إنما حرارتها كافية لتجعلك تنزع إلى أخذ الأمور بيسر. والتوجه إلى البقايا الضئيلة من بوابة الجنوب هي أول ما عليك أن تبذله من الجهد؛ وأقول الجهد لأن المشي ليس بالأمر اليسير في جرش، بل إنه بالأحرى متعب؛ فأنت حين تتخذ طريقك فوق الحجارة وتسلك الطريق صعوداً وهبوطاً على ركام تلك الأحجار تكون إما على أرض عسيرة كل العسر، وإما على صخور شديدة على الراجل الذي يسلك تلك الدرب؛ أما إذا شئت أن ترى شيئاً ما فإنك لا بد أن تتعثر في سيرك.

يظن بقدر من الثقة أن المساحة البيضاوية التي كانت تحيط بها ذات يوم أعمدة أيونية الطراز هي ساحة عامة؛ فإذا صدق الرأي فلا بد أنها كانت عندئذ شبيهة بالأغورة الإغريقية التي كانت في كثير من الأحيان أبسط مما صارت عليه الساحة الرومانية، بفضل ما أصبحت تحفل به هذه من المعابد والمباني العامة والتماثيل. ويرجح أن تكون هذه الساحة قد غدت مكاناً مفتوحاً تحيط به الأعمدة كحالها دائماً، وربما ضمت إليها حوانيت تحت القناطر نشأت وتطورت مع اتساع التجارة. ولا بد أن المساحة في الوسط كانت أرضاً لرياضة الجياد، واستخدمت على هذا النحو في بعض الأسواق الأكثر بدائية. ولكن الكاتبين اللذين نقلنا عنهما يكتفيان بالقول:

«كان طول الشارع الرئيس في جراسا 1800 قدم، منه نحو 1300 قدم مرصوفة بالأعمدة الكورنثية على كل طرف، ويبلغ ارتفاع العمود عندئذ خمساً وعشرين قدماً، أما الأعمدة الباقية فكانت من الطراز الايوني بارتفاع عشرين قدمٍ. وهذه الأخيرة تنتهي بساحة مستديرة على ما يبدو لتبديل خط المحور ليصبح معبداً وراء ذلك».

صورة [مقابل ص 238 في النص الانكليزي]
شارع الأعمدة، جرش

والمعبد المذكور هو طبعاً «بيت الطي»، والمساحة البيضاوية ذات الأعمدة – لأنها ليست دائرية – ربما كانت ساحة ضخمة، وإن كان اختيار موقعها؛ أي ضمن الأسوار مباشرة مستغرباً. ولقد كان هذا من جهة أخرى وضعاً مريحاً جداً للمزارعين، ومربي الحيوانات ليأتوا بقطعانهم وغلال الحقول؛ نظراً لأنه كان يحظر في المدينة الرومانية استخدام وسائل النقل ذات العجلات أو أي وسيلة أخرى، سوى ما كان يخص من ينتمون إلى الطبقة الحاكمة في أثناء النهار، ويسمح لهم بالعمل في الليل. وهذه إحدى النقاط التي يثيرها ليبانيوس حين يروي محاسن انطاكية – الهدوء التام حين تتوقف الحركة في الشوارع، غير المحفات التي تخص الحاكم الكبير في المدينة أو عربة طارئة، ويقول ليبانيوس إن الحركة الكثيفة كانت مسموحة ليلاً، غير أن ذلك لم يكن موضع عناية من

المواطنين السعداء في تلك المدينة التي تستطيب حياة المتعة والملذات فيحيلون الليل نهاراً. وواضح أنه ما من أحد كان يرى في ذلك ما يدعو للضيق.

تعد ساحة جرش– أو مهما تكن– إحدى أشد الموضوعات إثارة لقلم الفنان؛ فالمحمول المنحني الذي يعلو العمود يربط الأعمدة، ويقدم خطاً جميلاً للسماء، وعبر الفراغات بين الأعمدة تشاهد المجموعات المكسورة على الجانب المقابل لشبه الدائرة، والأرض مكسوة بالحشائش والأزهار البرية، والمكان حافل بالأعمدة التي تظهر فرادى أو أزواجاً وتطرز سفوح التلال القريبة، وإلى الأمام مباشرة يرتفع الرواق المعمد في معبد ارتميس ومن ورائه سماء صافية.

تحفل جرش بالمشاهد التي تستحق المشاهدة، والكثير الكثير من الأشياء المتفرقة التي تسترعي الاهتمام، فضلاً عن تلك العمائر التي يجب دراستها؛ ففي شارع الأعمدة وحسب ربما تقضي أياماً، ثم تغادر وقد فاتك الكثير مما يجب مشاهدته، والأعمدة في وسط البلدة هي الأفضل وجميعها من الطراز الكورنثي وهو حقاً الطاغي كما كان الحال عادة حين يقوم الرومان بالبناء؛ فقد كان هذا يلائم ذوقهم لزخرفتها وجلالها، وأفضل بكثير من الطراز الدوري المتقشف والايوني البسيط. والكتل الأسطوانية في هذه الأعمدة الرفيعة كثيراً ما تنال منها الهزات الأرضية، ولكنها دائماً بسيطة ولم تحفر فيها أخدوداً قط. وكانت التيجان تطويراً رومانياً لورقة الكنكر اليونانية؛ إنما يرجح أن يكون فنانون يونانيون كما هو الحال عادة في سورية قد نفذوها. فتكاد كل قاعدة بين الأعمدة التي كانت تحيط بالشارع الرئيسي في مكانها، وهناك ما يكفي من الأعمدة القائمة لعرض فكرة واضحة أشد الوضوح عما كان شكلها حين كان احتلال المدينة. وما زال الكثير من أرضية الشارع الروماني في موضعه، سوى أنه مغمور بالأنقاض والحجارة المحطمة مما يثقل على الدرب. وفي الترابيل نجد القواعد في مكانها، غير أن الأعمدة والتماثيل التي كانت فوقها باتت مفقودة، وكانت تلك النصب عند تقاطع الطريق تزيد كثيراً من تأثير المكان في النفس. وكانت المدينة تتلقى كل ما يبذل في المدينة الإغريقية – الرومانية والعناية بالمشهد وتكوين الموقع؛ والحق أن السهولة في ترتيب المدن الحديثة وازدحامها

كانا ليستفزا حس الإغريق بالنظام الجمالي في كتلة البناء المنتظمة المُحكمة.

إن مدخل معبد أرتميس لسوء الحظ في حاله من الخراب البالغ فقد سقط رباط البوابة الكبرى؛ غير أن ثمة كوتين لنافذتين وواجهتين مثلثتين تزينان الواجهة مشبعتان بالنقوش. وهناك بعض أعمال النحت على الطرف الغربي التي أُحسن حفظها.

يقال إن جرش لا يتقدم عليها حجماً وأهمية سوى تدمر، وهي الثانية بعد بعلبك لجمال عمارتها. والمدينة جديرة بالزيارة، وعلى أي حال فإن الجهد الذي يبذل في أعداد الترتيبات اللازمة للإقامة هناك بضعة أيام لا يضيع سدى.

الفصل الثاني والعشرون
حكاية جراسـا

يقال إن جراسا التي شهدت صعودها ثم سقوطها في أربعة قرون كانت بلا تاريخ تقريباً، بيد أنها تتوق جاهدة إلى بلوغ ذروة السعادة. ولعل كلمة «تقريباً» تنطبق على هذه الحالة، حين نأخذ في الحسبان التواريخ الأكثر تشويقاً التي تحيط ببلدات أخرى؛ ولكن حسبنا ما يجعلها جديرة بمحاولة وضع هذه القصة في إطار تاريخ تلك القرون الأربعة المعقد.

وهناك تشديد يتردد كثيراً، ولعل التعسف يشوبه، وأعني تحديداً أن جراسا إنما شيدت على موقع جديد. فمن المستبعد جداً أن مثل هذا الموقع المتميز بما فيه من ماء جار لديه من دون المواقع الأخرى جميعاً ما يجعله يجتذب إليه الناس الذين يعيشون في أرض خلت من الماء، ينبغي أن يبقى غير مأهول؛ والحق أن هناك نظريات مختلفة عن وجود مدينة هنا في سالف الزمان، ولكن لأنه ليس ثمة بقايا لمبان سابقة للفترة الرومانية؛ فليس لهذا الوضوع أن يؤخرنا عن متابعة ما نحن بصدده.

يذكر ريلان بعد أن يبين مختلف الأخطاء التي وقع فيها من تناول الموضوع، كالخلط بين جراسا وجدارا؛ أن العرب كانوا يسمونها جلعاد، ويصف أصولها بوصفها مدينة إغريقية خص بها «كبار السن الذين حاربوا تحت إمرة الإسكندر، واستقروا هنا بعد ما أصبحوا عاجزين عن متابعة جنده»، هذه هي طبعاً القصة المألوفة التي تروى، فقد أسس أوائل المحاربين مدينة هنا قُصد بها أن تكون مدينة / دولة على الطراز الإغريقي، مثل تلك المدن التي زُرعت في جميع أرجاء المنطقة بيد جماعة المستوطنين أولئك. وكانت المدينة / الدولة تلك تحكمها القوانين الإغريقية، وآلهتهم التي يتزلفون إليها كانت إغريقية خالصة؛ بل يبدو أنه حتى ذو الشرى – باخوس واللات – أثينا ليسا في عداد الآلهة الرسمية، بل والأغرب من ذلك أن سلسلة الآلهة الرومانية كانت مستثناة أيضاً من بين آلهتهم.

حين بنيت جراسا كان في جوارها بلدات يونانية عديدة، وكانت هناك مدينة جدارا

التي تقع وسط الطرق الثلاثة من الأردن إلى الصحراء ودمشق، حيث بيلا في الجنوب وهيبوس في الشمال أو طريق دمشق. وكانت الأراضي التابعة لهذه المدن تتصل بالنجاد في شرق الأردن وتتحكم بها. فكان طريق بيلا يمضي ناحية الجنوب شرق تلال جلعاد، ويظهر بالأحجار الرومانية التي تحدد المسافات وتكتشف بين حين وآخر. ويسمي أوسيبيوس هذا الطريق الذي تتوضع عليه مدن ديون وجراسا وفيلادلفيا القاموس الجغرافي الإغريقي.

وهكذا كانت جراسا– منذ البداية مع أنها لم تكن الأولى التي يرد ذكرها– على اتصال بالمدن الأخرى التي كانت حتى في ذلك الحين متحالفة في ما بينها في موضوع الدفاع. وكان لكل مدينة من هذه المدن ضواحيها وملكيتها تعود لمواطنيها، وكانت كل مدينة مبنية على المخطط المعتاد من شارع عظيم مزين بالأعمدة، ويتقاطع على مسافات معينة مع طرق أخرى، من دون الشارع ذاته أهمية، وفي كل من هذه الشوارع مبان عامة ومعابد وساحات ومسارح وبيوت سكن خاصة مزودة بالحمامات التي كان الرومان لا يستغنون عنها. ولقد منح اليونان وروما البلدة حضارة، وكانت قد تلقت مثل هذه المنحة من مصادر عديدة ومختلفة جداً.

في البدء كانت روما صاحبة الرعاية العظيمة ففي عهدها شُقت الطرق، تلك الطرق الحسنة الرصف وذات الحدود والعلامات التي تصادفها أحياناً من دون أن تنتبه إليها، إلى أن تسمع فجأة صوتاً معدنياً صلباً تحت حوافر حصانك. كذلك كانت القنوات تجلب الماء من مسافة، والقنوات تتخللها الجسور؛ فانبثقت المدن تامة لا يعوزها شيء وجميلة قبلة للعين من تحت رماد تلك المدن المدمرة والدخان يتصاعد منها. وكان مع هذا كله اتساع المشهد وما يتصل به من المشاعر الدينية لدى تلك الأقوام والشرائع والعادات، وحيث ضرب الحذاء في أسلاب أمة كانت أبداً تحتاج المال لتتابع مخططاتها للفتح والتوسع، وأبداً تحتاج جيوشاً جرارة من المرتزقة في عدد لا يحصى من البلدان. وكانت هذه الأسلاب تتخذ شكل حمل مملكة صغيرة ما على دفع تكلفة الحرب التي انتهت بخسارتها، وقد سبق أن رأينا كيف اشترى هيرود صداقة روما بالمال.

صورة [مقابل ص 244 في النص الانكليزي]
عند تقاطع الطرق، جرش

كان أول ما سُمع بجراسا في التاريخ يوم استولى الإسكندر يانيوس على المدينة وعمل فيها سلباً ونهباً. والإسكندر إنما كان في هذا يجري على ما كان عليه العرف في ذلك الزمان؛ حين تحول عن اسمه العبراني واتخذ اسماً رومانياً، بيد أن المرء يهتز ويضطرب حين يتذكر تاريخ أسرته؛ فقد كان جد والده ذلك المجلي الشيخ متيا الكاهن الذي أطلق وأبناؤه الخمسة ثورة الاستقلال اليهودية حين اشتد عسف الطاغية أنطيوخس الرابع. وظهر يومئذٍ يهوذا المكابي المطرقة أو ذو المطرقة، وبرهن على أنه جندي مقاتل عنيد ومنظم قدير، وبحلول عام 166 تمكن اليهود من إعادة القدس والانتصار على جيوش أنطيوخس؛ ثم بذل رجال الملك عندئذ محاولة لإضعاف قوة الحزب الجديد، وخرجوا بالفعل لاجتثاث ذلك العرق وإحلال آخرٍ محله. ولكن الحرب انتهت بتسوية، وبدأت حقبة أخرى حين نال اليهود السلام، وصاروا ينعمون بالرخاء في عهد يهوذا، ثم في عهد سمعان الذي نودي به «إثنارك»؛ أي نائباً للملك والكاهن الأعظم، وكان فعلاً الحاكم بعد مقتل بقية أسرته حسب ما جرى في تلك الأيام. وقد واجه سمعان ذاته المصير [القتل] نفسه، غير أن ولده يوحنا هركانوس، تمكن من الهرب إلى القدس حيث تولى منصبي الكاهن الأعظم والحاكم. ولسنا ندري ما جعله يتخذ اسم هركانوس ولا ندري السبب في أن أولاده الذين عرفوا بالاسم أرسطوبولس وأنتيغونس والإسكندر. وباتوا يعرفون على هذا النحو الذي

ذكرناه، والتفسير الوحيد لذلك أن اليهود باتوا شأنهم شأن السوريين يتخذون لأنفسهم طابع الهيلينستية، إلى حد أنهم استبدلوا بأسمائهم أسماء أخرى هيلينية؛ وكان هذا شأن النساء أيضاً؛ فكن يستبدلن اسم العائلة مثل سالومة بألكسندرا، ولكن ذلك لم يكن متوقعاً من أسرة المكابيين المناهضة للإغريق وشديدة التمسك بالوطنية اليهودية.

وكان أفراد الأسرة الحشمونية دوماً في حرب مع بعضهم بعضاً؛ فكان الأخ ضد أخيه، ومن أخبارهم أنهم أحالوا زمن الثراء الذي بدأه أسلافهم إلى عهد من الكوارث انتهى بهيمنة الرومان على المنطقة. وكان سمعان مؤسس الأسرة ويوحنا هيركانوس الذي أحسن الحكم سنوات عديدة آخر الشخصيات التي جعلت من أولئك القوم أفذاذاً، ثم جاء التدهور في إثرهم، وكان الإسكندر أشد أهله انحطاطاً كما كان مكروهاً من اليهود وغيرهم على حد سواء، وكانت قسوته رهيبة؛ بل إن العديد مما اقترفته يداه كان يفوق كل ما أتى به نيرون من أعمال وحشية.

أما أنطيوخس السابع الذي خلف أخيه ديمتريوس، وأغدق المنح والامتيازات على اليهود؛ فقد تفوق عليهم حين سألهم الثقة به، ثم نكث بعهوده حين وجد أنه يستطيع تدبير أموره من دون مساعدة منهم، وكان هذا سبباً في استئناف الحرب فيما بينهم. أما حروب المكابيين فيمكن فهم أسبابها بعد استيلاء أنطيوخس الرابع على القدس وسلوكه يومذاك. لكن يبدو أنه ليس هناك من سبب وجيه يفسر ذلك القتال الذي دار في عهد إسكندر يانيوس. ويقال إن الاستيلاء على جراسا وأعمال النهب فيها كان مبعثها الانتقام، ولكن يوسيفوس يقول صراحة إن السبب كان أن ثيودوروس بن زينون طاغية فيلادلفيا قد أودع هناك كنزه. وهذه الواقعة تعيد اتصالنا بفيلادلفيا من جديد، وكانت يومئذٍ مدينة إغريقية من المدن المتحالفة العشر، ويقوم على حكمها يوناني أو سوري ذو اسم يوناني، ولكن الأرجح أنه يوناني. ولا يظهر لنا أن ثمة سبباً يفسر وضع تيودوروس الكنز في جراسا، غير أنه دار حول فيلادلفيا الكثير من القتال، ولعله ظن يومذاك أن بعدها عن الطريق الدولية بين مصر وسورية يكفل لكنزه مكاناً أكثر أمناً.

استولى الإسكندر على بيلا وبنى سوراً ثلاثياً حول جراسا، وبعدئذٍ أخذ ذلك الموقع

عنوة. وليس لنا سوى أن نتخيل أنه ترك الموقع ومعه الكنز، لكنه لم يتمتع بكنزه طويلاً، لأن الموت فاجأه بعيد ذلك، وكان عهده قد استمر سبعة وعشرين عاماً. ثم خلفته أرملته ألكسندرا في الحكم، وكانت حاكماً أفضل منه، وقد مضى ابناها أرسطو بولس وهركانوس فتابعا اقتتال الأسرة.

ولقد انتزع الأمراء الحشمونيون من المدن الإغريقية حقوقها ومضوا بفرض الأتاوات عليها، كذلك كان هؤلاء عرضة لإغارات أعراب الصحراء؛ فاتسمت السنوات التالية بالشدة. ثم حلت بجراسا كارثة أخرى؛ فبعدما استولى فيسباسيان على القدس وجه قوة كبيرة من الفرسان والمشاة عبر نهر الأردن إلى جراسا، وكانت هذه القوة بقيادة لوقيوس آنيوس الذي تمكن من المدينة واجتاحها في أول هجوم. والحق أن مسألة الاستيلاء على المدينة كانت محسومة، نظراً لضعف دفاعاتها بعد هجوم الإسكندر عليها، ويبدو أن الحامية فيها فزعت عند اقتراب الرومان، كما علمنا أن آنيوس كان قد وضع السيف في رقاب كل من أعرض عن الهرب. كذلك أجاز القائد الروماني لجنده نهب المدينة وأخذ غير المقاتلين جميعهم أسرى لديه. وأحرق المدينة بعدئذ، وهكذا بادت المدينة اليونانية ولم يبق منها من أثر.

ويبدو أن الدمار الذي نزل بالمدينة كان تاماً، ومع ذلك فقد قامت جراسا من جديد في غضون نصف قرن وبعثت من رمادها؛ فالرومان الذين دمروها أعادوا بناءها مدينة جديدة، ونالت حقبة من الرخاء العظيم. ومع الامتيازات التي أعادها بومبي بدأ بحق حلف المدن العشر حياته المدنية. ولقد أصبحت من ثم إحدى الحواضر الأثيرة عند الرومان، واستمرت تحت الحكم الروماني ردحاً أطول من عهدها تحت الحكم اليوناني، واستمر طابعها القديم. وكانت اللغة التي يتحدث بها القوم الإغريقية كما تشهد النقوش التي عثر عليها هناك؛ فكيف أثر الرومان في حياتهم المشتركة والإغريق والسوريين؟ ثمة أمر واحد بعينه يؤكد التأثير هو أشكال الترفيه عن النفس؛ فالمسرح قائم على أساس الطراز الروماني المعدل، ثم إن هناك مسرحاً واحداً صمم بجلاء لعروض المصارعين. كذلك أخذت المراسيم مع مضي الوقت تصدر باللغتين، فضلاً عن ظهور علامات أخرى تدل على نشوء حضارة

مولدة. وكان أعظم العبء يتجلى في الإسفاف في فرض الضرائب مما كان على الجراسيين مكابدته واحتمال أعبائه. ولكن القوم لم يكونوا لينظروا إلى تلك الأموال أنها أنفقت هدراً؛ لأنها كانت تكفل لهم الحماية من هجمات القوى الأضعف، وأدت إلى أن يعم المنطقة حقبة من الهدوء النسبي.

ولم تكن جراسا إحدى البلدات التي أعطيت إلى هيرود، عسفاً ومن دون أي وجه حق، ولا كان ماركوس انطونيوس قد منحها لكليوبترا، تلك الشخصية الفذة اللامعة التي أوقدت جذور السلالة المقدونية في مصر التي كادت تذوي.

ولقد ظلت جراسا مدينة على قدر من الأهمية، جعلتها المعرفة وترف العصر مكاناً طيباً لقضاء الوقت، وإن لم تكن حاضرة عظيمة مثل أنطاكية. فلابد أن السوريين اليونان أبناء الريف كانوا يسيرون صعوداً وهبوطاً في شارع الأعمدة، ويمضون ذلك الوقت في تداول الأخبار. وكان الرومان القادمون لتوهم من المدينة الخالدة أو نصف المستشرقين القادمين من بيزنطة [القسطنطينية] يختلطون والسكان الأصليين من المقدونيين اليونان. وكانت الزيجات المختلطة كثيرة؛ مما كان من شأنه أن يعدل كثيراً من أنماط الرومان واليونان معاً ويؤدي مع الزمن إلى انحطاطهما. ولقد خمدت الروح المقاتلة القديمة، وأصبح جيش سورية شبحاً للفيالق الرومانية التي أتت بخارق الأعمال حين حملوا أعلامهم الخفاقة وهم يجتازون نهر الأردن.

وفي بصرى– وهي يومئذ قاعدة يونانية عظيمة، وحيث يعسكر فيها دائماً فيلق– كانت هناك أماكن للهو، ومسارح أقيمت إلى حد بعيد لصالح الجند، واستعراضات المصارعة والمسرحيات لفرق جوالة من الممثلين الذين يؤدون تمثيلياتهم بحركات إيمائية. وعلى الرغم من أنه ليس من المألوف جعل المدن العشر المتحالفة مكاناً للحاميات الرومانية، لأن العرف جرى على أن يجعلوا حاميتهم قوة احتياط تستدعى عند الضرورة؛ فقد تحدث اميانوس مارسيلوس في العام 353 م، ومن بعده اوسيبيوس عن الفوج الثالث السيريني المعسكر في جراسا. وبما أن المعسكرات الرومانية كانت تقيم مذابح للعبادة حيث تستطيع قوات الجند من مختلف بقاع العالم ممارسة عباداتهم فضلاً عن العبادة الروتينية للإمبراطور

والعلم؛ فمن الصعب أن نتخيل أحدهم ضمن أسوار المدينة حيث تكون الآلهة على قدر من الخصوصية دونها البشر الفانون.

ومهما كان الأفراد المنضوون تحت راية الأفواج؛ فلا ريب أنهم كانوا يرتادون المدينة، ولا بد أنهم كانوا يستمتعون بالمباريات التي كانت تجرى في الملعب الشمالي، وربما كانوا يؤثرونها على المآسي التي كانت تؤدى بين الحين والآخر في المسرح الجنوبي. وكان كلا المسرحين رومانياً حقاً وحسن التجهيز، وكان المتبارون والمصارعون موضع طلب عظيم من الجمهور، فيما كان سباق العربات يثير اهتماماً عظيماً لدى الجمهور. وقد تعاون الموسيقيون والمسرحيون والراقصات اللواتي يعزفن على الناي ليزيدوا من بهجة الحياة في جراسا.

وهنالك أيضاً مخازن التجار في الشوارع ذات الأروقة المقنطرة، إذ يمكن لكل إنسان أن يروح عن نفسه ساعة أو أكثر، أو ربما يأتلف الناس أو يجتمعون على الشرفة في ساحة المعبد، فربما أقيمت أسواق في أماكن بيضاوية الشكل نسميها نحن ساحة المدينة.

لقد كانت تلك حياة حافلة بكل ما هو مشوق، ولو أنها لم تحقق إلا القليل من التقدم؛ فقد كان الأثرياء يعيشون حياة الرفاه والعطالة بينما الفقراء أرقاء، إلا أن مزاج الأهالي السوريين اليونانين كان ينزع إلى النشاط والسعادة، وطبقات النخبة حافلة بالثقافة والفطنة.

ومع مرور السنين حدث انعطاف كبير مع التحول إلى المسيحية، وكان هذا التحول في البداية بطيئاً، فظلت روح الوثنية طاغية، ولكن لم يكن ثمة محيص من أن تسلم راياتها في النهاية وتنسحب.

كانت بدايات المسيحية حقبة من الرخاء العظيم في جراسا التي غدت بعدئذ مقراً بطريركياً. وخلاف ذلك ظلت الأمور على حالها؛ فكانت إحدى الحضارات تتداخل وحضارة أخرى، والأمور تجري جميعها كما الأحوال في الماضي: قوم يتغلبون على قوم آخرين ثم يحصل التداخل بينهما. والآن أخذت ديانة المسيح تحل محل الوثنية بعد أن أعلن قسطنطين الكبير اعتناقه المسيحية. وكانت بيزنطة ما تزال تزدحم باليونانيين محبي

الجدل، فمضى هؤلاء يتجادلون فيما بينهم في أسرار الدين الجديد، وهذا ما أدى إلى ظهور مختلف الطوائف والهرطقات وتفشيها. ومن أجل حسم مسألة طبيعة المسيح دعي المجلس الخلقيدوني إلى الاجتماع الشهير في المدينة مقابل بيزنطة على شاطئ البوسفور. فتنادى يومئذ البطاركة من جميع أرجاء سورية للتداول في هذا الموضوع الخطير في العقيدة، وأعلنوا في النهاية أن للمسيح طبيعتين لا يمكن لهما الاختلاط لكنهما ليستا منفصلتين، فتفادوا بذلك هرطقات النسطوريين [يقولون بالطبيعتين البشرية والإلهية المنفصلتين تماماً]، والمونوفيزيين القائلين بالطبيعة الواحدة [الإلهية].

وقد أرسلت جراسا إلى هذا المؤتمر أحد الأساقفة، ولنا أن نتخيل هذا الأسقف ينطلق بكل جلاله في رحلته من المدينة الوثنية البيضاء وكنائسها التي أضيفت إليها حديثاً، كذلك نعلم من ريلند أن أسقفاً حضر من مأدبا ممثلاً مرجعه الحبر الأعظم، وكان رجلاً رفيع المقام. وكان عدد الأساقفة الذين حضروا هذا المجمع ستمئة، ولا ريب أنهم زاروا بيزنطة واستقبلهم الإمبراطور مرسيان الذي أمر بعقد المجمع.

كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد سقطت قبل وقت طويل من استسلامها تحت وطأة هجمات الأتراك في الشرق في القرن الخامس عشر. ولكن الإمبراطورية الشرقية لم تكن بالقدر اللازم من القوة لحماية مدن التحالف العشر التي سقطت واحدة بعد الأخرى. كذلك اجتاحها المغول كالجراد، فصارت الأرض التي كانت عامرة بالسكان ويجمع بينها خصائص المدن اليونانية صحراء قاحلة.

ولقد ظلت جراسا– أو جرش الحديثة– مهملة مهجورة طوال ألف عام وأكثر، قبل أن يستقر فيها حشد جديد من السكان على الضفة الشرقية من النهر بين بعض الخرائب، لكن بعيداً عن الأكثر أهمية منها. وكان الذين نزلوا فيها هم الشركس الذين فروا– شأنهم في ذلك شأن أبناء جلدتهم الذين استقروا في عمان– يريدون النجاة من الاضطرابات في وطنهم الأصلي. وقد وضعهم في تلك الأراضي الأتراك، ليكونوا حاجزاً من دون البدو الذين كانوا يغيرون على الجوار، ولذلك السبب ولأن استقرار عنصر جديد في بلد قديم لم يكن بالأمر الذي يحظى برضا الناس؛ لم يلق المستوطنون في البداية ترحيباً على الإطلاق.

فكان عليهم أن يتسلحوا في وجه العشائر التي وجد رجالها في خرائب جرش مكاناً طيباً لإقامة مضاربهم في أثناء ترحالهم، أو مأوى لقطعانهم وهم ينتقلون من مرعى إلى آخر. وقد أمكن للشركس أن يتدبروا عيشهم في هذه البيئة الجديدة ولا عون لهم سوى حميتهم الإسلامية. ولم يكن ثمة ضير لو انتزع هؤلاء الأحجار من تلك الخرائب لبناء بيوتهم؛ فكانوا ينسفون بعض الأبنية القائمة بالبارود، على نحو ما ورد في التقارير، ولا شك بأن هؤلاء القوم انتزعوا الكثير من الخرائب، كما يمكن أن يرى أي امرئ يكلف نفسه عناء تفقد بيوتهم. ومن حسن الحظ أن الأمر وقف عند هذا الحد؛ نظراً لأن الخرائب غدت تحت الحراسة، لكن الضرر كان قد وقع.

لابد أن المشهد كان أشد وحشية قبل أن يستقر الشركس على الضفة اليمنى من النهر، والمخاطر التي واجهها المستكشفون الأوائل لم تكن من تصوير الخيال؛ فقد كان الأعراب على عهدهم يحملون قناعة بأن ثمة ما بين الأحجار المتهاوية كنزاً مدفوناً. ويقال في هذا المجال إن طائراً رهيباً يحرس هذا الكنز. ولقد حملت الرعونة الراحل جيه. اس. بكينغهام الذي زار جرش في العام 1916 على التجوال في ضوء القمر بعد أن كتب اسمه على سور الحمام الروماني حيث كان قد آوى في تلك الليلة. وكان الأعراب على ثقة من أنه قد عيّن المكان لأنه اكتشف الكنز المخفي؛ بل لقد تهيأ لهم أنه كان يخرج إلى البرية ليتلو التعاويذ قبل أن يخرج الكنز.

ويعرف معظم الكتاب المصاعب العديدة التي صادفتهم في كل انعطافة وحملتهم على اختصار زيارتهم وقطع دراستهم، ومن هؤلاء مؤلفو كتاب «رحلات في سورية» «Travels in Syria» وكانوا قد صادفوا ظروفاً تعيسة جديرة بالوقوف عندها؛ فقد بذل أصحاب هذا الكتاب وقتهم وأنفقوا مالهم في استرضاء عشائر البدو لاصطحابهم إلى المواقع ذات الأهمية التي ينشدون زيارتها. فبعد أن فاتهم إدراك ليدي هيستر ستانهوب، وكانت قد هجرت الدير حيث تقيم عادة؛ بلغوا جرش ولكنهم لم يجدوا مرافقين لمتابعة الطريق إلى عمان والبتراء. وبعد لأي أمكن لهم إقناع بعض البدو من بني صخر بمرافقتهم، ووصفوا وصول بعض البدو وعلى رأسهم «أمير فتي» على مطايا، وورد أن هؤلاء كانوا

يطلقون العيارات النارية من مسدساتهم وهم ينحدرون على التل، فجاء هذا الوصف رومنسياً مشوقاً يثير المشاعر. وجلي أن هؤلاء البدو إنما أرادوا التأثير في أولئك الغرباء الرحالة، ولكن التعليق الوحيد الذي صدر عنهم يقول إنهم «ظهروا في حال من الطرافة على نحو يلفت النظر».

ولكننا على النقيض من المغامرات المزعجة التي خاضها الرحالة الرواد في المنطقة؛ نجد في حراستنا الآن الشرطة المحلية والفيلق العربي الذي يبدي دائماً كل عون ومساعدة، فلنا أن نقول إذاً إن لتقدم الحضارة فائدة من حيث توفير المتعة الهادئة بآثار الماضي.

الفصل الثالث والعشرون
معبد أرتميس

ليس ثمة بقعة مثل جرش تستهوي النفس للتجوال فيها، فإذا ما جلست على المصطبة التي يقوم المعبد فوقها فبوسعك أن ترى عندئذ عموداً ينقص منه الساكف الذي يستند إليه الإفريز والطنف، وأوراق الأكانثة (الكنكر) الحجرية فوق تاج العمود تبرز بقوة متجهة نحو السماء الزرقاء. وعند قدميك بين ركام أحجار البناء المتداعية المعهودة تجد نبتة الأكانثة البسيطة التي تنمو في البرية، وتظهر لك ما يمكن للفن أن يصوغه من إيحاء الطبيعة. ولك أن تنظر من عل إلى ميدان الخرائب، فتلاحظ الأعمدة الكثيرة التي تنتصب كالحرس تعين درباً لابد أنه كان ذات مرة يضج بألوان ستائر الشرق والثوب الروماني الفضفاض (التوغا)، أو ومضة خوذة أحد قادة الفرق، فليس هناك من أصوات متنافرة.

والمعبد ذاته جدير بالدراسة المتأنية، وكم من الأوراق يمكن أن يدونها أصحاب المعرفة والاختصاص. ولابد لي– أنا الجوّالة التي تهتم بالانطباع وليد اللحظة، كما يلهمها المشهد العابر، من دون أن تكون مزودة بتلك المعرفة الداخلية العميقة التي تملك وحدها أن تجعل بحثاً في العمارة جديراً بالقراءة– أن أتناول التفاصيل من دون تعمق. وحسبي أن أذكر أن المعابد السورية كانت تقام على ساحات مسورة فوق مصاطب واسعة، ويقال إن هذا المعبد قد بلغ طوله خمسمئة وسبعة وعشرين قدماً، وعرضه أربعة وأربعون قدماً، وهذا يبين للمرء فكرة عن المكان؛ فالمعبد قائم على منصة ارتفاعها ثمانية أقدام، وكان الوصول إلى البوابة الكبرى ذات يوم بوساطة مجموعة من الدرجات التي اختفت الآن. وقد أقيم المعبد في بدايات القرن الثاني الميلادي، ولذا فهو أسبق عهداً من شارع الأعمدة.

كان معبد أرتميس– الذي درج القوم على تسميته معبد الشمس– ضخماً تحيط به الأعمدة ويتسم بالفخامة والروعة. ولكن ما بقي منه الآن جزء من التمثال المقدس الذي كانت له حجرة وفي آخرها الحرم المقدس، وكوى غير نافذة (مشكاة) في الجدران حيث كانت توضع التماثيل. أما بقايا أعمدة الرواق المقنطر، وهي أحد عشر عموداً فتشكل

مجموعة تنتمي إلى الطراز الكورنثي، وتعد أكثر المعالم روعة وإثارة للانتباه بين ميدان الخرائب كله.

ولو نظر المرء من هذه المصطبة في تلك الأيام الخوالي لوجد المشهد بالغ التأثير، وذلك لحرص اليونانيين ومن بعدهم الرومانيين – اليونانيين على العناية بتكوين المدينة ككل؛ بل كانوا يحرصون حرصاً شديداً على جمال مشاهدها عن بعد. وكان عملهم بوصفهم معماريين يختلف عن عمل مخططي المدن المعاصرين مثل اختلاف عمل منسق الحدائق الذي يعنى بتنظيم مناظرها الطبيعية عن الزراعة التي يفعلها الهاوي غير المتمكن من حرفته.

كان هذا الموقع يمنح ساكن جراسا القديم الفرصة المناسبة لينظر من فوق إلى مجموعة الأدراج المؤدية إلى المدخل الغني بنقوش الزينة وإلى الطريق أو الساحة التي كانت تحاذي النهر. وإذا نظر المرء من طرف النهر إلى الأعلى فإن المعبد والرواق المُعمَّد الذي كان يضم مئتين وستين عموداً من الحجر المشبع بالشمس يغلقان المشهد أمامه على أروع ما يكون. وكان الدربان المتقاطعان كلاهما حافلين بالأعمدة، وعند تقاطعهما نجد في الدرب الأول تترابل؛ وهو نصب يقوم على أربعة أعمدة تستقر على أعلاها تماثيل، ونجد في الآخر سقفاً مقبباً فوق أربعة أعمدة. والمشهد في كل حال مدروس بعناية وحرص، سواء نظرت إليه من الأعلى أم من الأسفل.

كان يظن بأن المعبد مكرس للشمس بسبب نص منقوش وجد في مدخل المعبد، غير أنه ليس هناك من شك بأن النسبة السليمة هي لأرتميس؛ فكانت عبارة «ارتميس الجراسية» شائعة شيوع عبارة «مجد الفيلادلفيين»، وهي تستخدم في الإشارة إلى هيركليس وبالاس [إلهة الحكمة] في فيلادلفيا، ذلك أن بيلا كانت تتعبد لبالاس وجدارا لزيوس؛ فقد كان لكل مدينة راع من الآلهة يهتم بها.

صورة [مقابل ص 256 في النص الإنكليزي]
الرواق المعمد، معبد أرتميس، جرش

وكان يظن أن المدن التي تستطيع أن تبذل وتسرف في البناء لا بد أنها على قدر عظيم من الثراء، وهذا لا يعود إلى أي ملكية يمكن أن تكون تابعة لها في الجوار وحسب، بل تعود أساساً إلى المال المتحقق من التجارة أيضاً. فإذا كانت جراسا تقع على الطريق الواصل إلى فيلادلفيا والجنوب من جهة، وإلى نهر الأردن من جهة أخرى، وذلك مجرد البداية لدرب طويل يؤدي إلى الهند ومصر والصين، أو إلى البحر الأبيض المتوسط الذي كان يحمل البضائع إلى كافة شواطئه. وإلى جانب ما كان يمر بها من البضائع والسلع التي تنتجها أمم أخرى سواها. كان لسورية صناعات عديدة مثل صناعة الزجاج وحياكة المنسوجات الحريرية والصباغ الأرجواني، فضلاً عما كانت تنتجه من مواد مثل البلسم والتوابل والذرة والزيت، وهذه كلها كانت مصدر دخل للجراسيين وسكان المدن الأخرى. وكان الرومان يحصلون الضرائب من الأرباح، كما كانوا ينفقون على بعض المباني العامة مما كان يُحصَّل من مصدر العائدات هذا.

هناك فقرتان وردتا في مقال نشرته مجلة تخطيط المدن (Town Planning Review) تستدعيان الاهتمام في هذا السياق؛ يقول الكاتب– حين يتناول الساحة لدى الرومان (الفوريوم) وتلك التي لدى الإغريق (الأغورة) التي ألهمت الرومان بفكرة الساحة– : «إن المساحات التي تماثل أماكن السوق الواسعة المغلقة في المدن الهيلينية تتجلى في الساحات ذات الأعمدة في المعابد السورية مثل جرش». وإذاً فلعلنا نكون جالسين حيث

كانت جموع الناس تتقاطر للشراء والبيع، والثرثرة واستطلاع الأخبار، قبل أكثر من ألف سنة مضت.

أما الفقرة الأخرى فتتصل بزوال أهمية الأغورة في هذه المدن، لكن هناك ما يشير إلى أن المدن السورية ما كانت لتفتقر للأماكن العامة، نظراً لأن شوارعها المعمدة تنتهي أحياناً بالتوسيع لتغدو «كما في جرش ساحة عامة». وقد يريحنا أن ندع موضوع الساحة الرومانية معلقاً إذ يختلف فيه الثقاة.

هناك أسئلة كثيرة تفرض نفسها في موضوع معبد أرتميس هذا؛ فلماذا كانت المدرسة الإغريقية في العمارة قوية على هذا النحو؟ أكان ذلك لارتباط المستوطنات المتناثرة حقاً باليونان بروابط أقوى من تلك التي كانت تربط المناطق بروما في أي وقت من الأوقات، على الرغم من الوقت الطويل الذي دامت فيه الهيمنة الرومانية؟ فلقد حكمت روما وكانت عاداتها وتقاليدها تُحاكى وتُقلد، إنما قلب الشعب كان إغريقياً. وقد بدا أن عواطفهم ضاربة جذورها في بلاد الإغريق، ثم صاروا يتطلعون إلى بيزنطة يستلهمون منها أكثر مما كان يصبون إلى روما.

حين ننظر من عل إلى خرائب الكنيسة البيزنطية نجد أن العالم الوثني قد أفسح الطريق لفجر المسيحية، ولا يملك المرء إلا أن يتذكر ابن مدن الديكابوليس ذائع الصيت الذي حل هنا في إحدى جولاته.

ولد القديس يوانس كريسوستومس– أشهر آباء الكنيسة الشرقية– في أنطاكية على نهر العاصي لأسرة نبيلة قرابة العام 345 ميلادية. وكان كريسوستوموس تلميذاً للمعلم الوثني الشهير ليبانيوس الذي صاغ عقول العديد من أذكى الرجال في تلك الأزمان. ويقول ليبانيوس إن أم أذكى طلابه انتزعته من دراساته لتقوده إلى اعتناق ديانتها، وقد أفلحت في ذلك. وعمده الأسقف ملاطيوس الأنطاكي، ثم توجه إلى الصحراء، كما يعتزل أعظم المعلمين، وهناك انقطع للتأمل مدة عشر سنوات. وكان قد بلغ الرابعة والثلاثين حين عاد إلى مدينته حيث ولد، واشتهر معلماً، ثم ترقى حتى حاز على رتبة أسقف القسطنطينية.

وكان يوانس كريوستومس أبداً زاهداً يطلق صوته مجلجلاً كالرعد من منبره، منددا

بحياة الخطيئة المتفشية في أيامه؛ فكان يعرِّض بحياة الترف السائدة، كما فعل سافونارولا، بعد قرون من ذلك اليوم في فلورنسا. وقد جعلته حماسته هذه هدفاً لأعدائه وكانوا كثيرين، ولا سيما في القسطنطينية، حيث كان يعظ علناً منددا ًبكبارها، ومنهم الإمبراطورة. وكان يقول إن الرجال يمضون الكثير من الوقت في الأكل والشراب ويقيمون الولائم، والنساء يسرفن في الإنفاق على أزيائهن، ولابد أن ينلن العقاب الأبدي على ذلك. وكانت النساء النبيلات يقابلن تعريضه بهن بالابتسام قائلات إنهن لم يسمعن بامرأة أُنزل بها هكذا عقاب شديد لأمر بسيط جداً، ثم ثابرن على التجمل بصباغ الوجه وتزيين ملابسهن بقشرة الذهب، حتى قال الأسقف إنه ليس بالإمكان التمييز بين من هن من الطبقات الرفيعة والمحظيات إلا بصعوبة بالغة.

ونلمح في كتاباته طرفاً من حياة عالم الترف واللهو على شواطئ البوسفور، حين يصف الموائد شبه المستديرة المكسوة بالقماش الغالي، وقناني الشراب الضخمة المكسوة بالذهب يحملها الخدم، وهم دائماً شبان على ملاحة ظاهرة، من الأقبية حيث تخزن، كما يصف ثياب الضيوف. ونجده ينفر من الحلي التي تتزين بها النساء، ويقول إنه ليس هناك من أمر تأباه المرأة في سبيل قرطين جميلين. فلا عجب إن صار إلى المنفى على الرغم من كثرة أتباعه المخلصين، وإن استدعي ليستأنف عمله تحت ضغط غضب أتباعه. ولقد استمر في الوعظ بعد ذلك معرضاً بانحلال الأخلاق، ولا سيما الطلاق، كما كان مناصراً لحقوق المرأة، ربما تحت تأثير حب أمه الموهوبة التقية التي كان شديد الوفاء لها. وكان يحدب على الفقير، ولم يكن يكره الثروات؛ بل سوء استخدامها كما كان الكثيرون يفعلون، وفي النهاية أثار نقمة البلاط عليه إلى حد نفيه، وهذه المرة إلى الأبد. إذ مات يوانس كريسوستومس قتيلاً– على ما ورد في أحد التقارير– على أيدي حراس سجنه بأوامر من قادتهم لئلا يعود رسول الطهر والزهد حياً.

هنا في رواق معبد أرتميس يرجع العقل إلى ذلك الإحياء للوثنية الذي أوقد مرة أخرى النيران على مذبح الإلهة القديمة. المرتد يوليان! ويا له من شخصية خارقة وهو يحاول رد قوة كانت أشد من أن يقف بمواجهتها هكذا جهد واهن ضعيف. ومع ذلك فإنه من

الصعب أن يدرك المرء الغواية التي تواجهه، حين يحاول فهم الظروف، وأن يستوعب البيئة التي نشأ فيها فتى ضعيفاً مفتوناً بالجمال متأثراً برجال لامعين أفذاذ أفسدوا مقدرته على تقدير الأمور.

كان يوليان في صغره بحاثة ينهل من قصص البطولة الجميلة والقديمة التي احتوتها الأسطورة الإغريقية، وديانة عبادة الطبيعة التي كانت في النهاية جذر معتقدهم. وكان يفتنه ما يصدر عن معلميه الوثنيين أصحاب العقل والحكمة، ويفر من الزهد الذي يسم الكثير من بواكير المسيحية، ولا ريب أنه ظن آنذاك أنه يؤدي للعالم خدمة كبيرة حين كان يصيخ السمع لآلهة الإغريق القدامى والأموات. ولكنه أخفق في مسعاه حمداً له، فخبا الطقس الهلينيستي القديم، وأفل في بواكيره من جديد، ومع ذلك فإن الدراسة الموضوعية للمثل الوثنية تجعل المرء يقر بأن الكثير منها لا يخلو من خير عميم، والكثير منه مفهوم.

حمل الإغريق المقدونيون معهم من بلادهم عبادة ديونيسوس الخاصة بهم، والتي عرض لها والتر باتير في كتابه «دراسات إغريقية» Greek Studies على أنها دين شعب عاش بين أشجار الكرمة، غير أنها ديانة أصبحت دورة تشمل الحياة كلها.

إنه لمن السهولة بمكان النظر إلى رفيقات باخوس– وهن مأخوذات تحت تأثير الإله المقدوني– ينشدن أناشيدهن الجماعية في غمرة النشوة ووجوههن مطلية بثفل النبيذ، إلا أن هذا كان تطوراً ثانوياً حقيراً أحد ملامح تطور شخصية ديونيسوس الرئيسة أنه كان شيئاً من كل شيء؛ فقد مثل الحياة كما العصير في جذر شجرة الكرمة، إذ كان ينتمي إلى كل ما هو حي. وكان ثنائياً في طبيعته فقد كان يمثل الصيف والشتاء؛ فهو في الشتاء مخلوق مجنون وحشي طليق، الإنسان الذئب الذي يتوق إلى الدماء في الضحية البشرية، ويغدو في الربيع إلهاً رقيقاً جميلاً يكشف عن الوجه الآخر من طبيعته.

لقد وُلِد ديونيسوس مرتين: طفل زيوس، السماء الفسيحة، وأم من البشر، إنه وليد البرق والندى، كأس الخمرة لديه رمز مثل كأس الذبيحة. وهو في حلقته يكمِل الحياة كلها. كان ديونيسوس روح شجرة الكرمة، ومن ثم روح الحياة والنماء، منه تحدرت الأخوات الثلاث اللواتي لهن أن يحولن كل شيء إلى ذرة وزيت ونبيذ.

كانت ديانة ديونيسوس في الأصل ضرباً من العبادة الحرة، وهو ذاته متصل بكل أرواح الطبيعة، بالشمس والماء، بالحوريات اللواتي يسكن أشجار الحور؛ بل كان يتصل بالأساطير؛ إله الغابات، الذي نصفه بشر ونصفه حيوان، وبان؛ إله الغابات والمراعي الذي يقطع مزماره من بين القصب الذي ينمو في مرابعه. وهكذا يهيمن بان على الموسيقى، كما كان حال أبوللو، بفضل مزامير بان. ويصور بان وفي إثره أطفال صغار لهم أقدام كأقدام الماعز، وينهي دائماً العرض الذي يقام تكريماً لباخوس.

ونطالع في كتاب «دراسات إغريقية» السالف الذكر أنه «يأتي أخيراً لتكون له روح تساوي روح ديميتر إلهة الأرض، وهذا مجال واسع فسيح وغامض مثلها؛ فكل قوة التناسل التي تتمتع بها الأرض كامنة فيه كذلك تفسير تحولاتها السنوية. وكما أن بعضها يجسد مقاصد تلك القوة في الذرة كذلك يتجسد بعضها في النبيذ. إنه مالك ثروات الأرض الدفينة، وهو واهب الثروات عبر النبيذ مثلما ديميتر واهبة القمح».

من اليسير أن نرى كيف اتفقت عبادة ديونيسوس وذي الشرى الذي كان– ولو بدرجة أقل– إلهاً من آلهة الطبيعة، وكان مقامه الأول أبداً عند مجرى ماء. أما ديونيسوس فقد حوّل الماء إلى نبيذ.

«إنه روح شجرة الكرمة أولاً، ثم بعدئذٍ روح كل شجرة كرمة، روح النار والندى، حياً ويقفز في ألف شجرة كرمة. وهو لكونه الذكاء الأرقى يتأمل الأمور بمزيد من العمق، ويتابع بالفكر، توليد الحلاوة والقوة في أوراق الشجرة، وتحول الماء إلى نبيذ شيئاً فشيئاً، ملاحظاً تأثير السماء من فوق والأرض من تحت، ويتدخل ملقياً ظله، في كل مرحلة من العملية. والذي لدينا ليس إلا كيمياء الطبيعة يكون لديهم أشياء تتوسط فيها أرواح حية. وهكذا ينتقلون إلى التفكير في ديونيسوس (تسميته مشتقة أخيراً من ضياء السماء ورطوبة الأرض)، ليس بوصفه مجرد روح الكرمة؛ وإنما روح الحياة كلها التي تسري في الأشياء التي تولد وتعد شجرة الكرمة رمزاً لها، لأنها المثال الأشد تعبيراً».

كانت عبادة بعل عند المؤابيين في بعضها عبادة طبيعة أيضاً، كما تشهد على ذلك المزارات العديدة في بعض الواحات في الصحراء، ولكنها كانت ديانة تتطلب ضحايا

على نحو فظ يفوق ما يتطلبه الإغريق؛ فقد كان المولوخ وبعل قساة متوحشون لا يعرفون الرحمة. ولعل ذا الشرى النبطي أحد أشكال الإله بعل، وكانت تقدم له الأضاحي والقرابين في معبده، ولكن عبادة ذي الشرى كانت عبادة أسمى وأكثر نقاء من الديانات الآسيوية الأخرى، وكانوا يتزلفون إليه قطعاً بوصفه إلهاً في أعلى مرتبة، وليس بوصفه واحداً في الترتيب الهرمي للآلهة.

ولربما شعر الفلاحون البسطاء الذين ما انقطعوا يعملون ويكدون ويتعبون في الأرض، وكانوا في كثير من الأحيان رقيقاً عند المستوطنين الإغريق؛ أنهم أقرب إلى الدين الذي صدر عن قوى الطبيعة التي يعيشون وسطها. فهناك شيء ما لكل امرئ: إله للحرب، وإله للحب، إله للوفرة، وإله للصحة. وهناك قصيدة غنائية بسيطة نقلها السير رنييل رود إلى الانكليزية من مجموعة إغريقية لا بد أن تجد لها مكاناً هنا على درجات هذا المعبد العظيم الذي لا بد أنه كان على قدر كبير من الروعة في أيامه، لأن هذه الأبيات تظهر الجانب الآخر من ديانة الإغريق؛ ذاك الجانب الذي يروق لعامل في الحقل، مثلما كانت ديانة ديونيسوس تروق للعمال في كروم العنب. والشاعر هنا بيرسيس، وقد وضعها في القرن الرابع ق. م:

معبد ريفي
أنا إله الأشياء الصغيرة
وفيها لا ريب بأنكم واجدون
إن ناديتموني في الموسم
إلهاً صغيراً، حنوناً
لا تطلبوا مني أموراً كبيرة
بل الأشياء التي أنا قادر عليها
أنا تيخون، إله المستضعفين،
لعلي أستطيع تلبية دعاء إنسان بسيط.

الفصل الرابع والعشرون
المســرح

أنا ثيسبيس، من وضع أنشودة مأساوية
وعرض لأهل القرية مباهج جديدة
حين جاء باخوس بالكورس الثلاثي وجائزتهم
عنزة أو سلة من تين أتيكا
الرؤوس الجديدة تأتي بتغييرات كثيرة ورائعة
هي العجائب في رحم الزمن– ولكنها لي
كان ثيسبيس مبدعها. فماذا قال
في الغابات الوحشية، وفي نكتة ريفية،
اسخيلوس تمجد ليس بالناعم ولا الرقيق
بل مثل تيار الشتاء الجارف، خطه القوي
جد المسرح. أيها اللسان الفذ!
لا ريب أنه تحدر من أنصاف آلهة قديمة

«ديوسكوريدس»

(ترجمها إلى الإنكليزية الميجور [الرائد] آر. غثري ماك غريغور)

لقد حظيت بقايا المسارح في جرش بأوصاف دقيقة مستفيضة من أولئك الكتاب الثقة مما يجعل تكرار ما سبق قوله وبتفصيل شديد أمراً غير مجد.

وحسبنا إذاً أن نذكر باقتضاب بعض الوقائع المتصلة بهذه الآثار، بما يتيح لنا تكوين فكرة واضحة قدر المستطاع حول الاستعراضات التي كانت تقدم في تلك القرون الأولى من تاريخنا.

نقب عن تلك المسارح واستخرجت من أطراف التلال، وكانت حسب التصميم

اليوناني الذي يقال إن الرومان أخذوا به في سورية، نظراً لقلة تكاليفه المادية ومتطلباته من العمال. لكن يرجح مع ذلك أنه كان في المدن الإغريقية من قبل، إذ لا تعد المدينة الهيلينية كاملة إذا لم يكن فيها مسرح أو أكثر؛ فقد كان المسرح جزءاً من حياة القوم، كما أن نشأة المسارح تتصل بالديانة الديونيسية الأقدم. ولكننا لا نملك وثائق تبين ما حدث قبل أن يقر بومبي بحقوق المدن عام 63 ق. م.؛ فحياتها المدنية بدأت يومذاك، وجاءهم موسم الرخاء بعد ذلك التاريخ.

إلا أن المقدونيين الذين وضعوا حجر الأساس لجرش بعد العام 333 ق. م لم تكن لهم تراجيديا خاصة بهم، ونحن نعلم ذلك لأن يوريبيديس حين حكم عليه بالنفي في آخر حياته وذهب إلى مقدونيا؛ عاد إلى شكل الجوقة المسرحية، وأصبح يكتب للجوقة عوضاً عن الممثلين الفرادى. وقد عرض البروفسور جيلبرت مواري في مؤلفه عن الأدب الإغريقي القديم (Literature of Ancient Greek) في مسرحية «رفيقات باخوس»، وهي إحدى أحدث مسرحياته عنصراً يتمثل في وجود جوقة منشدين كبيرة (كورس) وليس فيها أي قصيدة ينشدها صوت واحد (مونودية). فلماذا؟ تعليل ذلك أن يوريبيديس يوم وضع مسرحياته كان قد هاجر إلى مقدونيا، ولم يصطحب معه على ما يبدو المغنين الممثلين، ولم يكن لمقدونيا أي باع في المسرح؛ وإنما كان لها عناية بالقصائد الحية التي تتغنى بالخمر، ويؤديها ممثلون محترفون، وهم الذين قدموا «رفيقات باخوس».

يقول (مواري، مشيراً إلى تطور الدراما الأتيكية): إن هذه الحركة الصاعدة في الأغنية الساخرة ترجع إلى أسباب مختلفة؛ كالأزمات الروحية التي أكسبت أهل أثينا تلك المسحة من النبل التي عرفوا بها، وهناك الحاجة إلى شكل جديد من الفن يعوض عن الملحمة الميتة بوصفها حاملة للحكاية البطولية، وحتى الرغبة التي فرضها ديونيسوس وهي عبادة تلك العاطفة الجياشة التي تكاد تكون بالضرورة مأساوية. وقد أُحيل أولئك الآلهة الصغار بمجونهم العتيق الذي ينتسب إلى العالم القديم إلى زاوية خاصة في آخر التراجيديات الثلاث، والعنصر الكوميدي تُرك ليتطور ويغدو شكلاً منفصلاً من الفن.

وعلينا أن نهتم بهذا العنصر الساخر، لأنه على الرغم من أنه من المؤكد أن التراجيديات

العظيمة القديمة في العصر الذهبي للأدب الإغريقي ظلت تؤدى في الأعياد الكبرى؛ إلا أنه من الجلي أن المعيار قد تدنى عما كان عليه في الأيام الخوالي. كذلك لم يكن المشاهد على ذلك القدر من الألمعية المعهود في أثينا، وإن كان ذواقة وحصيفاً بطريقته الخاصة. إن تراجيديات اسخيلوس السوداوية التي أراد أن يعرض فيها الأثر الذي يلي كارثة رهيبة ما، أو قدراً لا راد له، على بشر ضعفاء، والدراسة العميقة للشخصية ونمو قوة الإرادة على النحو الذي عرضه سوفوكليس؛ أكبر مما كشف عنه يوريبيديس بقدر من الواقعية، حتى بينت أن تلك التراجيديات ما عادت جزءاً من حياة الناس اليومية. فقد مرت مئات السنين منذ أن كانت تلك المآسي تشد جماهير الأثينيين المشدوهين بما يعرض أمامهم، وتبدلت أحوال العالم، والجمهور ذاته صار خليطاً على الرغم من الميول الهيلينية. وإذاً فإنه من المرجح جداً أن الجراسيين– شأنهم شأن أقوام أخرى في تلك المنطقة– قد بدؤوا يبدون اهتماماً أكبر بالملهاة (الكوميديا).

صورة [مقابل ص 266 في النص الانكليزي]
أعمدة أيونية، جرش

ويبدو أن للكوميديا أصولاً مختلفة؛ لكنها صدرت إلى حد بعيد من المصدر ذاته الذي صدرت عنه المأساة (التراجيديا). فثيسبيس الذي ينتسب إلى قرية ايكاريا ينتمي إلى الدوريين مثل اسخيلوس المولود في ايليوسيس مدينة الأسرار، فلما كان قد اعتاد سماع

الأغاني التي تكرس لديونيسوس وطقوس عبادة الأسرار التي تحاكي موضوعات الديانة خرج بفكرة التراجيديا. وكان اسخيلوس يوجه رئيس الجوقة إلى الحوار وبقية أعضاء الجوقة، وكان هو نفسه يتولى القيادة. ومن هنا نشأت كما هو معروف بداية نسيج المأساة الواسع كله، ولكن علينا مع ذلك أن نتخلى عن وهم أقر بأني طالما رعيته. والحق أن ثيسبيس لم يتجول في حياته بين القرى مع فرقة من الممثلين الجوالة، وكان أسخيلوس شاعراً وممثلاً، ورجلاً على قدر عظيم من الأهمية يجعله بعيداً عن الانصراف للعناية بجماعة من الريفيين. فاسخيلوس كما لعلنا نذكر كان مهتماً بالكشف عن الأسرار الايلوسية، ولعله لهذا السبب عينه حُكم عليه بالنفي إلى صقيلية، وقد تأثر هو أيضاً بالديانة الديونيسية التي كان لها أشد التأثير في بواكير المسرح. أما يوريبيديس فقد أنهى حياته منفياً في مقدونيا، وكانت هي أيضاً بلدة الكرمة، إذ تراعى فيها طقوس الديانة ذاتها، ووضع فيها آخر روائع أعماله «رفيقات باخوس»، وفيها نشاهد الآثار المريعة للشك بـ «بنثيوس» الذي حاول القضاء على عبادة الإله الممثل هنا ككائن بدائي جميل، يغري النساء بالصعود إلى الجبال وتأدية طقوس جنسية جنونية، وذلكم الجانب الجنوني من العبادة، شرب النبيذ من كأس كان مقدساً ذات يوم.

وقد جاءت الكوميديا من عبادة باخوس ولكن بشكل متواضع، وكان القوم يجتمعون في الاحتفالات الريفية التي كانت تعقد تكريماً له حين يقيم صناع الخوابي احتفالهم، ويجتمع الناس وقت تعبئة النبيذ في الزجاجات، ويؤدون الرقصات والاستعراضات المألوفة والأغاني، لكن كان طابع هذه النشاطات بسيطاً. وكان الممثلون الذين يؤدون الأدوار فيما بعد، وأتيحت لهم حرية غير محدودة في الكلام، ولدوا وسط ملاهي تلك القرية، التي اختلطت كما في العصور الوسطى بالطقوس الدينية. وكانت الكوميديات المبكرة «تفتقر أكبر افتقار للحشمة»؛ لذا كان يحظر حضورها على النساء والفتيان القاصرين، والعبارات البذيئة تتطاير والنكات المرتجلة، وما يمكن أن يعد في هذه الأيام من الجنح كانت توجه للكبير والصغير من القوم من دون حرج.

ولكن عندما كتبت الكوميديا القديمة وحفظت عوضاً عن الثقة بالإلهام وليد اللحظة،

صار لها مذاق ملح الفطنة، فضلاً عن خشونة المجون الأصلية. ثم جاءت الكوميديا الوسيطة التي يقال إنها تفتقر إلى الحصافة التي عرفت بها الكوميديا القديمة والتشذيب المعهود في التطور اللاحق، إنما كان لها لحظتها العظيمة، وقد بدأت الكوميديا الجديدة بالشيوع بعد موت الإسكندر الكبير، وقبل تلك الفترة في جرش التي لا ندري عنها شيئاً. وصارت تلك الأيام العظيمة لليونان إلى أفول، وغدا المركز الأدبي للروح اليونانية في الإسكندرية أكثر مما هي في أثينا.

كان أرستوفانيس الممثل البارز لفن الكوميديا في الفترة الوسيطة، وهي مقبلة على تطور جديد، حيث لا اسم بلغ شأوه في هذا الفن؛ فقد نضجت في أيامه الكوميديا وغدت فناً قائماً بذاته، ودخلت مدينة ديونيسيا بعد التراجيديا، التي كانت ما تزال تحظى بالمقام الأول. والكوميديا الجديدة التي كان ميناندر أفضل من قدمها تعاني بسبب ضياع الكثير من أعمال الكتاب، ولم يتح لها أن تبعث من جديد إلا في الكوميديات التي خلفها لنا بلوتوس وتيرنس اللذان يقران بأنهما استمدا الكثير من تلك المصادر. فاللاتين يدينون بالكثير لعبقرية بلاد الإغريق التي يكاد كل إلهام مبدع يرجع بأصوله أبداً إلى تلك البلاد، حسبكم أن تنظروا إلى المصدر لتجدوا هناك على الدوام بلاد الإغريق. وليس مؤدى هذا أنهم لم يأتوا بآيات الفن التي تجاوزت الإلهام الذي يدعوهم؛ وإنما قصارى القول إن الرومان وجدوا في بلاد الإغريق أساساً لكل ما أتوا به بعد ذلك.

وجدت الكوميديا الجديدة بين السوريين ممثلين موهوبين، وكان من شأن الأعمال التي قدموها هم وسواهم أن صارت الشخصيات القديمة تبعث من جديد الطاهي؛ لماذا تراه يحمل أبداً مؤخرة بارزة؟، والمداهن المتزلف، والمحظية، والمهرج، والنصاب المحتال، والعبد، والمتطفل العلقة، والقوَّادة، وهم بعض الشخصيات المحببة وعِدة الكوميديا الجديدة كما كان شأنهم في القديمة.

لقد مضى ذلك النمط البدائي من الحرية الكبيرة، تلك الإساءة الشخصية التي تمطر كل ما من شاء حظه التعس أن يحظى بإعراض الناس أو نقمتهم، أو كان أصلع أو في شخصه عيب؛ فيكون له عندئذ موضع في الأغاني الشائعة والإسقاطات السياسية. أما الحب فلم

يكن له موقع عظيم في هذه الأعمال، ولا كان ممكناً قيام كوميديا اجتماعية في مجتمع ليس فيه للنساء إلا دور صغير. وكان على المؤلف إذا تناول شخصيات نسائية أن يلجأ إلى شخصية العشيقة أو المحظية، أو فتاة ما بريئة اختطفت من وسط أهلها أو هم باعوها. وكان الزواج يومئذ مصيبة تريدها أن تنزل بعدوك على أن تصيبك أنت، ولطالما كانت العاطفة مفقودة في الدراما الإغريقية، ولكن الكوميديا الجديدة أظهرت تقدماً محققاً في طرق موضوع قصص الحب؛ فأي ظلال قدمها لنا هؤلاء القوم الذين ينتمون إلى عصر آخر، وإن استمروا حتى عصرنا يعيشون جنباً إلى جنب مع الحدث المسيحي!

«أنوار في أيديهم، وموسيقى قديمة على شفاههم،
عسل البراري والشرق والجمال».

على الرغم من كل ما كتب عنهم فإنهم يمرون كالأشباح شبه ظاهرين في الليل ثم يختفون قبل انبلاج الفجر. فهل ترانا نعرف شيئاً عنهم؟ أفلسنا نجد ملامح معينة تقدم لنا مفتاح طبيعة قوم على الخصوص؟ أفترى كان رجال جراسا يدأبون على حضور الولائم، وهل كانت أنغام القيثارة المرتفعة تؤذي أذني الجاد من الناس أينما اتجهت؟ إن أصوات الطرب والرؤوس المزينة بالأكاليل والورود على المائدة، والساعات التي تنفق في حديث لا يتوقف، وكثيراً ما يكون ذكياً فكهاً ولو خالطه الفحش؛ تلكم هي الصورة التي تحملها إلينا الكتب القديمة والجديدة. وقد استسلم الجيش في سورية إلى هذا الهوى الشرقي لحياة الرفاه والسهولة، وصار الجنود يرمون بثقل دروعهم حين يطلب إليهم أن يرتدوها. وسرعان ما وجدت روما التي كانت ترفع بلاد الإغريق– وكل ما هو إغريقي إلى أعلى مرتبة في نظرها– أن الإغريقي المستشرق قد غدا شيئاً بائساً كسولاً متبطلاً. وهكذا ثمة شيء من الحقيقة في هذه الصورة، ولكن ربما كان لها وجه آخر.

كانت بيزنطة– وهي محور العالم المتمدن– مدينة مكتظة بالسكان وفيها شيء من كل شيء. وتشيع في البلاط الثقافة والحضارة، ولكنه مع ذلك يأخذ بأسباب السرور والحبور، ويتسم الدين بمظاهر الفخفخة والزهد في آن معاً، ويتصف الرجال والنساء بالخير والشر في آن واحد، كما قد يكون أضرابهم في كل مكان، إنما كان هناك الكثير من الجرائم. والجو

مملوء بالمغامرات، وربة الحظ ترفع من مصائر أنصارها ثم تنزلها بسرعة تدعو للذهول. أما الجثث فترمى في مياه البوسفور الزرقاء، وكانت أعدادها ضخمة. لقد كانت عاصمة الإمبراطورية تذخر بالمادة لصوغ الكوميديا.

ولكن كتاب الكوميديا لم يكونوا ليتجشموا عناء الخروج لدراسة العادات والتقاليد السائدة في أيامهم، وإن كانوا لا يتحرجون من الإشارة إلى موضوع يدور الحديث فيه، أو قضية سياسية راهنة في صميم القصة. ويلوح للمرء أن هؤلاء القوم ينفردون بنزعتهم المحافظة في اختيار طرائق المسرح؛ فكان كل تغيير يحدث بصورة متدرجة.

ولما كان يبدو من الصعب عرض مسرحية كوميدية على مسرح جرش من دون اهتمام بما كان يُكتب وما هي صلة بعض كتاب المسرحيات بمدن الحلف العشر؛ فإنه لابد لنا من الارتحال إلى الإسكندرية حيث كان يعرض بعضها.

يمثل «ميناندر» خاتمة الفترة الإغريقية الكلاسيكية، وفق ما ذهب إليه البروفسور الراحل «مهافي»، وكانت أعمال هذا المسرحي الرفيع تُدرس على نطاق واسع في الإسكندرية حين كان كتاب الكوميديا الجديدة ما زالوا منكبين على إنتاج بواكير إنتاجهم. وكانت إحدى النقاط الرئيسة في هذه الأعمال بساطة اللغة؛ يلاحظ أحد اللغويين الشيوخ هذه الحقيقة عند تناوله شعراء الفترة الوسيطة، بقوله: «لم يحاولوا استخدام أسلوب الشعر؛ بل لجؤوا إلى لغة الحياة العادية وعدتهم في ذلك جوانب القوة في النثر».

وهذا المقطع الشهير مقتطف من مسرحية باللاتينية مقتبسة عن مسرحية إغريقية تعرض متزلفاً يعتاش من راع غني يحتقره لهذا السبب: «هناك من الرجال من يتمنى أن يكون المتقدم في كل أمر، وهم ليسوا من السباقين في شيء. وإنني ألتحق بهؤلاء لكن لا أقصدهم لأجعلهم يضحكون وإنما أضحك معهم كما أهوى ويطيب لي. وأعجب في الوقت ذاته بحصافتهم؛ فأطري كل ما يقولونه، وإذا قالوا العكس أطريته أيضاً، وإذا قالوا لا، قلت أنا أيضاً لا، وإذا قالوا نعم، قلت نعم؛ وبعبارة مقتضبة أقول إني درجت على إطراء كل ما يصدر. وهذا هو الطريق الأجدى هذه الأيام».

كان عدد كتاب الدراما في الفترة المتأخرة كبيراً ونتاجهم هائلاً، ولم نعد نسمع برجل

يطالعنا بثلاثية في العام وبذلك يقدم للعالم آية من آيات الفن، ولدى هوراس بعض ما يقوله عنهم في «الهجائيات». فهو يقول عن لوسيليوس الذي يستطيع إملاء مئة بيت من الشعر، وكأن ذلك مغامرة ضخمة، وهو واقف على قدم واحدة: «وفيما يتدفق كجدول مملوء بالطمي يُسر المرء بأن يهمل الكثير مما يصدر عنه؛ إنه كاتب مطنب مضجر، به من الكسل أكثر من أن يحتمل مشقة الكتابة، أعني الكتابة السليمة، أما الكمية فلا أقيم لها وزناً».

هناك كاتب آخر غزير الإنتاج لدرجة تثير العجب، يتحداه لخوض مباراة:

«هاكم هذا كريسبينوس يتحداني، ويقدم لي العلاوة التي تمنح للأضعف ليعادل الأقوى، ويقول: خذ، رجاء، ألواحاً للكتابة، وسأفعل مثلك؛ ثم سجل أين أنت، واذكر الساعة، والمحكمين، ولنر أياً منا أغزر إنتاجاً. وأرد: لا دعك من هذا. إني لأشكر السماء، لأنها لم تنعم علي إلا بقدر متواضع من العبقرية وهي قلما تنطق، وإذا ما نطقت كان ما تنطق به قليل جداً؛ أما أنت، فلك إن شئت أن تحبس الهواء في منفاخ من جلد الماعز، وتنفخه بقوة إلى أن تطوع النار الحديد....»

إن الزمن لينزل نقمته بأولئك الذين يسيئون استخدام نعمه؛ فمن ذا الذي سمع بالأدب ولم يسمع بهوراس؟ وكم من الرجال– حتى الذين لهم باع في الاطلاع على الأدب– قد سمعوا بكريسبينوس؟

ثمة العديد من الانتقادات التي توجه إلى كتاب المسرحيات في تلك الأيام، في كتابات هوراس، ومعها بالمناسبة نقد للدراما، ومن ذلك أنه يلوم لوسيليوس على خشونة أشعاره مع أن العالم يقول بأنه نظف المدينة كلها بملح أتيكا. «ولئن كنت أجيز ذلك؛ لكنني لست على استعداد للقبول بالمآخذ الأخرى، ولو أجزت تلك المآخذ لحملت نفسي على الإعجاب حتى بنكات لابيريوس وكأنها قصائد رائعة؛ إذ لا يكفي أن يضحك المستمع ملء شدقيه، ولو أنه حتى هذا لا يخلو من مزية؛ ولكن الاقتضاب مطلوب، لئلا تنزل الكلمات من دون حرج على أذنين أنهكهما الإصغاء، وعلينا أن نسأل أن تكون اللغة، صارمة أحياناً، وفي الأغلب فرحة، حافظة للشخصية، خطيب أو شاعر أحياناً، وقد يكون حيناً شخصية ساخرة راقية لإنسان لا يستعرض قوته، وإنما يتقصد رعايتها. وكثيراً ما تحسم قضايا ذات

شأن بنكتة فيكون لها من التأثير القوي ما لا يكون للقسوة. وقد شهد مشاهير كتاب الكوميديا القديمة على صحة هذا الرأي، وهم جديرون بأن يكونوا قدوة؛ وإن كان ذلك الأحمق المغرور هيرموجينس لم يقرأ تلك النصوص قط، ولا ذلك القرد الذي لا مهارة لديه سوى رفع عقيرته بإنشاد أشعار كالفوس وكاتلوس».

فهل هناك قول أصدق من هذا؟ إنه يعترض أيضاً على المزج بين اللاتينية والإغريقية الذي أتى به لوسيليوس، كما أنه ليس مقتنعاً بما ذهب إليه القائلون بأن مزيج اللغات ممتع خلاب كما هو مزيج نبيذ الفاليريان وصنوه الكياني.

فأي كوميديا اجتماعية يمكن لهوراس أن يأتي بها، حين يجعل شخصياته تنطق بحوار رشيق كالذي نطالعه في «الرسائل» و«الهجائيات»! لكنه يقول لنا إنه ليس بشاعر، وإن «الهجاء» ابن الكوميديا- فضلاً عن الكوميديا ذاتها- لا يمكن أن يُكرَّما باسم الشعر.

إننا جئنا إلى روما بعد كل أمر لأن كاتب المسرحيات الهزلية الذي كسب لنفسه سمعة إنما أتى من إحدى مدن الحلف العشر ليجرب حظه في المدينة الخالدة، وكان هذا بوبليليوس الذي لديه جمع من الماجنين المعجبين يجوب معهم العالم. وكان معروفاً جداً في روما؛ فقد ذكره شيشرون واتيكوس في المراسلات التي تبادلاها بينهما. وكان منافسه الأكبر في هذا لبيريوس الذي لم تحظ مسرحياته الهزلية بتقدير هوراس، كما لم ينل من الرومان نصف الشعبية التي لعبها ذلك اليوناني – السوري الموهوب.

كان بوبليليوس من مواطني أنطاكية وحُمل إلى روما عبداً، وهناك استرعى انتباه ضيوف سيده بشدة فطنته، ولما أعتقه صاحبه أصبح ممثلاً كوميدياً، ورأس جمع من الممثلين، ويبدو أنه صادف إقبالاً من الطبقات المتدنية، وإن كان الناس من جميع الأصناف يضحكون لنكاته. وكان بوبليليوس يبتكر المسرحيات التي يشارك فيها، وكان بعض الحوار عنده مرتجلاً، ولكن هناك نص مدون يعتمد أساساً في التمثيل. وكان شيشرون يحضر الألعاب التي تقام على شرف يوليوس قيصر، وفي هذه المناسبات كان بوبليليوس وليبريوس ينالان الجائزة، وكلاهما على ما يبدو يرتجلان.

ويبدو أنه كان يطلب إلى الممثلين ارتجال المواقف بالتدافع والمشاكسة، مما كان مسلياً جداً

بل وممتعاً للذهن ومعبراً– كما عند بوبليليوس– بشعر موزون أنيق. ولكن هذه المسرحيات كانت بعيدة عن تعريف أرسطو الذي يقول إن الكوميديا تسير بموازاة التراجيديا؛ فهذا يطهر طبيعتنا بالدموع والآخر بالضحك.

ولكن المسرح كان في نهاية المطاف يتطور إلى الأمام؛ فاختفاء الكورس كان خطوة كبرى نحو كوميديا أكثر واقعية، كذلك أصبح التمثيل أكثر واقعية، وابتعد كثيراً عن كونه مجرد قضية حركة وصوت مدوٍ. وكان من هذا التطور أن ابتكر كراتينوس المسرحية السياسية. أما ميناندر الذي دفعت به حماسته الوطنية إلى رفض أداء عرض في بلاط بطليموس فكان أثينياً يطيب له البقاء في وطنه الأم. ولكن كان هناك كثيرون ممن رحلوا إلى سورية، كما كان ممثلو الإسكندرية مشهورين.

وكان ميناندر وفيلمون الأفضل بين كتاب المسرح، وكانا يؤثران المجد بنيل الجائزة في موطن المسرح الكلاسيكي الأصلي، ولا ريب بأنهما كانا أشد ارتياحاً في ربوع وطنهما مع جمهور أثينا الحصيف الذكي والحساس والحيوي، ويؤثرانه على أي مكان آخر عرفاه. ولعل السبب في ما كان يحط من همة الكاتب المسرحي يعود في بعض إلى انخفاض همة جماهير المسرح، وهكذا اضطر الكاتب إلى وضع النصوص حسب ما يطيب للعالم بدلاً من أن يحمل العالم على أن يكون أرقى وأكثر تقدماً بفضل كتاباته.

وفي نهاية المطاف اتجه فيلمون إلى الإسكندرية وقدم العديد من المسرحيات، وقد كان فيلمون هذا من أهالي سرقسطة، لذا لم يكن شديد الارتباط بأرض أثينا، كما كان غريمه العظيم ميناندر، لكن الشهرة عند كتاب المسرح جميعهم لا تكتسب إلا فوق التراب الإغريقي.

ولقد صادف سوريون كثيرون نجاحاً في حياتهم المهنية في المسرح، فما كان هؤلاء يفتقرون للفطنة والحصافة ولقوا من الجمهور إقبالاً شديداً، كما كانوا مجلين في ارتجال المواقف ومحدثين لا يشق لهم غبار. أما شغفهم بالمسرح فكان عظيماً، وجعلهم قطعاً يرقون إلى المعيار الأتيكي، وكانت فرص الاستغراق في هذا الهوى تفوق ما كان للأثينيين في الأيام الأولى للاحتفالات الديونيسية؛ ففي تلك الأزمان كان كل سبب يبدو مقبولاً

لإقامة الألعاب، وما يصاحبها من سباق المركبات ومختلف أشكال الألعاب وأسباب الترفيه والعروض المسرحية.

يبدو أن للمسرح المكشوف في زمن الإغريق والرومان وقعاً جميلاً على الأذن، لكن لهذا المسرح مثالبه؛ فهطول الأمطار فجأة كان يدفع بالحضور إلى طلب الملجأ في إحدى المباني أو الأروقة والدهاليز بين الأعمدة، كذلك ربما جعل وهج الشمس الذهن يشرد عما هو أمامه. وإذا امتلأ المدرج– وكان واسعاً كبيراً فعلاً حتى يفيض بحشود الحضور– كانت الحكمة تفرض أن يؤمن المرء مكاناً لقضاء الليلة هناك. فكان العرض يبدأ عند الفجر ثم يستمر– ربما من دون انقطاع– حتى حلول الظلام. وكانت المسرحيات تجري مستمرة الواحدة تلو الأخرى، ولم يكن للحضور فرصة لتناول وجبة جيدة إلا قبل بدء البرنامج، وليس لهؤلاء فرصة للراحة والانتعاش، إلا عند الخروج للترويح عن النفس، وذلك في الفترات الكئيبة من المسرحية. ولكن الفرصة كانت تغتنم دوماً، والناس يجلسون مشدودين إلى ما يعرض أمامهم في هذه المناسبة الكبرى؛ فيظهر أحد الممثلين على المسرح معلناً أن الفرس قادمون، وهو إنما يكرر إشارة أعطيت للممثل وكررها فرس حقيقيون يظهرون على أعلى صف في المسرح وقد ارتقوا إلى هذا المكان من دون أن يلحظهم الحضور.

ولعل هذه الملاحظة حول الجمهور الأثيني من كتاب إيه. إي. هيغ «المسرح الأتيكي» تقدم لنا صورة صادقة عن الجمهورين الإغريقي والسوري في أي مسرح من المسارح في المدن العشر:

«كان الأثينيون جمهوراً يتفاعل مع ما يعرض أمامه، ويعبر عن مشاعره بأوضح شكل. ولا ريب بأن الضجيج والهدير اللذين كانا يصدرا من حشد يبلغ عشرين ألف متفرج بلغوا درجة عالية من الهياج كفيلين بأن يجعلا آذان هذا الجمهور الغفير في حالة من الصمم، فوصفهم أفلاطون بأسوأ وصف. وهذا ما يجعل المحكمين يجدون صعوبة في مقاومة مثل هذه التظاهرات والتصويت حسب ما تمليه أحكامهم الخاصة؛ فقد كانت أساليب التعبير عن المتعة أو الاشمئزاز أو الضيق لا تختلف عما هي عليه في الأزمنة الحديثة، وتعبر عن نفسها بالصفير والتأوه من ناحية والصراخ والتصفيق من الناحية الأخرى.

وكان للأثينيين طريقة خاصة في التعبير عن انزعاجهم بالضرب بكعب صنادلهم على مقدمة الكراسي الحجرية التي يقعدون عليها. وكانت ترمى الأحجار أحياناً من الجمهور المنزعج لما يجري أمامه. ومن ذلك أن اسكينيز تعرض للصفير من الجمهور المنزعج كي ينزل عن المسرح كما «تعرض لقذف الحجارة حتى كاد أن يقتل» في حياته العملية على المسرح. وهناك إشارة إلى هذه العادة في قصة أحد الموسيقيين من الدرجة الثانية، وتفيد بأنه استعار كمية من الأحجار من صديق له بغرض بناء بيت، ووعد برد هذا الدين حين يجمع مثل هذه الأحجار عند إقامة حفلته الثانية. وقد اعتاد الجمهور في أقاليم أتيكا على إلقاء التين والزيتون وغير ذلك من القذائف، مستهدفين بها الممثلين الذين لا يحوزون على إعجابهم. ولكن لم تكن المطالبة بتكرار ما يروق الجمهور بالأمر المجهول عندهم، ولا سيما إذا استهوت مقاطع من أعمالهم جمهور الحضور. وينسب إلى سقراط أنه راح يطالب بتكرار السطور الأولى من مسرحية يوريبيديس «اورستيس».

الفصل الخامس والعشرون
العصر الفضي

حفلت القرون الأولى من العصر المسيحي كما رأينا بالاضطرابات، وليس من الضروري تكرار هذا القول فالحقيقة جلية واضحة؛ لولا أن المرء إن فاته الاستذكار فاته كذلك أن يحيط بالفكرة الأساسية في هذا النتاج الفكري الذي جاء لاحقاً.

وكانت الدول الكبرى تفقد سلطانها، والأفكار القديمة تفقد أهميتها، والحضارة والديانات تتداخل فيما بينها، وبدا المستقبل داكناً مظلماً ومشوشاً مضطرباً على أشد ما يكون.

ولقد صادف أن تكون فترة الرخاء العظيم لجراسا في تلك القرون متزامنة مع الأزمات المختلفة التي أخذت تسير مع بعضها بعضاً من دون أن تتداخل، حين كان الناس ما زالوا يعيشون وهم أقوام ونحل تحت راية روما حسب المثل الهيلينستية، ويجاهدون لبقاء هيكل المجتمع الذي لابد أنهم أدركوا أنه محكوم عليه بالانهيار.

وكانت مراكز الحضارة– إلى جانب حق روما وحتى أثينا بالمطالبة بأن الأهمية الأساسية ما تزال لهما– الإسكندرية وبيزنطة ودمشق وبغداد وأنطاكية وبعض المدن الأخرى في آسيا الصغرى. وكانت مدن الديكابوليس على درب القوافل بين مصر أو دمشق والساحل،– ومن ثمن بلاد الإغريق وروما– ذات مكانة رفيعة في الحركة الأدبية؛ بل إنها قدمت بعض من أصابوا شهرة عظيمة في مجال الفكر والأدب. ويبدو أن أنطاكية وجدارا وبيلا كانت أهم المراكز الأدبية، بل إن الكثيرين من السوريين ذوي الأصول الإغريقية ولدوا في هذه المنطقة. كما أن جراسا أنجبت ثلاثة أبناء لستيفانوس بيزنطينوس، ولكن ليس هناك من سند لهذا القول، والأبناء الثلاثة هم أفلاطون، ونحن نعلم أنه ولد في إجينا، حيث كان لوالده بعض الأملاك، والداعية المسيحي أريسطون الذي كان يردد دوماً أنه وُلد في بيلا حيث عاش، وكيركوس الذي لم أتمكن من تعيين مكان ولادته.

ولا ريب بأن جراسا حظيت باهتمام شديد من حيث أثرها في نشوء الحركة الجديدة

التي خرج بها الجراسيون؛ سواء كان للمدينة ذاتها وليد أدبي أم لا، فقد كان أبناؤها على الأرجح ينزعون إلى الجدال والنقاش، شأنهم في ذلك شأن سواهم من أبناء جلدتهم. ولنا أن نتخيل وصول المحاضرين المسافرين إليها بعد أن سافروا في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف واستقبالهم في المدينة البيضاء، حيث لقوا ذلك الترحيب الذي كان سمة قوم يحبون المعرفة قدر ما يحبون حياة الرفاه والترف، ويعتنون أشد العناية بالحديث الراقي.

لقد كان هذا عصراً جال فيه رجل الأدب البقاع طولاً وعرضاً بحثاً عن رعاة الأدب، أو لمجرد الرغبة في التجوال واستقصاء ما في العالم وإلقاء المحاضرات، وذلك في عصر كان في السفر والترحال والانتقال من مكان إلى آخر مشقة ويستغرق وقتاً طويلاً. وكان عظماء الرجال قد غادروا سورية والبلدان الأخرى، قبل الأزمان التي نحن بصددها، ليمتحنوا حظوظهم في أثينا وروما، ومن هؤلاء عدد ليس بالقليل كان يظهر بين الحين والآخر في المدن المتحالفة؛ فأرسطو العظيم– وهو من ستاجيروس في خلقيدونيا– ولد في النصف الأول من القرن الرابع، ثم ذهب إلى بيلا في مقدونيا بدعوة من فيليب المقدوني الذي اتخذه معلماً لابنه الصغير الإسكندر. ولقد عاد إلى أثينا وأسس هناك مدرسة لتعليم الفلسفة، وذلك بعد وفاة فيليب وبداية حملات الإسكندر.

وكان تيمون الفيلسوف والشاعر الشكاك يحاضر في منطقة الكلدان، ويراسل بطليموس فيلادلفوس. فرعاة الأدب والأدباء كانوا ضرورة في تلك الأيام، وقد وجدنا أبولودوروس وهو تلميذ ديوجين لا يتورع عن إهداء كتابه في التاريخ الذي وضعه شعراً وعرض فيه للأحداث الرئيسة بدءاً من سقوط طروادة حتى أيامه للملك ذاته، وقد أورد سيموس الخيوسي (نسبة إلى جزيرة خيوس) في إهدائه هذا العمل اسم أمير آخر. وكان هذا العمل وصفاً جغرافياً منظوم شعراً اعتمد فيه على موجز وضعه كاتب أقدم عهداً، وقد دَّونه على نحو يلائم من ينشد الرجوع إلى ملخص، وهو على عجل، وربما ليس لديه وقت، ولا يأنس في نفسه ميلاً للدراسة، ويفيد في تلبية حاجة ملحة للاطلاع غير المتعمق.

صورة [مقابل ص 285 في النص الانكليزي]
الحمامات الرومانية، جرش

يومئ سيموس في رسالته إلى أن الأمير سيصيب شهرة إن قبل منه هذا الإهداء، وأن الكاتب سوف يهتم بما يشاء الحاكم فعلاً ويستطيع الخوض فيه لاحقاً. وكانت هذه ايماءة لطيفة! وجديرة بالاقتباس بوصفها ربما أنموذجاً فريداً في هذا الباب، ونطالعه يحدثنا عن أبولوردوروس وتأريخه فيقول:

«لقد عرض مدة تزيد على 1040 سنة مستذكراً عدد المدن وحملات الجيوش والأمم التي تشردت، وما ارتكبه البرابرة من تجاوزات وعدوان، والعمليات البحرية، والألعاب الشعبية، والمعاهدات التي عقدت والمعارك التي جرت، وأفعال الملوك والمشاهير الآخرين، وعزل الطغاة. ثم تجري الرواية ويستفيض الكاتب في وصف عرض ذروة الحكاية؛ وهو يؤثر عندئذ أن يعرض موضوعه بالشعر الموزون ويختار هنا الأسلوب الفكه من أجل الوضوح، كما حرص على أن يسهل على القارئ استذكار ما طالع. وشاء هنا أن يعرض للقارئ مثالاً من الحياة ذاتها. فإذا شاء المرء أن يحمل عدداً من ألواح الخشب فلن يمكنه ذلك إلا إذا شد هذه الألواح إلى بعضها؛ وإذن فإن للقصة المعروضة بالشعر الموزون

مزاياها التي تفضل النثر. أما وقد جمع أخبار الزمن في هذا الملخص وأدى واجب التقدير بإهدائها إلى الملك بطليموس الذي باتت شهرته تعم العالم بأسره، وأضفى المجد المُخلد على ذلك الأطلس الذي يظهر اسمه في عبارات الإهداء».

ومن الذي لا يقبل إهداء حافلاً بهذا القدر من المجد لقاء ذلك القدر القليل من الكرم؟

وفي القرن الثالث قبل الميلاد ولد في جدارا كاتب عظيم، وكان هذا مينيبوس الذي ضاعت لسوء الحظ أعماله النثرية والشعرية، وإن ظل مشهوداً له تأثيره في كتاب آخرين، وكان رقيقاً وصار بعدئذ عتيقاً، ثم جنى من المال ما جعله مرابياً. ولعل تلك التجارب تفسر نظرته إلى الحياة التي غلب عليها التهكم والسخرية؛ فلقد تناول الطبقات كافة بالهجوم، ومنهم الفلاسفة، وكانت به نزعة شديدة لمعالجة الموضوعات الجادة بالتهكم والاستخفاف. ولكن لم يبلغنا من أعماله سوى شذرات، ومن ذلك مقالة باسم لوقيان الذي درس أعماله وأخذ عنه أسلوبه، ولعله كان نتاج قلم المرابي سابقاً الذي غدا فيلسوفاً لاحقاً. ولكني لا أملك شخصياً أن أفكر بمينيوس من دون أن تبعث في خيالي لوحة لرجل بالحجم الكامل معلقة في القاعات الضخمة المخصصة للوحات فلاسكيز في متحف برادو، وتمثل شيخاً طويل القامة مجللاً بعباءة سوداء ينظر بعينين خارقتين من تحت قبعته ذات الحافة الواسعة ومنظره يوحي بالبؤس؛ فلماذا صور الرسام الإسباني العظيم مينيبوس الجاداري؟ ولماذا في هيئة متسول إسباني؟

كان أكبر مقلدي مينيبوس الذي سوف يتذكر الناس المصير الذي آل إليه في أعمال آخرين الشاعر الحكيم ملياجر، وهو من جدارا أيضاً، ولوقيان ذا الصيت الذائع. وقد بلغنا لوقيان بوصفه قدوة ومثلاً يتبع، وهو الذي كان معجباً بأفلاطون ودرس الكتاب الإغريق. وكان لوقيان قد ولد في ساموساتا على ضفاف نهر الفرات في العام 10 ميلادية، وتتلمذ على عم أو خال له كان يعمل في التماثيل، لكن ما لبث لوقيان أن ناله سوء المصير حين كسر قطعة من المرمر فتلقى ضرباً مبرحاً عقاباً له، وعندها بدأ حياة من التجوال. وحمله الترحال إلى أنطاكية للدراسة، شأنه في ذلك شأن الكثيرين سواه، ولعله درس هناك

أعمال مينيبوس، وعرف باسم أرسطوفان النثر.

أما ميلياجر المولود في العام 135 ق. م فقد نال تعليماً وافراً؛ فكان ضليعاً بالإغريقية، ليس العامية السائدة في سورية اليونانية؛ بل لغة الأدب الإغريقي الراقية، كما كانت له معرفة بالآرامية والفينيقية. ويبدو أنه انتقل إلى صور حيث كتب الحكم الساخرة والأمثال مقتدياً بمينيبوس فضلاً عن مجموعة من منتخبات شعرية. وفيما يلي قصيدة قصيرة تبين شغفه وتذوقه للطبيعة مقتطفة من مجموعة «Anthologia Palatina» لعلها تجد مكاناً هنا:

زهرة اللبن الثلجية وأقحوان الجبل تبرعمان من جديد

وأزهار النرجس، عاشقة المطر،

ووردة الزيزفون الجميلة التي تثير الرغبة،

الزهرة الكاملة في عيون العشاق، تزهر الآن

فعلام تتباهين، إذاً، بحلتك البهية أيتها الحقول،

طالما أن جمالها لا ينتج نفحة عطر؟

(وردت هذه القصيدة أيضاً في كتاب «سورية ولاية رومانية» Syria as a Roman Province، لـ «إي. اس. بوشير» «E. S. Bouchier» حيث يطالع القارئ كثيراً من التفاصيل المثيرة للاهتمام التي تتصل بالكتاب السوريين).

وهاكم قصيدة لطيفة أخرى من هذه المنتخبات:

أيها الزيز المزقزق! الثمل بقطرات الندى

شاعر الحقول، مهذار الصحراء المنطلق

تحط بقدمين مثلمين على البتلات في العلا

من جسد داكن تعزف موسيقى رقيقة

فتعال، يا صديقي العذب! غن لـ «بان» الحساس

واحمل لحوريات الغابة بعض التراتيم الجديدة

لعلي أجد الراحة، أيها الحب الهارب، والظهيرة تحل

هنا تحت ظلال شجرة صنوبر حانية

ولقد استقر ميلياجر في نهاية المطاف في كوس. ولا بد أن لوقيان– وكان أحد المعلمين المتنقلين– قد زار جراسا في جولاته العديدة التي طاف فيها جميع أرجاء الإمبراطورية، الرومانية، حتى حط رحاله في النهاية في أثينا. وكانت طبيعته التي لا تستقر على حال أو العرض الذي تلقاه بالعمل في مصر قد حمله على الانتقال إلى الإسكندرية حيث مات هناك على الأرجح؛ إذ لم يعد يسمع عنه بعد ذلك قط.

وقبل الانتقال إلى عصر انطونين نتحدث عن ابن آخر لجدارا تعرض لنا حياة المغامرة التي عاشها بعض التفاصيل الطريفة، وكان هذا فيلوديموس الذي أتى بعد ميلياجر، وبعد شاعر أسبق عهداً هو انتيباتر، وكان من أبناء جدارا أيضاً، وأبيقورياً وذواقة حياة. وقد مضى انتيباتر هذا إلى إيطاليا حيث حصل لنفسه راعياً، هو لوقيوس بيسو الذي تصدى له شيشرون وثار عليه بصوت جهوري كالرعد مردداً جملاً طويلة من بلاغته، ولقد قال ذلك الخطيب العظيم: «ذلك الإغريقي»، وتحدث عن فيلوديموس بوصفه رجلاً ذا موهبة لكن هذه الموهبة قد حط من شأنها.

ولقد أمضى شيشرون في يفاعته ستة أشهر في أثينا، حيث أعجب بالأدب الإغريقي، وانكب على دراسته، وكان شديد الانتباه للطابع الفني العظيم الذي يغلب على الإغريق. ولكنه لم يكن ليقيم لهم عظيم تقدير بوصفهم أفراداً. وهو يتحدث أكثر من مرة عن غلبة الكسل عليهم وحبهم للرفاه، وأما أداؤهم على منصة الشهود فيذكر مثلاً إغريقياً يقول «أعرني دليلك»؛ مما يعني ضمناً أن الخطباء يقدمون الدليل عند الطلب لقاء ثمن. وهاكم رأيه النزيه في الإغريق في أيامه؛ الذي أدلى به عند الدفاع عن فيلاكيوس:

«أقول هذا وأعني به الإغريق كلهم: إني لأسلم بعبقريتهم الأدبية، ومهارتهم في مختلف الميادين، ولست أنكر عليهم البلاغة في الحديث ودقة التفكير والفصاحة في الخطابة، ولست معترضاً عليهم إن كان لديهم زعم بامتلاكهم أي صفات نبيلة أخرى، ولكن قدسية الالتزام الذي يقع على الشاهد بأن يقول الحق التزام لم توله تلك الأمة اهتمامها».

والنصيحة التي قدمها لحاكم آخر هو شقيقه، وكان ينهض أحياناً بذلك المنصب الممتع والمفيد لخزانة المرء في آسيا، لتبين كيف كان الحكام الرومان «يجمعون» التحف الفنية

لتزين قصورهم، وهذه النصيحة جديرة بالاهتمام من حيث كونها تعرض شيئاً من روح العلاقة بين روما ومستعمراتها. ولاسيما أنها كانت تحمل الطابع ذاته الذي تتسم به سورية؛ فقد كان السكان يتألفون إلى جانب الآسيويين من المستوطنين الإغريق القدامى، وشريحة واسعة من التجار والممولين والمرابين الرومان، وهذا الحشد الكبير من الناس على الجملة يسعون لتحصيل ثروة في وقت قصير، يقول شيشرون:

«إنك لن تعاني كثيراً في السيطرة على تابعيك، إن أمكنك السيطرة على نفسك؛ فطالما قاومت الميل إلى الكسب ونيل المتعة، وجميع وجوه الغواية الأخرى، وإني لعلى ثقة من أنك سوف تقاوم الإغراء، ولا أعتقد بأنك ستعجز عن ضبط تاجر يرتكب الغش والتدليس أو محصل مال مبتز. فحتى الإغريق– حين يجدوك تعيش على هذا النحو– سوف ينظرون إليك كأنك بطل من تاريخهم القديم، أو مخلوق خارق حل عليهم من السماء.

وإني أكتب لك هذا لا لأستحثك على المبادرة؛ وإنما لتغبط نفسك لتصرفك على هذا النحو. فإنه لأمر مجيد أن يشغل المرء بالحكم مدة ثلاث سنوات في آسيا، على نحو لا يمكن لتمثال أو لوحة، أو تحفة فنية من أي نوع، أو أي غواية من ثروة أو جمال (والمقاطعة التي تتولاها حافلة بكل هذه المغريات والغوايات) يمكن أن تجتذبك إليها من حصن أقصى النزاهة وضبط النفس. أي ينبغي ألا يكون تقدمك في المراتب سبباً لفزع سكان البلد، وألا تكون متطلباتك سبباً في إفقار أحد منهم، وألا يكون نبأ مقدمك سبباً لخوفه؛ إنما ينبغي أن تحمل معك حيثما حللت أفضل أسباب الابتهاج، عامة ولا سيما، بقدر ما ترى فيك كل بلدة حامياً لا طاغية – وكل أسرة تستقبلك ضيفاً لا نهاباً».

وبعد أن يعرض شيشرون على صاحبه أفضل سبيل إلى العدالة يشير عليه بأن الرحمة سمة تأتي له بالمكاسب:

«إن كان مثل هذا الاعتدال شائعاً في روما التي فيها الكثير من تحقيق الذات، وتلك الحرية غير المقيدة، والمتاحة للرجال كافة، حيث يحفل البلد بالكثير من محاكم الاستئناف، ووسائل عديدة للعون، والناس يتمتعون بالكثير من السلطة ولمجلس النواب سلطان عظيم؛ فكم سيكون الاعتدال في شخص حاكم آسيا موضع تقدير، في منطقة الأعداد الغفيرة

فيها من الإخوة المواطنين والرعايا، وكل الولايات والمدن العديدة إنما يكون مصائرهم متوقفة على إيماءة بالرأس! وحيث لا يكون ثمة مرجع من حكمة ولا علاج من قانون، ولا مجلس للحكماء ولا مجلس للنواب. فإلى أين يتوجه الرجل الكبير النبيل الذي تدرب بالتعلم والدراسات الحرة، فيسترشد بذلك كله في ممارسة تلك السلطة المطلقة، لئلا يتطلع أولئك الذين يقوم على سياستهم إلى أي سلطة سوى سلطته».

ولنعد إلى فيلوديموس الذي كان رجلاً طلقاً، وكاتباً ساخراً يملك أن يطلق النكات مثلاً على رأس أصلع، أو عمر محظية ما، ويخرج بقصيدة يخبر فيها أنه يحث الخطى في الشيخوخة، لكن ما زالت تضطرم في قلبه الشعلة القديمة، وللمرء أن يصدق قوله حتى النهاية. وهناك قصيدة ترسم صورة ممتعة لوليمة عشاء مرتجلة أقامها جماعة من أصدقائه، بترجمة الميجور (الرائد) غثري ماك غريغور:

«أرتميدروس يقدم لنا طبقاً من الخضار

وأرسيتارخوس يأتينا بالسمك المخلل

واريستاجوروس يضيف البصل من عنده

وفيلوديموس يبعث بقلب طيب المذاق

ومن ابولوفانيس قطعتان من اللحم،

وثلاثة من بقايا الأمس. وجبتنا اكتملت

وخذ منا البيض، وعقود الزهر، والصندل، والمر

وفي الساعة العاشرة سوف أنعم عليكم بحضوري».

ولاشك أن الكثير من الوقت والمال قد أهدرا في هذه الموائد، ولم تكن تهيئتها بالأمر السهل على النحو الذي وصف في تلك الأبيات التي أوردناها آنفاً. وهناك اوسيدينيوس من أفاميا الذي ولد في العام 135 ق.م، وتوفي في روما عام 57 ق.م، وهو صاحب مؤلف يتابع فيه تاريخ بوليبيوس حتى زمانه. وقد وصف بوسيدينيوس النوادي في المدن الإغريقية على نحو يحملنا على تصديق كل القصص القديمة عن النهم والإسراف في الشرب، والقصص عن الرؤوس المتوجة بالورود والساعات الثمينة التي تمضي في الإبلال من آثار

الوليمة؛ بل لعلنا نذكر أن يوليوس قيصر كان على قدر من الحكمة جعله يتناول عندما زار شيشرون دواء مقيئاً قبل أن يجلس إلى المائدة العامرة، كما ذكر مضيفه في رسالة إلى صديقه اتيكوس. وإذاً علينا أن نأخذ الصورة التي رسمها بوسيدينيوس على أنها صورة صادقة للقاءات في أيامه؛ صورة تجعل أصحاب القصور الفخمة ذات الأبهة في حي «بال مال» يشعرون بشيء من الأسى لأن «أيام الماضي المجيد» في العالم الوثني ولت.

هناك نواد عديدة يرتادوها الرومان باستمرار للترويح عن أنفسهم، باستخدام قاعات الرياضة في الحمامات ودهن أنفسهم بالزيوت والمراهم الغالية، ويستخدمون «المدارس»، وذلكم هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على قاعات الطعام المخصصة للأعضاء، وكأنها بيوتهم، ويمضون معظم اليوم في حشو بطونهم بالطعام والشراب، بل إنهم يأتون بأكثر من تلك النشاطات، وهذا كله وسط ضجيج القيثارات المزعج، مما يجعل مدناً بكاملها تدوي بهذه الأصوات الصاخبة».

وكان فيلوديموس الذي لابد أنه قدم المساعدة في كثير من هذه الاجتماعات قد التقى مع راعيه لوقوس بيسو بهوراس في مجتمع روما، وهذا ما يذكره ذلك الرجل الممتع هوراس في واحدة من «الهجائيات». «نقيم في مدينة لا أسوار لها أمام الموت، وكل شيء حافل بما يأتي به».

وقد كتب فيلوديموس في إحدى مقالاته الفلسفية التي يسخر فيها من الإنسان المسكين الضعيف الذي يزرع أشجار السرو أو يسمح بأن يشنق في سبيل قرشين، أو يرسي أساسات عمارات تحتاج إلى ألف سنة لتكتمل. وحاله كحال وعاء من الزجاج: هل يظل سليماً وهو يصطدم بقدور من الحديد؟! إننا لا ندري أين اختتم أيامه فليس هناك من إشارة إلى هذا المكان. لقد استهزأ بفكرة الخلود، والحق أنها فكرة فقدت شيوعها في أيامه، وإن كانت هناك استثناءات لهذه القاعدة؛ فقد كان للاتجاه الجديد الأفلاطونية الجديدة الأثر الكبير في تقريبها من عقول الناس بوصفها احتمالاً. وإن هاتين الشاهدتين اللاحقتين تعرضان الفكرة الوثنية في تطورها، وقد ترجمتهما عن الإغريقية السير رينيل رود:

شاهدة قبر ميلياجر
«خفف الوطء، أيها المار من هنا
فالشيخ العجوز يريح رأسه،
مستغرقاً في النوم ذلك النوم الذي لا بد
أن يخلد إليه كل البشر بين الموتى المبجلين
ميلياجر بن اوقريطس
من ربط مواكب المباهج
لإلهات الحسن والجمال الثلاث وإلهات الغناء والشعر التسع
بألم الحب العذب
من جدارا، الأرض المقدسة،
جئت، وصور التي رفعها الرب،
لكن ميروبيس، وكوس اللطيفة
خففت من نار الحياة الآفلة
إن كنت سورياً فقل سلاماً،
وإن كنت اغريقياً فقل حييتم جميعاً!
وقل نايديول، إن كنت فينيقي المولد
فهؤلاء جميعاً سواء عندي.
شاهدة قبر ما سيدونيوس – القرن السادس الميلادي
يا روح المولد الذي وهبني الحياة،
ويا أيتها الأرض التي تلقت الطين [الذي هو أنا]
وداعاً، فقد رحلت
قطعت المرحلة التي أنت فيها تتردد.
إنني أذهب، وليس لدي معرفة
من أين جئت إليك

ولا أين سأرحل
ولا من أكون ولا من تكون

تبين النظرة الأوسع والأبعد، والروح المتسائلة التي تفصح عنها الأبيات السابقة تلك الطبيعة المتدرجة للفكر؛ فليس هناك من إجابة على السؤال الذي يطرحه الشاعر، غير أنه على اقتناع بأن ثمة مستقبلاً، ولو أنه لا يملك أن يسبر كنهه.

لقد ذكرنا ليبانيوس من قبل لكن لابد من أن نخصه ببعض الكلمات؛ لأن الرجل كان أحد الذين كانت لهم علامتهم في ما كان يسمى العصر الفضي للأدب الإغريقي. فلقد ولد ليبانيوس بأنطاكية في العام 314 ميلادية، وكانت نشأته في الريف. وكشف منذ بواكير صباه عقلاً متفتحاً للدراسة وميلاً للتعلم، وارتحل إلى أثينا لإتمام دراساته، ومن ثم أسس في بيزنطة مدرسة للخطابة، ولكنه هجرها بعدئذ تحت وطأة غيرة المعلمين المحترفين الذين يبدو أنه لم يكن من عدادهم. ولما بلغ الأربعين عاد واستقر في أنطاكية حيث صار في عداد تلاميذه جميع أصحاب المواهب في المدينة وآخرون عديدون سواهم. وكان الناس يتقاطرون لسماع محاضرات ليبانيوس، كما كانوا يتقاطرون لحضور مواعظ تلميذه العظيم القديس يوانس كريسوستوموس.

وكان ليبانيوس وثني النزعة مخلصاً لها أشد الإخلاص؛ بل إنه لم يفهم المسيحية ووضع المصنفات في نقد ما كان يعتقد أنه أركان عقيدتها، ولكنه أعجب بيوليان الراهب ووضع خطبة في تأبينه. وكان شديد الإعجاب بالإغريق وشديد الاحتقار للاتين؛ بل كان يكن الإعجاب للملوك السلوقيين، وكان وصفه لحريق معبد أبوللو في دافني في أثناء زيارة يوليان الأخيرة إلى أنطاكية مدعاة لأشد الحزن؛ فيبدو أننا نرى الآلهة القديمة تفر حزينة من عالم لم يعد لها فيه مكان بعد اليوم:

«صاح عابر باكياً وألسنة اللهب ترتفع وتعلو، والحبيبة المقيمة في دافني، كاهنة الإله تنوح باكية. وسلكت الضربات على الصدر دربها ومر البكاء يشق طريقه عبر الحرش والغيضة إلى المدينة وسط الرعب والهلع. وكانت عينا الإمبراطور عندئذ توشكان على

تذوق طعم النوم؛ لولا أنه قفز من فراشه في حركة تنم عن الحزن وأسرع هائجاً وكأنه ينتعل صندل هرمس. وتقدم باحثاً عن سبب الشر، وألسنة النيران تشتد في الداخل والخارج على حد سواء، بينما كانت الدعائم تتهاوى حاملة معها لهبها ملتهمة كل ما كان بجوارها، فكان أبوللو الأول الذي صعد اللهب منه حتى كاد يبلغ السطح، ثم تلته أشياء أخرى: تماثيل عرائس الشعر والإلهام، وتماثيل المؤسسين، والجواهر ببريقها ولمعانها والأعمدة السامقة. ووقف حشد من الرجال جانباً يتفحصون وهم عاجزون عن تقديم العون، شأنهم شأن أولئك الذين ينظرون إلى حطام سفينة في البحر، وهم على اليابسة، ولا يملكون من أسباب العون إلا البكاء للمصيبة التي حلت. والحق أن الحوريات أخذن يرفعن بدءاً من ينابيعهن أصوات العويل، وكان عظيماً كذلك تفجع زيوس الذي أطل من عرشه متجهماً، حين شاهد شرف ابنه يسفح على هذا النحو. كذلك كانت عظيمة حشود الآلهة التي تسكن الحرش، ولم تكن كاليوب إلهة الفصاحة والشعر أقل من سواها عويلاً وندباً وسط أنطاكية، حين التهمت ألسنة اللهب رئيسة كورس الملهمات».

إننا لن نستطيع بعث الناس في دروب جراسا الصامتة إلا بعد أن نطالع حياة الرجال الذين صنعوا تاريخ المدن الإغريقية في سورية، وندرس الشذرات التي بقيت من أعمالهم؛ لقد كان معبد أرتميس ذات مرة مجيداً في داخله، ومعابد الآلهة مزخرفة بالذهب والجواهر، وبوسع المرء أن يتخيل شبح ليبانيوس يتجول صعوداً وهبوطاً في أرجائه المدنسة ويندب خرابه. وعند النهر في الأسفل ما تزال بقايا الحمامات الرائعة التي كانت تعادل النوادي التي طالعنا أخبارها في هذا الفصل، وتضم هذه الحمامات حتى اليوم العديد من المعالم المهمة، ومنها بناء القبة التي أثارت اهتمام مهندسي العمارة وإعجابهم.

الفصل السادس والعشرون
الأفلاطونيون الجدد

لا أظن أن ثمة مدينة– بما في ذلك روما– وحدها من دون سواها تجمع العالم وتضم ذكرياته.

جيه. امبير

لابد أن الإسكندرية– وهي إحدى مدن العالم الجميلة– كانت تعرض مشهداً خلاباً لطائفة العلماء والباحثين عن عمل مجز، الذين ائتلف جمعهم فيها. والمدينة المرمرية تستلقي على امتداد الأرصفة التي تستحم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، والبلدة تنشطر شطرين في الوسط بفعل الطريق الكنوبي، وفي مقدمتها جزيرة الفراعنة التي بنى فوقها بطليموس فيلادلفوس ما كان يعرف بإحدى عجائب العالم؛ وتلكم هي المنارة التي شُيدت بالمرمر الأبيض اللامع، وكانت مربعة الشكل عند قاعدتها، ومثمنة في وسطها، ومستديرة في أعلاها. وربما يمكن للناظر أن يحسبها ضريحاً ضخماً لولا المنارة في أعلاها، التي كان يقصد بها أن يوجه الضوء السفن إلى مدخل الميناء، وهذا الضوء تعكسه مرآة هائلة صفها عامل صيني. ويقول بعض الكتاب القدامى إن هذه المنارة الجبارة ضمت ثلاثمئة غرفة ويمكن أن يضيع المرء بسهولة بين هذه وتلك، كما كان لها سلم توزعت درجاته على نحو يمكن للحيوانات التي تقوم بأعمال الحمل والنقل أن تصعد حتى أعلى المبنى. وقد استغرق بناء هذا الصرح اثنتي عشرة سنة، ولابد أن يكون بطليموس الثاني– الذي أنفق مبالغ طائلة على البناء والجزيرة عموماً بما في ذلك حصونها في أقصاها من كلا الطرفين– قد نظر إليها وتفقدها بكثير من الرضا والحبور حين اكتملت.

وكان الملك يقيم في الحي المعروف باسم برخيوم حيث المكتبة التي يوليها اهتماماً شديداً، وكان الميناء الكبير في حركة دائمة والسفن خراجة ولاجة باستمرار. والأرصفة أشبه بخلية نحل، والمدينة كلها بما حفلت به من قصور كبيرة وحوانيت ومحال تجارية

والحي اليهودي فيها تنبض جميعها بالحياة.

ويصف لنا استرابو الإسكندرية فيقول إن شوارعها واسعة فسيحة، وتسير فيها الأحصنة والعربات بيسر، وتتمتع بمعابد ومبان عامة حسنة، وفيها العديد من القصور الملكية التي كان يحرص كل ملك جديد على بنائها. ويقول استرابو في هذا: «ثمة قسم من القصر يعرف بالمتحف، وهو ذو أروقة وساحة ومبنى واسع، ويضم قاعة يختص بها أولئك العلماء العاملون فيه.

ولهذه الجماعة خزانة مال خاصة، ويرأسها رئيس هو أحد الكهنة، وهذا المنصب أسسه البطالسة، واستمر أيام القيصر [الروماني].

ويبدو من هذه الرواية أن الملك أسس منتدى يضم أصحاب المواهب الأدبية لديه، ولنا أن نتخيل عندئذ أي اجتماعات كانت تعقد ههنا. ولن يقعدنا الخيال عن تصور اندفاع المفكرين لإنتاج نظرياتهم وتدوين كتبهم، وهم في رعاية مثل هذا الراعي الرائع، وهناك، فضلاً عن إغراء المكافآت والرفاه الذي ينعمون به في بلاط بطليموس رعاية «رجل الأدب»، كما كان يطيب لأجدادنا أن يسموه؛ فليس من قبيل النزوة أن جعل بطليموس فيلادلفوس من قصره مركزاً للعالم، فالحق أن ما حفزه إلى نشدان المعرفة ومؤازرة القادرين على إشاعة العلم وتحقيق غاياتهم شغف أصيل بما هو جميل ويستلفت الانتباه وفضول حقيقي.

ومن أشد التطورات المثيرة للاهتمام في البحث الروحي ما كان قد جرى في هذا القصر عينه وتحت إشراف الملك ذاته، ولم يكن هذا المبحث سوى امتزاج العقائد السرانية لمصر القديمة والجانب الصوفي في الميثولوجيا الإغريقية؛ أي عقيدة «هيرمس مثلث العظمة». ويقدم لنا السيد جي. اس. ميد مترجم القوانين الهرمسية ومطارحاتها التي تحتوي الكثير من كنوز حكمة الكهنة المصريين عرضاً للحركة، قبل أن ينتقل إلى ترجمة المحاورات الهرمسية التي تحتوي الكثير مما احتوته خزائن الحكمة عند الكهنة المصريين.

صورة [مقابل ص 294 في النص الانكليزي]
الساحة العامة، وإطلالة على بيت الطي، جرش

ونجد في هذه المحاورات أن جماعة المتصوفة قد اجتمعوا في المتحف الملكي معاً يخوضون في الحديث عن صاحب الحكمة والقلب واللسان، توت الأسمى، وهو اللوغوس، والكلمة، والعقل، والذي بفضله ستبلغ الإنسانية المعرفة المقدسة. ولقد أدت الكلمة إلى الخلق، واسمه كان الكلمة المبدعة، وهو الذي علم ايزيس الكلمات التي جعلتها تعيد الحياة إلى جسد أوزيريس الميت، ولعلها إشارة إلى البعث بعد الموت. وكان على أوزيريس أن يموت قبل أن يرتفع إلى مستقره طاهراً خالصاً، كذلك كان على حوروس بن ايزيس وأوزيريس أن يموت قبل أن يصعد بالاغتسال إلى الحياة الأطهر.

كان توت صاحب الحكمة الأعلى كلمة الله، وكان على الذين درسوا الحكمة أن يتحولوا إلى عارفين بالأسرار، لأن توت كان العارف. وأقتطف في مايلي مقالة من «هرميس مثلث العظمة» لنتعرف إلى هذه الفلسفة المغرقة في فلسفة التصوف:

«بدأ الاتصال الأقوى بين الفكر والفلسفة الإغريقية ومدرسة الحكمة والتصوف المصرية مع عصر اللاجيديين الباهر، والذي جعل من الإسكندرية شيئاً فشيئاً المركز الفكري والديني والفلسفي والعلمي في العالم الهيليني».

كان توت – هيرمس طوال عصور معلم الأمور الخفية في مصر ويحمل تمثاله ريشة الحقيقة على رأسه، أو لفافة من ورق البردي في يده، وهما الرمزان اللذان يشيران إلى طبيعة توت المزدوجة كاشفاً وكاتباً.

كذلك حُفظت الشذرات الإغريقية المتعلقة بهذه الموضوعات أيضاً، وترجع إلى ما قبل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. وقد وضع بيتوسيريس دراسات مقارنة في اللاهوت والأبراج عند الإغريق والمصريين، وله كتابات في ديانة الأسرار المصرية: «يأسف فيتيوس– وهو يكتب في النصف الأول من القرن الأول الميلادي– لأنه لم يعش في أيام الحكام والملوك العارفين والحكماء الأوائل الذين أشغلوا أنفسهم بالعلم المقدس، حين تحدث إليهم الأثير الصافي من دون حجاب، ولم يمسك عنهم الإجابة عن أسئلتهم المتعلقة بالشؤون القدسية؛ فقد كان حبهم للأسرار المقدسة عظيم، وبلغت الفضيلة عندهم شأواً عظيماً في تلك الأيام، حتى أنهم غادروا في سبيلها الأرض تحتهم وغدوا مع أرواحهم السرمدية «طراق السماء والعارفين بالأمور القدسية»».

كان بطليموس فيلادلفوس إذاً عارفاً وثيق الاتصال بمانيثو كاهن هيليوبوليس، وهو أعرف العارفين في الإسكندرية. فقد جعل البطالسة الإسكندرية مركز مختلف ضروب المعرفة بتأسيسهم هذا المتحف والمكتبات ومدارس الفلسفة والخطابة. وكان من بين أعظم الفعاليات هناك ترجمة ما لدى الشعوب الأخرى إلى الإغريقية، وكنا قد رأينا كيف قدم اليهود إلى الإسكندرية بدعوة من الملك وحلوا هناك، وعاشوا فيما كانوا يترجمون كتبهم القديمة لتضُم إلى مكتبته. وقد اشتغل مانيثو بالتاريخ والتصوف، كما كان دراساً عظيماً للأدب الإغريقي. وأما المصادر المصرية فتقول إنه حصل معرفته من مدونات كهنوتية مما يتوافر في المعابد ومن نقوش بالهيروغليفية، ولكن أعماله الكبرى ضاعت لسوء الحظ، وليس هناك منها سوى ما نقله عنه كتاب آخرون، وتبين مقدار ما خسره المهتمون بمثل هذه الموضوعات من ضياع أعماله.

ومن هذه الشذرات المحفوظة من كتاب مانيثو الموسوم «كتاب سوليس» موجهاً إلى الملك: «رسالة مانيثو إلى بطليموس فيلادلفوس. إلى الملك بطليموس فيلادلفوس الكبير

ذي المقام الأرفع: أنا مانيثو الكاهن الكبير وكاتب المعابد المقدسة في مصر والمواطن في هيليوبوليس، السبينتي مولداً، أبعث بتحياتي إلى مولاي بطليموس.

إننا نجري حسابات تتصل بجميع النقاط التي قد تودون أن نتناولها عند الإجابة عن أسئلتكم حول مآل العالم. وإنه وفق آرائكم وضع جدنا هيرمس مثلث العظمة الكتب المقدسة وهي ما سوف أعرضها لكم؛ فالوداع يا مولاي ومليكي».

وللمرء أن يدرك أنه بهذا العرض سوف يمتد فضول بطليموس إلى المستقبل، وقد سأل العراف– شأنه شأن الآخرين من الناس– أن يجيب على أسئلته.

ومهما كان لنا من آراء في النظرية التي تقوم عليها الفلسفة الهرمسية فلا يمكن إنكار أنه كانت هناك رغبة عارمة لدى دارسين كثيرين يعنون بالسامي من الأمور لبلوغ جوهر الدين، وكان الجهد منصباً يومئذٍ للإرتقاء بالوعي، ليكون الإنسان قادراً على التحليق بوعيه. وهذا ما يذكرنا بالحواري بطرس الذي رفع إلى السموات العلا. (لست أدري إن كان ذلك بالجسد أم بغير الجسد)؛ فقد تابع المتصوفة الإغريق الذين كانوا يعيشون حياة الزهد بحثهم عن الحكمة المستورة، كذلك خرج أحبار اليهود بتأثير من الثقافة الهيلينستية بنظريات وجدت شارحاً لها في ما بعد في شخص فيلون. ودرس أتباع المسيحية مثل كليمنت واوريجن الأسفار القديمة، وجهدوا للتوفيق بين المسيح وهيرمس. وكان هؤلاء الدارسون جميعهم قد نذروا أنفسهم لحياة الزهد، ليتمكنوا من إخضاع البدن للروح.

كان من بين زائري بلاط بطليموس رجل يدعى ثيوقريطس لكنه لم يحظ في البداية باهتمام القوم، ثم وضع ثلاثاً من أناشيده الرعوية بعيد عودته، وكسب صيتاً بوصفه كاتباً بارزاً يبدي أمارات ترشحه للخلود. ففي زمن غلب فيه التقليد أبدى ثيوقريطس أصالة قيل إنه استمدها من الرعاة في صقيلية وهم يعزفون على الناي. وكان في هؤلاء الرعاة أصالة تختلف عما كان معهوداً في أشعار الإغريق القدامى التي تدور حول حياة المدينة ومغامرات الرجال والجانب النشط في شؤون البشر. أما الغريب فلم يُمس إلا مساً رفيقاً، إن وُجد من يهتم به، كما في الترتيلة الهومرية إلى بان.

ولد ثيوقريطس في كوس أو سرقسطة، وقد أمضى ردحاً طويلاً في صقيلية قبل أن

يفد إلى الإسكندرية حيث وضع الأناشيد الرعوية الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسابعة عشرة، قرابة العام 259 ق. م. وفي قصائده الريفية وتلك التي غلبت عليها الإشارات الهزلية تجلت أعلى درجات العبقرية لديه.

ولما لم ينل في القصر حظه من الاهتمام– وذلك بسبب كثرة الساعين إلى نيل الحظوة هناك– غادر ثيوقريطس إلى صقيلية، حيث درس أصول فن الشعر والتمثيل عند سوفرون ثم خرج بفنه الخاص. ولقد صادف حظاً أفضل هذه المرة؛ إذ استقبلت قصائده الرعوية الجميلة ومواهبه الشعرية الآن بالترحيب الذي كان يتوقعه، ونجد في قصيدته الرعوية الخامسة عشرة وصفاً لحديث امرأتين وخادمة إحداهن، كن يتهيأن لحضور الاحتفال بتشييع أدونيس؛ وكانت القصيدة تصويراً يشق على المرء أن يتخيل عملاً أكثر حداثة، وأشد عاطفة وذكاء في رسم الحوار بين المرأتين من هذا الذي عرضته هذه القصيدة. ولو شاء كتاب المسرح أن يقدموا لنا حواراً لما وجدوا مثل ذلك الحوار الذي يصور الجوانب الأكثر صميمية من حياة الناس العاديين، وجدير بنا أن نتعرف إليه. ولسوف أعرض هنا مقتطفات منه ولو أنها معروفة جيداً؛ لأنها تقدم وصفاً للحياة في الإسكندرية والحياة العادية بين امرأتين عاديتين ليستا من صنف بائعات الهوى ولا من المغامرات:

جرجو وبراكسينة

جرجو (مخاطبة الخادمة): هل سيدتك في البيت؟

براكسي: آه، ها قد وصلت أخيراً،

أيتها العزيزة جرجو. نعم أنا في البيت،

وأعجب أن أراك هنا. أسرعي، يا انوية

وأحضري كرسياً لها، وضعي عليه وسادة.

جورجو: لا! دعيه، كما هو.

براكس: حسن، اجلسي

جورجو: كم ألهث أنا! كدت ألا أبلغ منزلك من شدة الزحام،

وكثرة العربات والناس. وأحذية الجند والعباءات هنا وهناك،

وفي كل مكان – لقد حسبت أنه ليس للدرب من نهاية.

إن بيتك في الواقع أبعد كثيراً من بيتنا.

براكس: هذه غلطة زوجي الأحمق، فقد جاء إلى هنا وبحث عن جحر لا عن بيت، في أبعد نقطة.

إنما كان جهده أن يباعد بيننا، هذا اللعين الغيور.

جورجو: صه، يا عزيزتي

لا تعرضي بدينون هكذا أمام الطفل

انظري– يا امرأة– كيف يرمقك بعينيه. ولكن لا عليك يا زبريان الحبيب، أيها الطفل اللطيف، إنه ليس أباك الذي تتحدث عنه تلك الأم.

براكس: قسماً بالسيدة التي ربتنا، إن هذا الرضيع يفهم ما نقول!

جورجو: أبوك حلو»!

كم هو حديث وعصري هذا الحوار، حتى بعد انقضاء هذه القرون الطوال فإن الحديث يجري على هذا المنوال مرسلاً عفوياً، ويكون التعبير فيه بالفن ذاته بسيطاً منساباً. يخرج زوج براكسينة البليد ليشتري زجاجات من شراب الصودا وقلم أحمر الشفاه فيعود بملح. أما زوج جورجو المتلاف فينفق ماله في التفاهات. ترتدي براكسينة ثوباً ودثاراً، فتسألها جورجو من فورها عن السعر، ثم تمضيان لتشاهدا الحفل في قصر بطليموس، فتتعرضا للدفع وسط حشود الناس.

براكس: يا للسماء، أي حشد هذا!

كيف لنا أن نشق طريقنا باللكز والدفع بين هذا الجمهور؟ إنهم لأشبه بجيش عرمرم من النمل. أي بطليموس كم من الأعمال النبيلة فعلتها منذ أن بات مولاك بين الآلهة! ما من وغد– أعني بين المصريين– بات يتجهم وجهه الآن. وما عاد أحد يرضي عابر سبيل، كما كان الحال في الماضي.

جمع الشقاوة المدلسون المخادعون، وكل على شاكلته يقع، والجمع كله أوغاد.

أي جورجو، يا عزيزي؛ إلى أي مصير نحن سائرون؟ هاك فرسان الملك. أي رجلي

الطيب، لا تسحقني بحوافر فرسك، الفرس الغبراء تشب عالياً. انظري كم هي عنيفة هذه الفرس! أي أيونة، اجري، أيتها الوقحة

اجري؛ فسوف تقتل فارسها، يالها من نعمة فالطفل في البيت.

ثم تصارعان وتكابدان بين حشود الناس، ويتمزق دثار براكسينة، ولكنهما في النهاية تدخلان القصر وتكافآن برؤية تلك الأشياء الجميلة، وغناء الفتاة الأرغوسية التي تشدو بأسرار أدونيس، وتتصاعد الأنغام من الأعماق، وتقول جورجو التي لا ريب بأنها لم تصغ إلى شدوها:

«أي أمر يمكن أن يكون أكثر حكمة من ذكاء امرأة»؟

لابد أن التغيير الذي وقع كان عظيماً حين ارتفع شأن الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية؛ ومع ذلك ظلت مدرسة الأدب القديم والتصوف قائمتين. وكان من أمر السلالة اللاجيدية أنها انتهت إلى نهاية مأساوية على يد كليوبترا السابعة التي أصبحنا لا نعرفها إلا باسم كليوبترا، مثال الجمال والروعة، المرأة التي قال كاتب فرنسي قولاً طريفاً بأن شكل أنفها قد غير مصير أمم؛ ذلك أن أنفها كان معوجاً، وعيناها واسعتان جداً وذقنها يجنح إلى الاستطالة؛ فقوتها تكمن في سحرها وروحها الطاغية أكثر مما في جمالها الظاهر. وبصرف النظر عن ذلك كله فقد عرفت الإسكندرية إحدى أعظم مآسي الغرام على مر العصور، وانتهت أسرة البطالسة في الثورة العامة التي أعقبت انتحار كليوبترا.

ولقد مرت قرون وارتفعت المباني الرومانية ذات الشكل المألوف في مدينة المرمر التي حافظت على عظمتها وأهميتها التجارية. وقد نزل فيها الإمبراطور هادريان في إحدى رحلاته، كما زارها معظم الأباطرة الرومان، أما تلك الزيارة التي غدت خالدة بموت انطينوس الفتى الجميل غرقاً في النيل، سواء كان ذلك عرضاً في حادثة أم عملاً مدبراً كان هو الضحية فيه. والذي كان يعاني لحماية مولاه من نوائب القدر، أو من مصيبة ربما كانت تتهدده، والقصة هنا غامضة ويبدو أنها لم تكن مفهومة حقاً. ولقد بكى الإمبراطور هذا الفقيد الحبيب، ولعل هذه كانت دموع الندم؛ ولكن من يدري؟ ولقد أطلق اسمه على مدينة في مصر ثم رحل بعيداً، تاركاً لفناني المستقبل موضوعاً لطالما أثار الخيال؛ ذلك أن

كمال الشكل والوجه الذاهل الذي يحمل مع ذلك تعبيراً حزيناً تعكسه العينان وهذه كلها مجموعة من التفاصيل المألوفة جميعها نصادفها عند دخولنا أي صالة للفنون في أوروبا، حيث يقف انطينوس مثالاً للكمال الجسماني، وهو ينظر إلى الأسفل، ربما في جهد منه لستر سر تضحيته، إن كان في الأمر تضحية فعلاً، مخلصاً حتى النهاية. ثمة ما هو نصف حيواني في طبيعته ومؤثر إلى أبعد حد، يوحي بروح ضامرة أو جسد جميل لم ينل اللمسة الأخيرة من الروح.

وقد علمنا أن امونيوس زكاس عاش في الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي، وكان الملهم للأفلاطونية الجديدة؛ لكنه شأنه شأن صنوه سقراط لم يدون شيئاً؛ وقد قام تلميذه بلوطينس المصري بالدور الذي ينهض به أفلاطون لسقراط. ثم حمل المشعل بعدئذ بورميزي الصوري وامبليخوس الكالسيسي، وكلاهما سوري من أصل إغريقي.

كانت الإسكندرية التي عاش فيها زكاس وبلوطينس ما تزال غاية في الجمال؛ واستمرت تماثيل الفراعنة العظماء في جزيرتها، ولم تخربها بعد الزلازل المتلاحقة ويد الإنسان المخربة. وكان المتحف والمكتبات – التي زادتها كليوبترا ثراء وغنى، وهي التي ورثت عن أسرتها أذواقها– جاهزين متاحين للجميع، ولكن ما كان ذات يوم سباقاً فكرياً من جانب اللاجديين الذين انحطت سلالتهم أشد الانحطاط مع الزمن، ولم تعد لديهم القدرة على القيام بدور الراعي للمثقفين والمؤازر للفن.

ولا بد أن بلوطينس قد عجب لهذه المدينة حين مضى يجول فيها باحثاً عمن يلتحق به، ولم يتمكن من العثور على هذا المولى. ولا بد أنه أُخذ بروعة القصور الكبرى التي كان يزيدها كل ملك في الحي الملكي، كما أُخذ بالأكروبوليس وثاني أضخم مكتبة؛ إذ لا يتقدم عليها سوى روما وأثينا. ثم لعله ارتقى الدرجات المئة ليبلغ السيرابيوم، ذلك المعبد الذي بناه بطليموس سوتر الأول، وتجول في الشرفة حيث الأعمدة الثلاثمئة من المرمر التي ضمها الرواق وجعلته معلماً ورمزاً للمدينة كلها ويُشاهد من بعيد. وكان هنا أيضاً تمثال الإله سيرابيس العملاق الذي أهداه ملك بنطوس لبطليموس فيلادلفوس، وكانت الشمس إذا مست شيئاً من ملامحه وداعبت فمه جعلته يبدو كإله للنار وقد بَثت فيه الحياة. ولا بد

أنه جال الإسكندرية باحثاً عن مدرسة يدرس فيها، ملاحظاً في طريقه المعابد والمسارح ومضمار سباق الخيل والحمامات الضخمة التي كانت مثل ناد للرجال الأثرياء.

ولقد نال التعب من بلوطينس وخاب أمله في بحثه عن معلم يدرس على يديه؛ ولكنه ما كاد يصيبه اليأس ويتهيأ لمغادرة الإسكندرية حتى حملته المصادفة فحضر درساً لأمونيوس زكاس وحدث الكشف فوراً؛ فقد وجد في الرجل المعلم الذي ينشده، فلم يضع الوقت في الانضمام إليه مريداً.

ولعل اسم زكاس اشتق من لباس يرتديه من الخيش؛ لكن الأرجح أنه بدأ حياته حمالاً. وإذا صح هذا الرأي فإن تعليمه لم يكن ليؤهله ليكون كاتباً، وكان قدوم رجل مثقف مثل بلوطينس مِنَة من الله. ولقد مضى بلوطينس إلى روما في خاتمة المطاف وأخذ يطور نظريته الخاصة التي انتشرت وعمت الإمبراطورية بفضل كل من بورفيري وأمبليخوس بعد وفاته. وكان بلوطينس عالماً إغريقياً صالحاً، دأب على أن يرسل كتاباته إلى بورفيري لتحريرها قبل أن يطرحها على العالم، حتى بعد أن غادر تلميذه روما واستقر في صقيلية. والحق أن بلوطينس ليس بالموضوع الذي يصلح لمذكرات شخصية، وقد أخبر بورفيري ذات يوم أنه «يخجل من أن تكون روحه في بدنه»، وهذا كل ما توافر من المعلومات المأخوذة من صديقه عن تاريخ أسرة المعلم.

كان بلوطينس في السابعة والعشرين حين قدم إلى الإسكندرية ومكث إحدى وعشرين سنة، ثم تبع الإمبراطور غورديان الذي كان يخوض قتالاً ضد الفرس؛ إذ كان يريد كما يبدو أن يدرس في عاصمتهم ستيسيفون، وظن يومئذٍ أن هذه أفضل طريقة للوصول إلى هناك. ولكن الإمبراطور توفي حينذاك وتشتت جيشه، فهرب بلوطينس إلى أنطاكية وانتقل بعدئذٍ إلى روما.

وحين غادر بورفيري سورية الإغريقية قاصداً روما كان قصده أن يتلقى العلم من بلوطينس المطلع على كتاباته، وكان المعلم يومذاك في التاسعة والخمسين من العمر، واستقبل تلميذه الصادق والمجادل وذا المخيلة الخصبة، وكان طلابه يضيقون بتمحيص بورفري وأناته في الدرس وعرض القضايا، واعتاد أن يقول عندئذٍ إنه ليس من المفيد

الانتقال من موضوع إلى آخر ما لم يتأكد له أنهم على بينة ووضوح، واستوعبوا النقطة موضوع الدرس بجلاء.

وكان اسم بورفيري في الواقع مالكوس، وقد عرف بلقبه «ذي الرداء الأرجواني» الذي أطلقه عليه معلمه في أنطاكية، وعلى الأرجح أنه خلعه ليخفف من وقع اسمه المشتق من كلمة «الملك» العربية. وعرف عنه أنه ألقى محاضرة جليلة بمناسبة ذكرى ميلاد أفلاطون التي أقيمت في روما، وقد عرَّض بعضهم بالمحاضرة، ولكن بلوطينس قال بلغة ملؤها الود «قد أظهرت أنك تجمع بين الشاعر والفيلسوف والقديس في آن معاً».

ويبدو أن بورفيري قد أصابته ذات مرة نوبة من السوداوية؛ بل: راودته رغبة بإطلاق روحه من قميصها الفاني، لولا أن أقنعه بلوطينس بالسفر إلى صقيلية ليتحول بأفكاره عن مجراها، وقد نجح مسعاه وتولى تحرير ثلاثة من أعمال معلمه، فقلص عدد فصولها إلى ست إينادات [تاسوعات] على النحو الذي صارت به إلينا، وقد ظلت العاطفة التي كان يكنها للرجل الكبير كما هي لا ينال منها منال؛ فوصفه بالرجل صاحب «الفضل وحسن العريكة والدعة واللطف».

وظل بلوطينس أعظم الأفلاطونيين الجدد حتى النهاية مترفعاً عن حياة الحس، فلما اقترب من الموت أرجأ اللحظة الأخيرة ليرى صديقاً لم يستعجل الخطى كما كان بوسعه أن يفعل لو كان مدركاً لخطورة حال صاحبه، فأنبه بلوطينس برفق قائلاً:

«لقد ظللت أتوقع قدومك؛ وهأنذا أجهد ما وسعني لعل الجزء المُقدس مني يعود إلى تلك الطبيعة المقدسة التي تشيع في الكون كله».

ولقد عاد امبليخوس الكالسيسي إلى مدينته بعد أن درس على بورفيري، وقطع شوطاً طويلاً في دراسة التجليات والسحر، وكان له شأن في تطوير عقائد الأفلاطونية الجديدة في هذا الاتجاه. كذلك له كتابات في الفيثاغورثية، وقال إنها أصل التطور الأحدث في الفلسفة كما في دراسة أفلاطون والدلالة السحرية للأعداد.

استمرت مختلف المدارس على دأبها ردحاً من الزمن ولاسيما المدارس الغنوصية، وصارت بعد وفاة يوليان المرتد عرضة للقمع والاضطهاد من المسيحيين. وكان بين أبرز

المتأخرين من الأفلاطونيين الجدد هيباتيا بطلة كينغسلي الجميلة، التي لابد أن يتذكر نهايتها قراء الروايات جميعهم. ثم ألقيت كنوز الكتب والتماثيل والجواهر وكل الثروات التي توافرت للبطالسة في الخليج، فاختفى في لجة مياهه الكثير من الكنوز التي لاتعوض.

وكانت جراسا التي يبدو أننا غادرناها ردحاً طويلاً من الزمن قد تأثرت بالرجال الذين كانوا يتنقلون بينها والإسكندرية، كما تأثرت بأولئك الذين كانت التجارة أو المتعة تحملهم إلى بيزنطة أو أنطاكية، أوروما أو أثينا. وكان من شأن نمط الحياة في هذه المدن أن جعل حيويتهم ونشاطهم وطلاوتهم على النحو الذي عرفناه.

إنه لأشق على المرء أن يلج حياة النساء من أن يخوض في حياة أولئك الرجال، ومن بين النساء تبرز تحت الأضواء محظية ذات شأن، امرأة مثقفة مثل اللواتي في بيزنطة، ولربما تغدو مشهورة، إنما الغالبية منهن قد اخترن على ما يبدو حياة الدعة والسكينة؛ فليس لهن سوى القليل من المشاركة في الحياة العامة، وكن لا يخرجن إلا بمرافقة. ولا يذهبن إلى المسارح إلا في مواسم الاحتفالات، ويحضرن طقوس العبادة في المعبد، وبعضهن كن كاهنات. ولكنهن ما كن يسافرن، وإن قيل إن المستوطنين الوافدين من مقدونيا قد اصطحبوا نساءهم معهم، وتلك واقعة وردت في روايات المستوطنين الإغريق الذين استقروا على بعد أربعمئة ميل من النيل؛ فقد منح هؤلاء الذين كانوا في عداد جيش الإسكندر أراضي بلغت أحياناً مقدار فدان مصري، وهي من أراضي النهر، وكان هؤلاء يتمتعون بكل المزايا شأنهم في ذلك شأن المستوطنين الإغريق أيام البطالسة، فيعفون من الخدمة العسكرية ومن الضرائب. وكان يقال في تلك الأيام إن الإسكندرية مغرقة في الإغريقية، وإن كان بعضها يهودياً؛ لكنها تكاد ألا تكون مصرية على الإطلاق.

الفصل السابع والعشرين
جغرافيون عرب وحجاج مسيحيون

على الرغم من أن الموضوع كله خارج نطاق معالجتنا لتاريخ مختلف المدن التي تناولناها، باستثناء الكرك وعمان؛ فإنه ليس مما يجانب البداهة تماماً تكريس بضع صفحات للعربي وأدبه، فضلاً عن بعض أولئك الحجاج [المسيحيين] الذين تلقي ملاحظاتهم ضوءاً على مصائر الخرائب.

كان لدى العرب قبل الإسلام مدرسة للشعر الرفيع ينسبها الكتاب في مرحلة شيوع الإسلام إلى العصر الجاهلي، وكانت أعمالهم المبكرة جميعها موضوعة بالشعر، حتى ولو كانت مدونات تاريخية؛ فقد كان الإلهام الشعري منذ أيام اليمن وقبائل الصحراء في الأزمنة القديمة يأتي عفو الخاطر لأناس لديهم مخيلة وسهولة في التعبير. وكان الناس يتناقلون القصائد على ألسنة رواة الشعر، ولم تدون إلا بعد الهجرة. ولكن هناك من أشار إلى أنه لم يكن لأقدم القصائد طابع الفن البدائي؛ بل إنها تحمل علائم التدريب الطويل والتقاليد الأقدم عهداً في الشعر.

وهناك قصيدة بين المعلقات السبع الجاهلية ترجمتها الليدي آن ويلفرد سكوين بلنت ترجمة حرة، وكثيراً ما تهمل الإشارة إليها؛ لأن من وضعها لم يكن من مشاهير الشعراء، ولكنها توفر لنا فكرة عن البدوي وجواده الصحرواي. وصاحب القصيدة الشاعر اللاذع طرفة بن العبد(*)، وكان أبداً في خصام وعداء مع آخرين بسبب موهبته الشعرية التي كانت مصدر نقمتهم حتى أودته في النهاية موارد التهلكة. وقد ضمت هذه القصيدة إلى مجموعة تعرف باسم المعلقات، ولهذه الصفة تفسيرات مختلفة؛ ويذهب التفسير القديم إلى أن القصائد السبع علقت على أستار الكعبة لكونها فازت بالجوائز، ثم طرزت كلماتها بخيوط الذهب على نسيج مصري، ومن الجلي أن هذه الرواية رومنسية، وليس لها ما يؤيدها. والمتفق عليه اليوم أن الكلمة إنما تعني شيئاً ثميناً، أو شيئاً علق؛ لأنه ثمين.

(*) هذا الكلام لا يستقيم لأن طرفة كان من فحول الشعراء ومن شعراء المعلقات.

وتعرض لنا القصيدة طرفة على النحو الذي لا بد أنه كان عليه؛ نزقاً، مندفعاً، إنما ليس في هذه الحالة ساخراً، وكان قد ودع حبيبته اللمياء التي ما زالت يافعة لم تبلغ نضج النساء بعد، ويبتعد عنها ملتفتا بحماس متجدد إلى محبوبته الناقة ذات القوائم الطويلة التي سوف تحمله سريعاً، وهي تطوي المسافات في الصحراء:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد	*تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد*
وقوف بها صحبي على مطيهم	*يقولون: لا تهلك أسى وتجلد*
كأن جدوح المالكية غدوة،	*خلايا سفين بالنواصف من دد*
عدولية أو من سفين ابن يامن	*يجور بها الملاح طوراً ويهتدي*
وإني لأمضي الهم، عند احتضاره	*بعوجاء مرقال تروح وتغتدي*
تباري عتاقاً ناجيات، واتبعت	*وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد*

أدى انتشار الإسلام إلى تغيير الوضع في الشرق أيما تغيير؛ إذ بلغ أتباع الرسول [صلى الله عليه وسلم] الأندلس وغيروا وجه البلد. فقد غزت هذه القوة الخارقة في أقل من قرن بلداناً وغيرت أدياناً وفرضت تقاليد، وعصفت بالحياة الثقافية حتى قضت على مظاهر الوثنية، ثم مضت فأشادت على آثار الماضي دور العبادة من مساجد وقلاع وقصور رائعة؛ فكان ذلك إيذاناً بقيام عالم جديد ينهض على أنقاض الولايات الرومانية، بما يعني ذلك سورية وفلسطين. فالنظام الجديد الصاعد إنما كان يريد الخير لهذا العالم، ولم يكن لدى أصحابه مُثل مزعجة كالتقشف، وكان من أولى النقاط الجديرة بالملاحظة حول العالم الإسلامي ثقافته؛ وهذا مدعاة للعجب في وقت كانت تمر فيه أوروبا في حقبة حالكة. والنقطة الثانية الرفاه الذي كانت أسر النخبة تحيط نفسها به. وبرز الذوق الشرقي ونزوعه إلى العظمة إلى المقدمة فكانت ذائقتهم واحتفالهم بالفن أمراً يدعو للإعجاب. فإذا لم يكن إلهامهم أصيلاً، وإذا كانوا قد أخذوا عن الأمم المقهورة واختلفوا في إسبانية عما ظهر في مصر أو سورية؛ فإنه كانت لديهم مظاهر مؤكدة لا تختلف، أخذوا بعضها عن فارس وبلاد مابين النهرين، وهذا حق، إلا أن إنتاج فن مركب من تأثير مجموعة الفنون الأخرى

قد اكتسب خصوصية وصار مصدر إمتاع للأجيال التالية.

أما في الأدب فلا شك بأنهم كانوا مبرزين، ومن أخبار الطبيب والفيلسوف الكبير أبي علي بن سينا– وهو الرجل الذي زرع بذور النهضة الأوروبية– أنه قد استدعي إلى بخارى قرابة نهاية القرن العاشر، وقد وصف مكتبة الملك نوح الثاني بقوله: «وجدت هناك غرفاً عديدة مملوءة بالكتب المرتبة في خزائن صفاً بعد صف. وكانت هناك قاعة اختصت بكتب تتناول فقه اللغة العربية والشعر العربي، وأخرى اختصت بالقانون والشرائع والخ.. وكان لكل باب من أبواب العلم قاعة تختص بالكتب التي تعنى به. وقد بحثت في فهارس المؤلفين الإغريق القدامى مفتشاً عن الكتب التي أحتاجها؛ فوجدت بينها مجموعة من الكتب قلائل هم الذين سمعوا حتى بعناوينها، بل حتى أنا لم يقع عليها نظري قبل ذلك اليوم».

ولا يملك المرء إلا أن يتساءل عن المصير الذي آلت إليه مكتبة الملك نوح الثاني، وهل كان راعياً لأنوار الأدب؟

وكان من أعظم هؤلاء الشعراء المتنبي الذي اكتسب اسمه بادعائه ذات يوم بأن لديه القدرة على التنبؤ، واسمه الحقيقي أبو الطيب أحمد بن حسين، وكان ابن سقاء للماء، وأُرسل إلى دمشق ليتلقى العلم. وعاش ردحاً من الزمن بين عشائر البدو حتى كانت له المعرفة التامة بعاداتهم وتعلم العربية بينهم، ولم تكن العربية لغته الأم. ثم حصل على رعاية أمير، وقد قدم له ذات مرة بيتين من الشعر ضما أربعة عشر فعل أمر، وكل فعل ينص على طلب ما؛ فاستملح الأمير ذلك وأجابه إلى كل ما طلبه.

ولكن الجغرافيين– لا الشعراء– هم من يجب أن نلتفت للعناية بهم، وهذا موضوع يأخذ بجماع النفس وتناوله كتاب كثيرون، وقلة قليلة جداً من أعمال هؤلاء الأعلام وجدت سبيلها إلى الترجمة. وأشهر الجغرافيين هؤلاء المقدسي نسبة إلى القدس التي ولد فيها في العام 946م، وكان الخوض في الكتابة في موضوع الجغرافية مغامرة في تلك الأيام؛ إذ ينبغي على من يشاء الخوض في الكتابة في الجغرافيا أن يمضي إلى المناطق التي يريد الكتابة عنها، مثلما كانت التجارة مغامرة محفوفة بالمخاطر في تلك الأيام التي كان السفر

فيها شاقاً وخطراً.

وهناك جغرافي آخر وربما كان أعظمهم؛ وهو ياقوت [الحموي] المولود في العام 1179 والمتوفى في 1229 م. وكان ياقوت إغريقياً بحكم المولد وبيع عبداً لتاجر في بغداد، فتولى تعليمه ثم أرسله في تجارة إلى الخليج. وقد كانت له مشادة مع مولاه فأعتقه هذا، ثم اشتغل حيناً وراقاً، فكان ينسخ المخطوطات وقد وقع في أسر التتار، ويصف ذلك بقوله: «لقد هربت عارياً كما سيبعث المرء من تراب القبر يوم القيامة».

يصف ياقوت جراسا بأنها «مدينة عظيمة باتت الآن خراباً، ويجري فيها نهر كانت مياهه تدير العديد من الطواحين. وهذه المدينة تقع بين تلال تغمرها القرى والدساكر، والمنطقة ذاتها تعرف باسم «جبل جرش»

أمضى المقدسي عشرين عاماً في الترحال في المنطقة التي وصفها في كتابه، كما كان ياقوت كثير الأسفار في أثناء تأليفه معجمه الجغرافي.

كانت الأسر الحاكمة الإسلامية تتعاقب الواحدة تلو الأخرى، وجاء الصليبيون ومضوا تاركين أتباع النبي [صلى الله عليه وسلم] يهيمنون في الشرق. ثم جاء الحجاج المسيحيون لزيارة الأماكن المقدسة، وهناك بعض المعلومات المتناثرة في كتابات هؤلاء الحجاج. ولما كانوا قد دونوا هذه المعلومات ليفيد منها المتقين الذين لا يقوون على القيام برحلات طويلة وشاقة؛ فقد كان من المهم ألا يتركوا من دون وصف ما يمكن أن يفيد منه من مكث في موطنهم.

صورة [مقابل ص 310 في النص الانكليزي]

الساحة العامة، جرش

ولقد استرعى عدد لا بأس به من هؤلاء الحجاج الانتباه في سياق هذه الدراسة؛ ومن

هؤلاء الأخ فيلكس فابري الذي قَدِم إلى الأرض المقدسة قرابة 1480—83، فما وجد مكاناً لأن جولاته كانت تجري على الضفة الغربية من الأردن. بيد أن فابري هذا زار البحر الميت الذي وصفه بأن الدخان يتصاعد من مياهه، ومن إنجادي يستطلع المكان من حوله، ويخلط خلطاً شديداً بين مختلف «صخور الصحراء». وكان بوسعه أن يرى الكرك لو نظر مباشرة شرق مياه البحر الميت، لكنه كان ينظر جنوباً ناحية البتراء، بينما يبدو أنه كان يتحدث طوال الوقت عن الشوبك التي ما كان بالإمكان أن يراها، وقد كتب يقول:

«أشحنا بأبصارنا عن ناحية الشرق، واتجهنا بعيوننا نحو الجنوب بعيداً متجاوزين البحر الميت حيث شاهدنا برية البتراء، ولكننا لم نر البتراء وسط بريتها». وهذا القول يبدو صواباً غير أنه يتابع فيقول: «كانت البتراء هذه في البرية في قديم الأيام حصناً قوياً جداً في أرض المؤابيين حيث ولدت راعوث رمز الفضيلة لدى المؤابيين. وقد حصن بلدوين الثاني هذه المدينة القوية وأحاطها بثلاثة أسوار، ولم يكن بالإمكان أخذها لولا خيانة بعض المسيحيين. فاستولى عليها «السلطان»، وأقام ابنه البكر نائباً له عليها وكل ما له هناك، وما زالت غرفة خزانة مال السلاطين [بيت المال] أي ملوك مصر هناك إلى اليوم». ويمضي الرجل فيخبرنا أن اللاتين كانوا يسمونها بتراء البراري، ويسميها المسلمون «كراش»، وكان اسمها عند الإغريق الذين لم يستولوا عليها أو كان لهم اهتمام فيها قط «شبات». وإنه لأمر طبيعي أن يخلط فابري بين قصة صخور الصحراء الثلاث: البتراء والكرك والشوبك، ولكن شاهده على قدوم راعوث المؤابية من إحدى هذه الأماكن لا يقوم على سند قوي.

ويكاد الحجاج ينشغلون جميعهم تقريباً بالقدس وأماكن لها موقعها في العهد الجديد، مما يجعلهم لا ينفقون الكثير من الوقت على الجانب الآخر من نهر الأردن، كما أن ذلك الطرف كان أشد خطراً من فلسطين الغربية، حتى أن الذين يتولون رعاية الحجاج يعرضون دوماً عن مرافقتهم أبعد من أريحا. وما كانت مدن الديكابوليس الخربة آنذاك لتعنيهم؛ ذلك أنهم كانوا حجاجاً حقيقيين وغايتهم الوحيدة من قدومهم الفكرة الدينية، ولم يكن لديهم نية لزيارة أي موقع لا يتصل بغرضهم الظاهر.

في أعمال الجغرافيين المسلمين كثير من الأمور المثيرة للاهتمام؛ ومن ذلك حقائق من

شأنها أن تلقي بعض الضوء أيضاً على عصر النهضة الإسلامية التي جعلت عهود المأمون وبعض الخلفاء على هذا القدر العظيم من الأهمية والشهرة. كان العلم في أوروبا قد بدأ آنئذٍ بالتقدم، وانتشرت ترجمة أمهات الكتب وتعلم اللغات الأخرى أصبحت التقليد الشائع فيها. وكان الصليبيون قد عادوا إلى أوطانهم قبل أن يبدأ عصر النهضة الأوروبية بإظهار إشارات عودة الحياة إلى مدارس المسلمين في قرطبة، وبدأت خصوبة العلم الجديد– مثل معظم مدارس الفكر الذهنية والروحية الأخرى– من الشرق.

لابد أن الحياة شرق الأردن كانت شديدة البلادة؛ لأن المدن التي حاق بها الدمار لم يقيض لها بديل. فإن كان حقاً أن ثمة أراضي شاسعة من الصحراء تتناوب وسلاسل الجبال وحقول الذرة وكروم الزيتون المعتنى بها؛ إنما كان ذلك دائماً تحت وطأة الخوف من الغزوات التي تصدر من الصحراء، ويخبرنا الأخ فيلكس أنه كان بوسع البدو اجتياح المدن والقرى بيسر لو شاؤوا.

حين يتجول المرء بين آثار الماضي الرائعة في جرش لا بد للعقل بطبيعة الحال من أن ينتقل للتفكير في حال العالم يوم كانت أعمدة الحجارة مستقيمة والمعابد تخيم على المشهد، والمدينة كلها محاطة بأسوار ذات أبراج، والناس من عصر آخر يعيشون حياتهم تحت أشعة الشمس والسماء الزرقاء فيما يعرف الآن بشرق الأردن. ونحن نعيش– كما قال الأخ فيلكس– تحت نجوم أخرى، وأفكارنا مختلفة أيضاً، إنما الطبيعة البشرية في النهاية تظل كعهدنا بها في العالم أجمع والفوارق في هذا الأمر في معظمها سطحية. فيا ليت ثيوقريطس كرس إحدى حوارياته الفذة ليتناول سكان إحدى المدن التي لا بد أنه زارها في رحلاته؛ ولو أنه وصف إحدى الغابات كما لا يمكن لأحد سواه أن يصف هذا الوصف، مستعيراً مزامير الراعي ليعزف موسيقاه؛ كم كنا عندئذٍ أشد ثراء، وحياة الماضي الميت تستعاد أمام أعيننا.

وتظل جرش في الذاكرة كتلة من الأعمدة المجتمعة، قائمة في عالم من نبات الذرة تلوح تحت سماء زرقاء ساطعة، ومعها يظهر الصخر العتيق الدافئ منذ عهود.

الفصل الثامن والعشرون
الغـروب

تعد الرحلة من الفجر في البتراء إلى الغروب في جرش، من فجر التاريخ إلى الأفول الذي يرافق دمار المدن المنسية؛ حجاً لا يكمله إلا من توافر له الصبر والفضول. أما الفضول فإنه بالتأكيد إحدى الفضائل التي ينبغي أن تدرس وتشرح بعناية؛ لأنها تشترط ضمناً الرغبة الشديدة والمتقدة في نيل المعلومات. أفلم يكن الفضول الفلسفي ما حمل ملكة سبأ فانطلقت بقافلتها من الجمال المحملة بالهدايا الثمينة لزيارة الملك سليمان؟ وأما أنها أفادت كثيراً عند سماع الإجابات عن الألغاز التي عرضتها فأمر لم يبلغنا، ولكن لابد أن الدافع الذي حدا بها للقيام بالحج هذا كان الفضول وما عرضته من الظمأ إلى المعرفة، وهما لا ريب فضيلتان تحمدان لها.

أما أولئك الذين كان لديهم من الصبر والفضول ما حملهم على قراءة هذا الكتاب فلا أملك سوى أن أعتذر لهم عن تقصيري في أن أضفي عليه قدراً أعظم من الإثارة؛ بيد أن رحلة الحج التي مضيت فيها كانت جديرة بالجهد الذي بذلته وتلك الرحلات البعيدة وتعلم ما يمكنني استيعابه من المعرفة؛ إلا أن مشاهدة العالم أمر ووصفه بعبارات تعين إنساناً آخر على فهمه غير ذلك.

في البداية بدا الموضوع واضحاً محدد المعالم في حدود معينة، فحين وضعنا جانباً تلك المدن الشهيرة في شمال سورية وبعلبك وتدمر، والتي تناولها الكثيرون بالعرض والمعالجة؛ كانت مدن أدوم ومؤاب ومدن الحلف العشر (ديكابوليس) تعرض آفاق دراسة لديها الكثير مما تعد به. وكان هذا الحقل حديثاً نسبياً، وزادته طرافة التنقيبات التي قام بها مؤخراً علماء الآثار والمستكشفون. وبحث الناس في الكتب قديمها وحديثها عن معلومات تتصل بهذا الموضوع، كتب تبين أنها ويا للأسف تفتن وتفتح الأبواب أمام كل ضروب الغريب غير المتوقع، وتعرض لقضايا جانبية تجتذب ذوي العقول التي تنشغل بغرائب الأمور والدروب الجانبية، وتكاد تنشغل عن الطريق الأساس الذي يقود إلى الأمام، مثل تلك الطرق الملتفة

التي تُصادف في فلسطين، وتبدو مثل شريط أبيض، ثم تضيع في المسافة التي يغلب عليها الضباب. ولا يكاد المرء يملك أن يقاوم إغراء إطالة المقام على الدروب الجانبية، وإذا كنت قد جلبت لنفسي هذا اللوم؛ فلا أملك إلا أن أعتذر لأولئك الذين تابعوا الطريق وأطالوا إلى هذا الحد، وإني لأؤكد لهم بأنهم كانوا في الأرجح سيتبعون هذا الدرب عل كل حال. لكنني أبين ههنا بأن غرضي حقاً كان السعي لرواية قصة هذه المدن المندثرة، وبعث الناس في المواقع المهجورة حيث كانوا يعيشون ذات يوم، إلى جانب الذين صاغوا تاريخ أزمانهم، فإن وفقت ولو بقدر بتحقيق هذا الهدف كانت نفسي مطمئنة.

لقد عرضنا في حجنا لألفي سنة، وشاهدنا شعوباً وسلالات حاكمة تصعد ثم تنهار، وقد ظهرت مصر الأسرار في بداية هذه القصة، وما زالت فيها حتى النهاية تقريباً، وما انفكت دول الآشوريين وبابل والعموريين بحاجة للتحديد بوضوح، ثم هناك فارس وفنها ومخيلتها التي ألهمت اليهود في الأسر والسوريين أيضاً؛ وبلاد الإغريق التي عم أثرها، وروما ذات السلطات، وبيزنطة المدينة الوثنية العظيمة التي صارت مسيحية وكانت هذه كلها تحتل المسرح، ثم كان الفناء.

وبعد بضعة مئات من السنين التي جاء الرومان خلالها بالرفاه كان صعود الإسلام والمسلمين الذين شيدوا المباني المجيدة ودمروا المعابد كرمي للدين، وبعد هزيمة البيزنطيين في معركة اليرموك فتح العرب سورية. ثم أعقب ذلك ثلاثمئة عام من قتال لم ينقطع، وعندئذ كان للفاطميين الاستيلاء على مصر وسورية، فإغارات السلاجقة الأتراك الذين استولوا من جديد على دمشق وأنطاكية. وفي الفترة الصليبية كانت الكرك والبتراء المدينتين الوحيدتين من دون المدن الأخرى كلها اللتين زرناهما وعانتا أشد المعاناة، وفي وقت كان الصليبيون فيه يخوضون المعارك في أرجاء البلاد كلها. كانت معركة حطين التي خاضها صلاح الدين على الطرف الآخر من نهر الأردن، وبعد أن استولى ريتشارد قلب الأسد على عكا أبرمت هناك هدنة، ولكن ما هو إلا حين حتى خرج القوم من المدينة من جديد.

صورة [مقابل ص 318 في الأصل الانكليزي]
آخر النهار

ولقد اجتاح الخوارزمية سورية، ثم جاء بعدئذٍ المغول المتوحشون، وكان مقدمهم في القرن الثالث عشر. ورافق هذا الغزو وحشية ونهب ودمار لم يبق ولم يذر، وقد وصف ذلك موراجا دو اوسون Mouraja D'Ohsson في كتابه Les Peuples du Caucase، وهأنذا أقدم للقارئ ترجمة حرفية للنص الفرنسي:

«لقد غيرت غزوات المغول وجه آسيا، وكان من آثار تلك الغزوات انهيار إمبراطوريات عظمى وزوال سلالات قديمة، واختفاء بعض الأمم، وأخرى تكاد تكون قد أفنيت تماماً، ويكاد المرء ألا يرى غير الدمار والخراب وعظام البشر حيثما بلغت سنابك خيلهم. وكان هؤلاء الغزاة الذين تفوقوا على كل الغزاة الآخرين الذين سبقوهم في وحشيتهم يجتزون رقاب الرجال والنساء والأطفال كلما دخلوا بلدة ويحرقون المدن والقرى، ويدمرون المحاصيل والغلال، ويحيلون البلدان الزاهرة إلى صحارى؛ ومع ذلك فلم يكن دافعهم كراهية أو رغبة في انتقام، فهم لا يعرفون أسماء الناس الذين قتلوهم».

يا لها من صورة رهيبة، وهي ليست من المبالغة في شيء، والمرء ليعجب بعد أن قرأ وصف الأعمال الشنيعة التي نفذتها جحافل الغزاة هؤلاء كيف كان يمكن لشيء أو أحد أن يفلت من قسوتهم. وحسبنا الآن ما طالعنا من هذا التاريخ المقيت الذي أصاب شرق فلسطين؛ لأن كل ضرر حدث قد صار تاريخاً محققاً، والآثار التي أتت عليها النيران وتصاعد دخانها بقيت بعد أن غادرها هؤلاء المغول.

ومع غروب الشمس عن تلك الأرض الرائعة وراء نهر الأردن تغدو تجارب الأسابيع القليلة الماضية أمام العقل موكباً من الأحداث الجليلة؛ فالشمس تشع على القمم الوردية، والصخور وأبنية البتراء المذهلة مذكرة بمدينة الموتى الغريبة تلك، حيث لا موتى يستريحون، وأرى ثانية الحوض الذي تعلوه أزهار الدفلى وصخور مرقشة بالقبور ودور السكن. وتتفتق الشمس الغاربة عن أغرب الألوان من الصخور، ما بين لون اللهب الشاحب والقرمزي، ويلوح أنها تضفي حياة من عندها على المدينة المقدودة من الصخر التي تتغير، وإن كانت لا تنتهي حين تختفي الشمس وراء صخرة صقلها تساقط المطر، خطوطها ظاهرة بقوة قبالة السماء الشاحبة.

وقد لا يكون لتاريخ البتراء الحقيقي أن يُدفن ويطوى تحت نباتات الحث والأثل التي تغطي الأرض الممتدة إلى عدة مدن، مدن الرومان والإغريق والأنباط؛ بل ربما مدت الأدوميين. وإنه لغريب في منطقة كلها غرائب أن تكون العزلة العظيمة حافلة بأشباح أولئك الذين طالما صعدوا ونزلوا الدرجات السحيقة التي تؤدي إلى بيوتهم، أو مروا بالشوارع في السهل التي ما تزال آثارها ظاهرة. وإنهم لبشر جداً أولئك الرجال والنساء الذين لا نعرف عن تاريخهم الشخصي إلا القليل، وليس من العسير الاتصال بهم. وعلى الرغم من غرابة البتراء وروعة الوادي السحيق الذي ينتهي فجأة بمشهد خزنة الفرعون، وهو موقع يتملكك بشدة حتى ليشق عليك أن تغادره.

وحين تترك البتراء ينشغل العقل بالصحراء حيث الظلال المتمددة وأشعة الشمس المائلة إلى غروب تضفي على المشهد شكلاً مهيباً دونه ما يلوح لك في النهار. وتمضي الإبل في طريقها في خط ولها كل صفات الموكب، والراعي يقف وسط قطيعه، ويبدو أنه بحاجة فعلاً للبندقية التي يتنكبها، فيبدو المشهد كله من حوله مقفراً جداً. ونمر بالخزان الكبير والقلعة العربية في القطراني، وكانت تُحرس من الكرك، ولنا أن نتخيل أنها ما زالت محصنة ضد هجوم من العدو. وعليقات المكانس البيض تنشر فروعها الخفية على امتداد الدرب الذي كان ذات يوم أحد الطرق التي شقت أيام الرومان وقبل ذلك طريقاً للقوافل، والمساحات تبدو هنا أكثر اتساعاً، والتلال غريبة غامضة، والأعراب البدو يتسمون فيما

أنت تعبر الدرب، فيظهرون أسناناً بيضاء لامعة في وجوه سمراء، وكأنما لا ملامح لهم في ضوء النهار المتلاشي، ولباسهم الأبيض تتقلص حدته مع تقلص ضوء النهار المتدرج؛ بل إن الخط الحديدي الحجازي الذي يبدو كأنه صورة القفر في النهار يكتسب الآن شيئاً من الرومانسية فيما الشمس الغاربة تكسب خط الأفق لوناً ذهبياً.

هذه الذكريات كلها تتصل بغروب الشمس، وهناك ذكريات أخرى شديدة الإلحاح كتلك، وذلك ما يسم الكثير في أرض حيث العظمة أمر من الماضي، ولعل ذلك هو السبب الذي يبدو أنه يجعل المرء يتأثر به هنا أكثر مما هو الحال في معظم الأماكن.

مأدبا ذكرى أخرى تبعث حرة دائماً من خواطر حزينة، وإن كان لها تاريخ من الدماء والاغتصاب أيضاً؛ إنها توحي بسهل خصب، وبلدة هادئة ذات رخاء، تضم خريطة الفسيفساء الشهيرة، وفي بيت ملحق ما هناك ممسحة ودلو ماء يظهران أرضية من الفسيفساء يمكنها أن تكرم متحفاً، وحين يُنظَّف المكان تظهر رؤوس الطيور والحيوانات والبشر والأرابيسك كذلك شيئاً فشيئاً وتكنس الأنقاض. أما بقايا البازيليكا وهي عديدة ومثيرة للاهتمام فتسم مأدبا معقلاً مسيحياً، وقد كانت حقاً هذا المعقل في الماضي قبل أن يختفي هذا أيضاً.

ومن الذكريات التي لا تنسى ذكريات البحر الميت البحر الغائر، كما يصفه ياقوت ببلاغته، فلم تكن تلك الطفرة من الطبيعة لتبدو أكثر جمالاً مما هي عليه حين تشع الشمس، وهي تنحدر عند المغيب مثل النحاس على مياهه الخضراء الكثيفة والشفافة معاً، محيلة الكريستالات البيضاء التي تستلقي على السطح المشوش إلى لون الذهب. ويعود البحر الميت بالمرء إلى الأيام الخوالي، حين غيرّ الاضطراب العظيم طبيعة المنخفض العميق الذي كان على ما يقال نتيجة اضطراب أصاب قشرة الأرض. ولابد أنه كان مشهداً استثنائياً! وللمرء أن يتخيل بصورة باهتة الانفجار الرهيب للقار، والبركان الذي أخرج التلال على الطرفين وخفض مستوى بحر الملح، تاركاً قعر البحر القديم من الحقبة الثالثة ليظل حيث هو منذ ذلك اليوم. فهل أرعد وزمجر البرق حين كان ذلك المشهد الرهيب؟ وهل غمر الغروب المياه التي تغلي من شدة الحرارة بوهج لون النحاس كما حين رأيتها آخر مرة في

ختام يوم باهر من أيام الربيع؟

يكون الغروب في عمان في أبهى صوره حين ينزل شعاع الشمس الغاربة على صفوف المقاعد الحجرية في مدرجات المسارح، أو حين تُشاهد من تل القلعة، ومنها يقع نظر المرء على مشاهد واسعة من البلد من حولها. ومرة أخرى يتلاعب الغروب بضروب ودرجات الألوان الأحمر والأصفر والأسمر النحاسي من أثواب العرب في السوق، وتلمح المياه المترقرقة في الجدول بينما ينفض أحد الفرسان الماء عن حوافر جواده.

ويستعرض الفكر أمامه سلسلة كاملة من الناس حين تتراءى للخيال صورة عمون ثم فيلادلفيا، تفرضان نفسيهما؛ فهذه قبيلة العمونيين القديمة ذات البأس التي تلت العمالقة وربما كانت قد تغلبت عليهم، وراحت ترصد الأحوال من القلعة العالية وتعامل سفراء داود باستخفاف واحتقار، ولا تنفك تقاتل قواته حتى النهاية حين تهاجمهم، هؤلاء وداود ذاته وأوريا الحثي، والجوهرة من تاج ملك العمونيين الذي وضعه داود لاحقاً، على رأسه بنفسه، تزحم الصورة. وجاء هيرود الملقب بالكبير وهيرود انتيباس، وابنة الحارث صاحب البتراء، ليؤدوا أدوارهم في المأساة، ومن بعيد يلوح شبح يوحنا المعمدان في سجن مخايرس (مقاور).

ولكن فيلادلفيا ليست لها أهمية شخصية لدينا؛ غير أنها ترسم خيال الملك بطليموس فيلادلفوس ملك مصر، وبلاطه الذي تغمره الثقافة أو المعارك المتصلة التي يخوضها الملك المقدوني الآخر، أي أنطيوخس الثالث الذي استولى على القلعة بأن قطع عنها المياه. أما عن استلام الطغاة حكم مدن الديكابوليس فلا نعلم عنه إلا القليل، وأقل من ذلك عن نزول المسلمين فيها. ولكن الجغرافي العربي الباهر المقدسي يفيدنا بالقليل عنها في كتابه الممتع الذي يثير في المرء شعوراً بالأسى؛ لأنه لم يكن للعرب وحضارتهم أثر في قصة المدن المندثرة، باستثناء وحيد هو الأنباط الذين كان وجودهم سابقاً للإسلام.

هناك ما يجذب في الفكرة القائلة بأن الشعب كله من البدو، ولا سيما حين يكون المرء قد عكف على تأمل كل الثروات المتراكمة والممتلكات التي ضاعت في الحروب؛ فأي بساطة كان العيش في بيوت الشعر، حين تنصب الخيمة مرة بعد مرة بهذا القدر القليل

من التعب! وما أقل ما تطلب حين يكون العيش على هذا القدر من البساطة. حسبك من الحياة عندئذ إبريق قهوة دمشقي، ووعاء لبن، وبضعة أغطية للفراش، وعدد من أوعية الطبخ، ومغزل لنسج شعر الماعز وآلة بسيطة لحياكته عند الغزل – ثم نعم النارجيلة. وفي الخارج هناك بعض قطعان الماعز، والغنم أو الجمال، وربما حصان أو حصانان. وبذلك تكتمل عدة البيت، وبعد فإنك إذا رأيت خياماً على الدرب بدا لك أن مع الخيام الكثير من العتاد، أو قد لا تكون الحياة بسيطة في الصحراء على نحو ما تبدو للناظر.

إن آخر موقع نلقي عليه ضوء الغروب عند مغيب الشمس هو مدينة الألف عمود التي غادرناها لتونا؛ فالغروب في جرش مسألة تزيينية معقدة، فالحجارة الصماء تبدو ضخمة في النور المتألق كأشعة الذهب وتبدي ظلالاً مضخمة، وتحل سكينة عظيمة على أرض الأطلال، وترسم أطر الساحة البيضوية الأعمدة ذات التيجان الأيونية، التي تأخذ شكل دائرة سحرية، وتغريد العصافير الصغيرة التي تقيم أعشاشها بين التيجان الكورنثية في الأعمدة في أروقة معبد أرتميس حيث التماثيل.

وما يطيل المقام في الذاكرة في جرش إنما هي ذكريات جمال الموقع أكثر من اهتمام الإنسان، ومع ذلك تطالعنا أسماء عديدة في مدن الديكابوليس، وهي أسماء تفيد بوجود حضارة يونانية من الحقبتين الوثنية المتأخرة وبواكير المسيحية، حين كانت بيزنطة مركز الحضارة، وكان للذكاء والبهجة والحبور في مجتمع راق حقبها القصيرة التي تسود فيها، قبل أن تختفي؛ كلياً في لجة أزمنة السوء، ولكن أزمنة الذكاء والمعارف والعلوم لم تغب ولا اختفت كلياً؛ لأنها استمرت تحيا في كتب أصحابها حين أنقذت من الدمار الشامل الذي أصاب كل شيء، ومع ذلك فقد كان لها لحظتها، وربما كان الشاعر مالك بن حريم [الهمذاني] محقاً حين أنشد بين الأسى والسخرية:

أنبئت والأيام ذات تجارب	*وتبدي لك الأيام ما لست تعلم*
بأن ثراء المال ينفع ربه	*ويثني عليه الحمد وهو مذمم*
وإن قليل المال للمرء مفسد	*يحز كما حز القطيع المحرم*
يرى درجات المجد لا يطيعها	*ويقعد وسط القوم لا يتكلم*

حقاً إنه لم يكن مألوفاً في السوري – اليوناني أن يجلس ساكناً، سواء كان بوسعه أن يرتقي سلم المجد أم لا؛ فالقصيدة وهي جاهلية تبين سلطان الثروات في تلك الأيام. فالحق أن «غياب المناسبة» كان يضيع في كل العصور رجالاً ربما نالوا المجد لو أسعفتهم الفرصة.

إن لوقيان الساخر ومينيبوس الذي ما زال يعيش عبر كتبه الضائعة وميلياجر صاحب الأقوال الحكيمة وبقية الكتاب والمعلمين الأفذاذ الذين كانوا أبناء المدن الإغريقية يكسبون بلدهم مجداً. وكان هؤلاء جميعهم تقريباً جوالين، وقد كان بعضهم أصدقاء لأباطرة، وغدا أحدهم معلماً لتبيريوس، بينما كان شيشرون يملك أحدهم معاوناً له. وكم هناك من ذكريات ممتعة يستعيدها المرء والشمس تحط على أطلال جراسا وقد خلفتها من بعيد.

والصورة الأخيرة في هذا الكتاب مشهد شديد الوقع في النفس، مشهد البحر الميت من جبل الزيتون الذي يبدو وهو يستحم في أشعة الشمس الغاربة نقطة حسنة لننظر منها، ونلقي آخر نظرة إلى المنطقة التي غادرناها لتونا.

يمكن للمرء أن يقع على أجمل المشاهد وهو ينظر إلى البحر الميت من القدس، ومن هذه البقعة خاصة. والبحيرة ذات المياه الخضراء المائلة إلى الزرقة تشاهد هنا بفضل أشعة الشمس، والضباب الوردي اللون الذي يعم زرقة جبال مؤاب المعتمة، تلك السلسلة الطويلة المتصلة التي ترسم خطاً رائعاً للسماء، وذلك أحد أروع المشاهد التي يمكن أن يراها المرء من أي جزء من المدينة المقدسة يتجه شرقاً.

وبعرضنا هذه الصورة للغروب يجمل بنا أن ندع هذا العرض لجولات بين المدن المنسية في بلاد العرب.

المحتويات

لائحـــة الرســـــوم

المدن المنسية في بلاد العرب

ما الذي في شروق الشمس حتى يكون له هذا التأثير الذي يفتن المخيلة ويسحرها بهذه القوة؟ فتأثيره عادة أقل سحراً وفتنة من الغروب، إذ كثيراً ما تختبئ الشمس بحياء متكلف وراء السحب الشبيهة بالصوف، وأنت لا تدري بوجودها حتى تجدها قد صعدت وارتفعت عالياً بكل تجبر. لكن جمال المشهد يمثل أمامنا، وربما كان سبب هذا الافتتان إلى ما يثيره هذا المشهد في المخيلة، فضلاً عن جماله الماثل للعين. حيث نرى بعين الخيال صباح العالم، بل الكون، بل الحياة ذاتها؛ إنها ترمز لبداية الأشياء وهي ملائمة على وجه الخصوص لبداية رحلة. إنها ملائمة أكثر من أي وقت مضى حين يكون هدف الرحلة موقع مدن اختفى ذكرها وتاريخها ويعود إلى عصور مبهمة.



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE